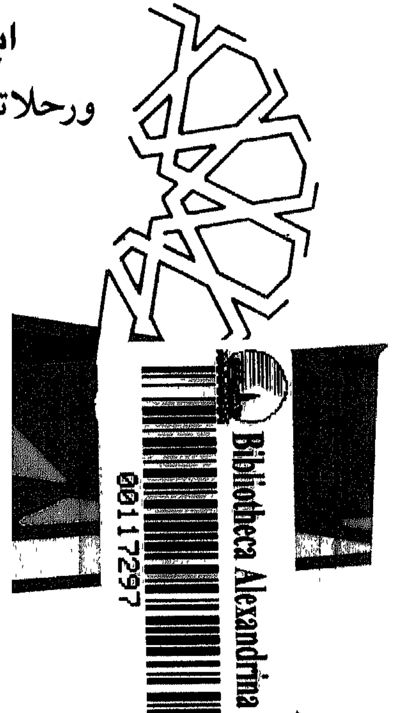
د. محمد جابر الأنصاري

التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق

في آثار

ابن سعيد المغربي

ورحلاته المشرقية وتحولات عصره



دار الغرب الإسلامي

التفاعل الثقافي

التفاعل الثقافي

بين

المغرب و المشرق

في آثار

ابن سعيد المغربي

ورحلاته المشرقية وتحولات عصره

تأليف
د. محمد جابر الأنصاري



الطبعة الأولى

1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

مقدمة الناشر

شاهد التفاعل الثقافي
بين المغرب والمشرق

لم يُتح لمصنِّف عربي آخر ، قبل ابن سعيد أو بعده ، القيام بدور الشاهد الثقافي ، الموسوعي المستقصي ، على التفاعل والتجاذب والجدل بين المغرب والمشرق كما أتيح لهذا المؤرخ الناقد ، والرحالة الجغرافي ، الأندلسي النشأة ، التونسي الاقامة ، المشرقي السياحات العلمية : شاماً ومصراً ، عراقاً وحجازاً . .

فقد ظهر في عصرٍ تغيّرت وتحولت فيه مختلف مناحي الحياة العربية الاسلامية ـ مغرباً ومشرقاً ـ بل تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي وحدوده ذاتها . . واختفت دول وحركات ، وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من أقطار الى أخرى ، وبرزت في الثقافة والاجتماع والأخلاق اتجاهات وخصائص لم تكن من قبل . وفي ذلك العصر شهد المغرب ظهور أعظم فلاسفته ومتصوفيه كابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهد عدداً من كبار شعرائه كالرصافي البلنسي وابن زهر الحفيد وابن سهل ، كما شهد أعظم رحاليه وهو ابن جبير ، وأعظم نباتي في تاريخه وهو ابن البيطار . . أما أعظم مصنِّفيه ، في الأدب والتاريخ والجغرافيا ، فلم يكن غير ابن سعيد ذاته . .

من هنا أتيح لابن سعيد أن تعكس آثاره موسوعية الشاهد الثقافي على التفاعل بين المشرق والمغرب في أخصب عصور التاريخ العربي الاسلامي

صورة شاملة عن بيئة اشبيلية من مختلف جوانبها وتتبع ذلك بحديث موجز عن اسرة بني سعيد ونشاطها الثقافي بقصد اعطاء فكرة عن بيئة ابن سعيد العائلية .

ويختص الفصل الأول بتاريخ حياة ابن سعيد ، حيث يعيد صياغة هذا التاريخ من الأخبار والروايات المتفرقة حسب الترتيب الزمني ليرافق ابن سعيد في حياته المبكرة في وطنه الأندلس وفي رحلاته الى أقطار المشرق بعدئذ .

أما الفصل الثاني فيبحث في شخصية ابن سعيد وثقافته العامة ويركز على عوامل تكوين شخصيته ثم على المزايا والخصائص التي نشأت تأثرا بتلك العوامل .

ويتحدث الفصل الثالث عن علمه ومصنفاته ومنهجه فيتعرض على التوالي : لحدود علمه واتجاهاته ثم لاساتذته ثم لمصنفاته على اختلاف انواعها ثم لمنهجه في التأليف .

ويأتي الفصل الرابع ليتحدث عن ابن سعيد الرحالة الجغرافي حسب الترتيب التالي : نظرة في جغرافيته الأدبية حيث دخل التصور الجغرافي في أساس تركيب كتابيه الأدبيين الكبيرين « المغرب » و « المشرق » ، ثم حديث عن أدب الرحلة عنده على ضوء ما تركه لنا من مذكرات عن زياراته لمصر ، ثم عرض لجهوده في الجغرافية الخالصة .

ويشغل الحديث عن آرائه النقدية الفصل الخامس ، حيث التفت الى مواقفه النقدية العامة وموقفه من التيارات النقدية في تاريخ الأدب العربي ، ثم فصلت آراؤه الخاصة أو ما يمكن تسميته بنقده التطبيقي الموضعي فيما يتعلق بالشعر والنثر على حد سواء .

وجاء الفصل السادس والأخير من هذا البحث ليتحدث عن شعر ابن سعيد . وقد عرضت في هذه الفصل المظاهر الرئيسية في شعره ثم التفت الى خصائصه الفنية والى المؤثرات المتعددة التي أثرت فيه . وعلى العموم فقد روعى في هذا البحث ـ عبر مختلف فصوله ـ الالتفات الى ميول ابن

سعيد الأدبية ومزاياه النفسية وآرائه النقـدية في حـد ذاتها أولاً ، استيفـاء لمتطلبات البحث العلمي ، ومن حيث تأثيرها في مصنفاته ثانياً تحقيقا لاحد أهداف هذه الدراسة فقد أثرت تلك الآراء والميول في مصنفات تعتبر وثائق مهمة للدارس الحديث المهتم بتاريخ الأدب العربي ، ولا بد له اذا أراد ان يحسن استعمالها من التنبه الى المؤثرات التي أثرت فيها .

وبتركيز هذه الدراسة على « ظاهرة » ابن سعيد المغربي من مختلف جوانبها ، كان الهدف من وراء ذلك : تبيان مظاهر ونماذج التفاعل والتبادل الثقافي الحي بين المغرب والمشرق في إطار الحضارة العربية الإسلامية من خلال تجربة شخصية وعلمية ملموسة لأحد أعـلام هذه الحضـارة . هذا بالإضافة الى ابراز التزامه بمواصلة العمل الثقافي رغم الانهيارات السياسية الكبرى في عصره ، بما يعطي لابناء جيلنا من المثقفين العرب قدوة صالحة يتأملونها في عصر أشبه ما يكون بعصر ابن سعيد . . .

البحرين : المؤلف

إهداء الكتاب

إلى إحسان عباس

الرمز الأعمق للتفاعل بين المشرق والمغرب في عصرنا

تحية تقدير عميق لقامته العلمية العملاقة . .

مع خالص الحب من « المشرق الأقصى »

البحرين : م . ج . أ

تمهيد :

بين يدي البحث : شاهد عصره

شهدت الاندلس في العصر الموحدي (من منتصف القرن السادس الى حوالي منتصف القرن السابع) فترة من أخصب فترات عطائها الثقافي . ففي هذه الفترة شهدت ظهور اعظم فلاسفتها ومتصوفيها على الاطلاق مثل ابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهدت عدداً من كبار شعرائها ووشاحيها وزجاليها : كالرصافي البلنسي وابن جعفر بن سعيد ، وابن زهر الحفيد والصابوني وابن سهل وابن حجدر كما شهدت رحالة من اشهر رحاليها الا وهو ابن جبير ، ونباتياً هو أعظم نباتي في تاريخها وأعني به ابن البيطار . وفي حقل التصنيف عامة ظهر علمان يمكن وضعهما مع كبار المصنفين في المشرق والمغرب على حد سواء ، وهما : ابن الابار وابن سعيد .

هذه الفترة ـ رغم اهميتها الثقافية ـ لم تحظ بعد بحقها من الدراسة والبحث . واذا قيل انه لا يوجد مبحث واحد يعتني عناية وافية بحركتها الثقافية أو بجانب من جوانب هذه الحركة : أدباً أو تصنيفاً أو فكراً أو علماً ، لم يكن ذلك تجاوزاً للحقيقة . فالحديث عن هذه الفترة ثقافياً إما أن يكون تتمة لاستعراض عام لعصور الثقافة الاندلسية او اعلامها كما جاء في كتاب المستشرق الاسباني « بالنثيا » « تاريخ الفكر الاندلسي » أو في الجزء الخاص بالاندلس من كتاب « ظهر الاسلام » لأحمد أمين ، أو ان يأتي اكمالاً لبحث يتناول التاريخ السياسي للاندلس في عصر الموحدين ويمر بالثقافة في المامة عابرة موجزة ، كما في كتاب « تاريخ الاندلس في عهد

المرابطين والموحدين » للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، مثلا . ورجال الفكر والعلم الاندلسيون الذين ينتسبون الى هذه الفترة درسوا ضمن ابحاث عامة في تاريخ الفلسفة العربية ، أو العلوم العربية دون ان تدرس أفكارهم وشخصياتهم على ضوء بيئتهم المحلية واحداث عصرهم ، واذا كانت الدراسات من النوع الاول لها اهميتها وضرورتها ، فان الدراسات من النوع الثاني لا تقل عنها أهمية وضرورة لما لها من شأن في ربط الفكرة والشخصية باطارهما الصلب : الزمان والمكان .

الا ان ظهور ابحاث عامة تتناول ثقافة العصر أو فرعاً من فروعها وتتمكن من التحقيق والضبط ومن التقويم والحكم في الوقت ذاته ، لا يمكن ان يقترب من حيز الامكان الا اذا مهدت لتلك الابحاث ذات الطابع العام والصبغة التقويمية دراسات جزئية تهتم بالتحقيق التاريخي او بتحقيق المخطوطات او بتسليط الضوء على شخصية من شخصيات العصر على ان تدرس تلك الشخصية ضمن اطارها الزماني والمكاني . ان تحقيق الهدف الاول مرتبط اشد الارتباط بهذا النوع من الدراسات التي قد تبدو قليلة الاهمية اذا فصلت عن اطارها العام ، ولكن النظرة المتمعنة الشاملة لا بد ان تكتشف ما لها من اهمية حقيقية ومن ضرورة حتمية . وهذا أمر تغفل عنه احياناً حتى بعض الاوساط الجامعية التي تميل الى التشديد على اهمية العطاء الذاتي في البحث العلمي . نعم ان التشديد على هذه الناحية حق وواجب وضرورة . فلا خير في دراسات جامعية تجعل من الدارس آلة لتحقيق المخطوطات وجمع الروايات من الكتب القديمة وتنظيمها وتبويبها . . . ثم تقف به عند هذا الحد ! ان ذلك وسيلة لا غاية ، والغاية القصوى هي أن يتعود المرء على الاساليب السليمة للحكم والتقويم حتى يتمكن عندئذ من اعطاء كلمة لها قيمة في شؤون النتاج العقلي ومسائل التراث فيتمكن الناس من ارساء قواعد حياتهم على اسس بينة فيما يختص بعلاقة الحاضر بالماضي وفيما يختص بتطلعاتهم الجديدة نحو المستقبل . هنا نهاية المطاف وعلى كل باحث ان يتطلع نحوها سواء تمكن من الوصول الى تحقيقها بنفسه او ساهم في الجهود المتجهة نحوها . ورأيي الخاص ان

اي باحث يقوم بابحاثه في ابراج عاجية بعيداً عن تطلعات أمته والانسانية وشؤونهما وشجونهما ـ شجونهما خاصة ـ هو امرؤ ينقصه الشعـور بشرف الالتزام بالمسؤولية . . الالتزام بمعناه الانساني الأبعد ! والمسؤولية بمغزاها الحياتي الأعمق . . .

كل هذا حق وواجب وضرورة .

ولكن . . لا بد مما ليس منه بد . اذ ليس بالإمكان ان نصـل الى الاحكام القائمة على اساس علمي راسخ الا بمثل هذه الابحاث الجانبية الجزئية التي تضيف لبنة الى لبنة في البناء الكبير . واذا كان عصر من عصور الثقافة العربية يحتاج دراسة وبحثاً في جوانبه المختلفة فهو عصر الموحدين في الاندلس خاصة .

وهذا البحث هدفه الاسهام البسيط في خدمة لتلك الغاية الكبيرة التي تحتاج حتى تتحقق الى باحثين ذوي بأس شديد . ولقد اخترت ابن سعيد من بين رجالات العصر الموحدي ـ كشاهد ثقافي ـ لعدة أسباب ، وهي :

اولاً : ان ابن سعيد ، رغم تعدد مصنفاته وتنوع موضوعاتها ، مصنف تغلب عليه الصبغة الادبية في كل ما يكتب . بكلمة اخرى ، انه جمع في ثقافته بين فروع علمية كـالتاريـخ والجغرافيـا والفلك وبين الميل الادبي القوي ، وقد التحم هذا الجمع في شخصيته بقوة حتى غدا طابعاً مميزاً له . وعليه فان ابن سعيد يمثل نمطاً ثقافياً شمولياً له مكانته وميزته الخاصة في العصر الموحدي ، يحسن الالتفات اليه .

ثانياً : ان عددا من كتبه كالمغرب والقدح المعلى ورايات المبرزين والغصون اليانعة تعتبر مصادر اساسية ومهمة في كتابة التـاريخ الانـدلسي ودراسة الادب الاندلسي في العصور السابقة عامة وفي هذا العصر خاصة . « فالمُغرب » ـ باعتراف المختصين في الادب الانـدلسي ـ وثيقة لا تقـدر بثمن في دراسة شعر الاندلس وشعرائها ، « والقدح » هو الآخر وثيقة هامة فيما يختص بتصور الحركة الثقافية خلال الخمسين سنة الاخيرة من حياة الاندلس . ورجل لمصنفاته مثل هذه الاهمية لا بد ان يدرس من جوانبه

المختلفة حتى تعرف ميوله واتجاهاته : شخصياً وعلمياً وأدبياً ، وحتى يستفاد من مصنفاته تلك بعدئذ على ضوء تلك الميول والاتجاهات ، فان ذلك اسلم وأفيد لدقة البحث العلمي وصفاء الحقيقة التاريخية . وما اشد تأثر المصنفات القديمة بميول اصحابها واتجاهاتهم . ولقد اهتم الباحثون بأصحاب المصنفات الهامة التي تعتمد باعتبارها مصادر اولية في الدراسات التاريخية والادبية وذلك تحقيقاً لتلك الغاية ، فدرسوا ميول اصحابها الشخصية واتجاهاتهم النقدية والمذهبية والجنسية. اذكر من هذه الابحاث في النطاق الادبي البحث الذي كتبه الدكتور جبرائيل جبور عن « ابن عبد ربه وعقده » والبحث الذي كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن « صاحب الاغاني » ابو الفرج الاصفهاني الرواية . وهذا البحث عن ابن سعيد يسير ، من ناحية ، في هذا الخط فيحاول الكشف عن اتجاهات ابن سعيد في التصنيف والنقد ، وعن ميوله الشخصية ويربط ذلك كله بمصنفاته التي يغطي اهمها التفاتا خاصاً . فهو اذن بحث عن « ابن سعيد ومغربه » الى حد كبير ان قصد بذلك هذه الغاية .

ثالثاً : وجدت ان ابن سعيد ، هذا المصنف والاديب والرحالة الجغرافي ، قد غمط حقه من الذكر والتعريف . فمعظم المصنفين القدامى الذين هم في مستواه كتبت عنهم التعريفات والابحاث واصبحوا معروفين لدى دارسي الادب والتاريخ . حتى ان إبن الابار ـ زميل ابن سعيد وشريكه في الجهود التصنيفية ـ كتب عنه بحثان : بحث عام عن حياته وآثاره للدكتور عبد العزيز عبد المجيد وبحث خاص يركز على مؤلفه الضخم « الحلة السيراء » للدكتور عبد الله انيس الطباع . وابن سعيد ليس اقل من ابن الابار مكانة وشهرة فلقد كان ذا شهرة واسعة في الاندلس والمغرب ثم انه امتاز عن ابن الابار برحلاته العلمية المفيدة الى المشرق وبجهوده في حقل الجغرافية .

رابعاً : هناك ميزة في ابن سعيد تختفي خلف شهرته الادبية الواسعة. تلك هي شخصيته الجغرافية، الرائدة، وهذا ليس من باب تضخيم اهمية ابن سعيد بل ان الادلة التاريخية والابحاث الجغرافية الحديثة

تدل على ذلك . فابن سعيد امتداد هام للمدرسة « الادريسية » في الجغرافيا بل انه تلميذ الادريسي ، هذا الجغرافي الاندلسي الصقلي النابه وخليفته . ومن ناحية اخرى فان مذكرات رحلته عن مصر خاصة ـ تذكرنا ـ من حيث اهميتها الاجتماعية والتاريخية وطابعها الشخصي بمذكرات مواطنه ابن جبير . وهكذا سنرى كيف اجتمع الادريسي من ناحية وابن جبير من ناحية اخرى في شخصية ابن سعيد الجغرافي الرحالة .

هذا من حيث الاختيار ، أما من حيث المصادر فقد أمكن الاطلاع على أغلب مؤلفات ابن سعيد بين مطبوعة ومخطوطة . الكتاب الهام الذي لم يمكن الاطلاع عليه هو كتاب « وصف الكون » في الجغرافيا ، الموجود بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطاني بلندن ، والذي يعتقد أنه مختصر لكتاب كبير باسم « كتاب الجغرافيا في الاقاليم السبعة » الا أن ما أمكن الاطلاع عليه في هذا المجال مختصر آخر هو « بسط الارض في الطول والعرض » ، وان كان من المعتقد ان هذا الاخير أقل جودة من الاول . اما ما عدا ذلك فان مصنفاته المتيسرة لدينا يمكن ان تعد كافية لدراسة نهجه ، وعلمه ، وآرائه النقدية ، وشخصيته ، وشعره الى حد ما . الا أنها من ناحية أخرى لا تعطينا صورة دقيقة متكاملة عن تاريخ حياته الطويلة الحافلة . فترجمته في « القدح المعلى » يبدو أن الاختصار قد أخل بها فجاءت ناقصة مبتورة رغم أن هذا الكتاب كان قد ألف في زمن متأخر بالنسبة للمغرب الذي تضمن ترجمة ناقصة له أيضاً .

ومن هنا أهمية المصادر التي تترجم لابن سعيد والتي يمكن ان تكون موثوقة على أساس القرب المكاني والزماني من موطن الرجل وعصره . ومما نقله المقري في النفح عن احاطة ابن الخطيب يتضح ان هذا الاخير ، الذي يمكن الاعتماد عليه مؤرخاً موثوقاً لحياة ابن سعيد ، قد أولاه اهتماماً كبيراً وأنه ترجم له في الاحاطة باسهاب الا انه عند الرجوع الى مخطوطة الاحاطة تبين ان ترجمة ابن سعيد فيها أوجز بكثير مما ذكره المقري مما يشير الى امكانية نقل المقري عن مخطوطة للاحاطة أدق وأكمل من هذه المخطوطة التي بين أيدينا . ولا داعي لان يثير هذا الاختلاف الكثير من

الشك فالحقائق الاولية مشتركة بين المخطوطة وبين ما نقله المقري والفرق في الحكايات والاشعار وليس في الاخبار المهمة . وأياً كان الامر فان جلاء هذه المسألة من مسؤولية المهتمين بتحقيق الاحاطة ومقارنة نسخها . أما فيما يختص ببحثنا فقد اعتمدنا الاحاطة فيما أوردته ورجعنا الى المقري فيما أسهب في نقله . والى جانب اعتمادنا على المقري في نقله عن ابن الخطيب ، اعتمدنا على المادة القيمة التي اوردها من كتب ابن سعيد الضائعة وعلى الاخص ديوانه . وبصورة عامة يمكن القول ان « النفح » اهم مصدر يستند اليه هذا البحث بعد كتب ابن سعيد نفسه .

وبالاضافة الى ذلك ، يمكن وضع وفيات ابن شاكر في عداد مصادرنا المعتمدة نظراً لتقدم زمنه (كتب سنة 754 هـ) ونظراً لكونه مشرقياً ـ فهو مصدرنا المشرقي الاهم ـ ونظراً لانه يخالف المصادر المغربية في مسألة وفاة ابن سعيد أما مسالك الابصار لابن فضل الله العمري فتنحصر أهميته في ايراده أشعاراً لابن سعيد لم ترد في كتبه أو في النفح ، وفي نقله لفصل مهم كتبه ابن سعيد في المقارنة بين المشرق والمغرب ولم يصل الينا منه غير شذرات مفرقة في النفح . ويفيدنا « النهل الصافي » لابن تغري بردى في تصويره للعلاقة الحميمة بين ابن سعيد وشاعر مصر الكبير في تلك الفترة البهاء زهير وفي تأكيده لوفاة ابن سعيد بالشهر واليوم حسب رواية ابن شاكر في الوفيات . ويمثل الديباج المذهب لابن فرحون مصدراً مهما بالنسبة للتحقيق في ثقافة ابن سعيد الدينية ، بينما يسعفنا تاريخ علماء بغداد لابن رافع السلامي باطلاعنا على بعض ظروف دخوله الى بغداد .

وفيما يختص بالتصور العام لعصر ابن سعيد ثقافياً اعتمدنا كتبه وخاصة المغرب والقدح بالاضافة الى مصنفات زميله ابن الابار «كالتكملة» و«المقتضب من تحفة القادم» ، وكتاب الغبريني « عنوان الدراية » الذي يصور نشاط الاندلسيين في تونس بعد النكبة . أما فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للعصر فليست ثمة كتاب معين يهتم بهذه الناحية وكل ما وصل الينا من أخبار تلك الاحداث هو الشذرات المبثوثة في الكتب التي صنفت خصيصا لتاريخ المغرب والتي تذكر أخبار سقوط المدن الاندلسية وأحوال

أمـرائها المحليين من حيث عـلاقتها بـدولة الخليفـة الموحـدي المغربي وبسجل أعماله وحروبه والثورات التي قامت ضده . وينطبق هذا الوصف على اهم مصدرين عن تلك الفترة وهما « البيان المغرب » لابن عذارى الذي كتبه أواخر القرن السابع الهجري وسجلت مادته بشيء من الانـاة والتفصيل ، وكتاب « روض القرطاس » لابن ابي زرع الـذي كتب أواخر الربع الاول من القرن الثامن الهجري عهد الدولة المرينية . أما ابن خلدون فقد أعطى شيئاً من الاهتمام لتلك الاحداث عندما ذكرها استطراداً عنـد حديثه عن ملوك الطوائف في الجزء الرابع ثم عاد الى الحديث عنها بعد ما يزيد عن قرن ونصف من وقوعها في الجزء السادس . وقد تم الاعتماد على هذه المصادر الثـلاثة مـع التفات خـاص الى أقدمهـا وأقربهـا من مسرح الاحداث ألا وهو « البيان المغرب » . ونظراً لان أحداث هذه الفترة على علاقة قوية بتحرك الامارات الاسبانية الغازية ، فقد يمتاز بانه اعتمد على الروايات الاسبانية ونسقها مع أخبار المصادر العربية .

وفيمـا يتعلق بفهم طابـع الادب الاندلسي في العصـور السابقـة ، والظواهر المصاحبة لـه والتيـارات البـارزة فيه فقـد اعتمدت على كتـاب الدكتور احسان عباس « تاريخ الادب الاندلسي » بجزئيه باعتبـاره أشمل المراجع وأدقها وأكثرها قرباً من الروح المنهجية .

المؤلف

المقدمة

البيئة السياسية والثقافية المتفاعلة بين المغرب والمشرق

1) صورة عامة للبيئة السياسية والثقافية في المشرق والمغرب :

جال ابن سعيد في أقطار كثيرة من العالم الاسلامي ، واتصل بالعديدين من أمرائه وعلمائه ، وعاش في كثير من مراكز ثقافته مطلعاً ومسجلاً . ولقد أثرت حوادث عصره في حياته تأثيراً مباشراً قوياً بحيث لا يمكن تتبع تاريخ حياته ، وفهم نتاجه ، وتفسير طابعه العلمي والادبي دون الالتفات الى عصره في احداثه الهامة وخصائصه الثقافية العامة والزي الاجتماعي السائد في بلدان العالم الاسلامي التي زارها ، وهو زي يمثل ـ رغم تباين الالوان المحلية ـ وحدة ثقافية حضارية ذات سمات متقاربة بحكم التفاعل المستمر القوي بين أجزائه .

ولقد كان عصر ابن سعيد ، القرن السابع الهجري ، عصر تحول وتغير في مختلف مناحي الحياة : تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي بل حدوده ذاتها . . . واختفت دول وأسر حاكمة وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من مدن الى أخرى ، بل من أقطار الى أخرى ، وبرزت على صعيد الادب والفكر والفن والاخلاق والاجتماع اتجاهات وخصائص لم تكن موجودة أو متبلورة من قبل ، ويكاد الحديث عن عصر ابن سعيد في هذه المقدمة الموجزة أن يكون أمراً بالغ العسر ولذلك فان اجمال بعض المظاهر هو كل ما يسعف عليه المقام ، راجياً ألا يؤدي ذلك الى تعميمات مخلة بالدقة العلمية .

1 ـ شهد هذا القرن في مطلعه دولتين كبيرتين في العالم الاسلامي :

الايوبية التي كانت تتمركز في مصر والشام وتمد نفوذها الى بعض أنحاء الجزيرة والعراق ، والموحدية التي كانت تحكم الاندلس والمغرب والغرب الاوسط (الجزائر) وتونس . وهاتان الدولتان اللتان ستشهدان مصرعهما حوالي منتصف القرن ، هما وليدتا ردة الفعل الاسلامية تجاه الاوضاع المضطربة اثر انهيار دول الخلافة والامارة الكبرى أو تفسخها ، وبعيد اشتداد الضغط الخارجي المتمثل في الحملات الصليبية (منذ 490 هـ / 1095) وفي ازدياد خطر الدويلات النصرانية في اسبانيا خلال فترة القرن وربع القرن المنصرمة .

فالدولة الايوبية (565 ـ 650 هـ / 1169 ـ 1249) نشأت امتداداً لدويلة عماد الدين زنكي السلجوقية التي قامت بأعباء الحرب في الحملة الصليبية الثانية (545 هـ / 1147 م) كما أنها خلفت الدولة الفاطمية في مصر التي لم تتمكن من مواجهة الخطر الخارجي بسبب التفكك الداخلي . وقد استطاعت الدولة الايوبية أن توحد مصر والشام وأن تقف في وجه الحملات الصليبية المتكررة وتهزم الصليبيين نهائياً وأن ترعى نهضة أدبية علمية في مراكز دولتها الكبرى كالقاهرة ودمشق وحلب .

وكما وقف الايوبيون في وجه الصليبيين ، وقف الموحدون في وجه الاسبان ردحاً من الزمن (539 ـ 624 هـ / 1143 ـ 1226 م) واستطاعوا اقامة دولة مغربية كبرى تشمل الاندلس والمغرب والمغرب الاوسط وتونس وقسماً من أفريقيا الغربية .

وفي ظل الحكم الموحدي الذي استطاع اشاعة الاستقرار والثقة ، شهد المغرب الاسلامي ذروة نهضته الفكرية التي تمثلها شخصيات كابن طفيل (581) وابن رشد (595) وابن جرج (601) وابن عربي (628) .

الا أن ردة الفعل القوية التي أسهمت في خلق هاتين الدولتين ما لبثت أن أصيبت بأعياء واسترخاء ، فقد شهدت الدولتان صراعاً داخلياً عنيفاً سهل للقوى المحلية المنافسة والقوى الخارجية الغازية القضاء عليهما . فعلى

صعيد دولة الموحدين اشتد الصراع على الحكم بين أمرائها وأشياخها واضطرت للتراجع عن الاندلس أمام الثورات المحلية والزحف الاسباني حوالي نهاية الربع الاول من هذا القرن . وهذا ما سيتم الحديث عنه بشيء من التفصيل عند التركيز على الوضع في الاندلس خاصة .

اما الدولة الايوبية فما لبثت ان تحولت الى امارات متناحرة اضطرت تدريجاً الى الاستسلام لسلطان المماليك المتعاظم (منذ حوالي سنة 650 هـ) عندما بدأ خطر المغول يبدو للعيان من أقصى الشرق . . .

وقد برز ضعف العالم الاسلامي بصورة صارخة عندما سقطت بغداد عند أقدام هولاكو سنة 656 . وكان ذلك السقوط ، الى جانب مغزاه السياسي ، نكبة ثقافية ونفسية برزت آثارها في العالم الاسلامي كله . وكان من ضمن ما عنته تهديد التراث المكتوب في الصميم . ولولا أن دولة المماليك تمكنت من توحيد مصر والشام وايقاف المد التتري في عين جالوت سنة 660 هـ ، لكان من المحتمل أن يتغير الوجه الحضاري للمنطقة وتتعرض آثار الثقافة والعمران الاسلاميين لمصير غامض . ولكن قيام هذه الدولة في القطرين اللذين رعيا حركة العلم في العهد الايوبي أدى الى استمرار ظاهرة التأليف والتصنيف بالرغم من أن أمراء المماليك لم يكونوا كالايوبيين علماً وانفتاحاً على الثقافة العربية وتشجيعاً للعلماء .

2 ـ وفي هذا الجو السياسي كان موقف أمراء المغرب من موحدين وحفصيين ازاء الحركة العلمية موقفاً مشجعاً وسأتحدث عن ذلك تفصيلاً بعد قليل ، أما في المشرق فكان الموقف مشابهاً فقد انفتح الايوبيون على الثقافة العربية الى حد بعيد حتى نبغ منهم المتأدبون والشعراء كالملك الناصر صاحب حلب والناصر داود صاحب الكرك ، وفي ظلهم نشط في مصر الفقه السياسي بعد ركوده في العصر الفاطمي كما ازدهر الشعر والادب في كل من القاهرة ودمشق وبرزت شخصيات أدبية كابن سناء الملك (608 هـ) وابن الفارض الشاعر الصوفي (632) وابن مطروح (649) وابن ابي الاصبع (654) والبهاء زهير (656) وكمال الدين بن العديم (660) ونجم الدين الدمشقي (677) وابي الحسين الجزار (679) .

وسيجتمع ابن سعيد بمعظم هؤلاء ويكون معهم صداقات علمية وشخصية .

وفي ظل الحكم المملوكي ركدت الحياة الثقافية بعض الشيء ولكن الاستقرار الذي ساد المنطقة بعد انتهاء المدين الصليبي والمغولي ساعد على التوفر للبحث والتنقيب فبدأت تظهر المصنفات الشاملة والموسوعات الضخمة .

والطابع العام للحياة العقلية في هذا العصر غلبة النزعة السنية واشتداد قوتها في الدين والفكر ، وسيطرة الشكل والزخرف على حساب الفكرة والشعور في الاداب والفنون، وقوة الميل نحو الجمع والنقل أو الاختصار والشرح في حقل التأليف والتصنيف .

وقبل اطلالة هذا القرن كانت الاحداث الهامة التالية قد تمت في حياة الفكر العربي :

أ ـ ألغى صلاح الدين المذهب الشيعي في مصر وجعل من المذهب السني مذهباً رسمياً للدولة تدافع عنه ، وتعلمه في معاهدها وتلتزم به وتذيعه ، وقد شفع ذلك بمقاومته العنيفة لفرقة الاسماعيليين الباطنية في شمال سوريا .

ب ـ صُفّيَ السهروردي صاحب الفلسفة الاشراقية على يد الظاهر بن صلاح الدين في حلب بضغط من فقهاء السنة .

جـ ـ نكب ابن رشد على يد الخليفة الموحدي أبي يوسف المنصور، بضغط شديد أيضاً من المحافظين فنفي ومنعت كتبه من التداول . ورافق ذلك وقوف الدولة الموحدية ضد الفلسفة وفقه الفروع وتشجيعها الرسمي لعلم الحديث وفقه الظاهرية .

وقد سبق بروز هذه الاتجاهات الهامة خلال القرن السادس ، انتصار تفكير الغزالي وسيادته ونصرة الدولة السلجوقية له وتبنيها لآرائه . كما مهد لتلك الاتجاهات ورافقها جو من الحماسة الدينية ضد الصليبيين والاسبان

في الخارج وضد الامارات والفرق غير السنية التي لم تتمكن من الوقوف في وجه الاعداء من ناحية والتي كانت تميل من ناحية أخرى الى أنماط من التفكير لا ترضى عنها النزعة الدينية المستقيمة الصارمة من حيث تشجيع الفلسفة وتبني الآراء الباطنية .

وهكذا فما أن أطل القرن السابع الا والاتجاه السني المحافظ يسيطر في قوة وثقة على أرضية الحياة الفكرية العربية من بغداد وحلب الى أشبيلية وتونس . وقد أدى هذا الاتجاه الى ازدهار الدراسات القرآنية ضمن الاطار السني والى زيادة الإهتمام بالحديث النبوي باعتباره مصدراً هاماً للسنة والى تشجيع المدارس الدينية والمحافظة لكتب التراث الديني والتاريخي . وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاتجاه الى تقوية نفوذ الفقهاء على الصعيدين الثقافي والسياسي على حد سواء .

3 ـ وعلى صعيد الفن ، يمكن القول ان الفن الاسلامي في هذا العصر بلغ ذروته كما تمثل في الآثار التصويرية والزخرفية ، الايوبية والمملوكية ، وكما تمثل أيضاً في الآثار المعمارية المشهورة كعمارات دمشق وحلب ، وكجامع السلطان حسن في القاهرة ، وجامع أشبيلية ذي المنارة المعروفة بالجيرالدا ، و« القصر » الاشبيلي . والخاصة المميزة للفن ـ في هذا العصر بالذات ـ ميله الشديد الى الزخرف ، تلك الظاهرة التي عرفت عن المدرسة الايوبية الفنية في الشام والتي انتقلت الى مصر في عهدي الايوبين والمماليك[1] وكذلك تتفق المدرسة الاندلسية مع الايوبية « في الاستناد على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاظهار ما فيها من سحر وجمال[2] » .

وقد ادى هذا الميل الزخرفي الى غلبة الشكل على الموضوع ، فاعتنى الفنانون ـ حتى في تصويرهم للبشر ـ بتزيين الملابس ونقشها بالالوان البهيجة دون ان يلتفتوا الى اظهار الانفعالات والاحاسيس على

(1) زكي حسن ، فنون الإسلام ، ص 248 ـ 249 .
(2) فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ، ح ، ص 782 ـ 783 .

الوجوه التي اتصفت بالجمود وعدم المشاركة في جو الصورة المحيط بها .

وهذا الطابع الشكلي الزخرفي ذاته غلب على الادب وعلى التوجيه النقدي . وان اهتمام الشعراء المسرف بالصورة البيانية والمحسنات البديعية وميل النقاد الشديد لشرح وتفنيد هذه المسائل لدليل واضح على غلبة هذه الظاهرة . وسنرى مدى تأثير ذلك على ابن سعيد في نقده وشعره وأعماله التصنيفية الاخرى من خلال التيار النقدي والمذهب الشعري الذي يتحرك في اطاره .

4 ـ وفي حقل الانتاج الثقافي عموماً اختفت الظواهر التجديدية أو كادت وأصبح العقل أميل الى التقليد وقد أدت الى ذلك عوامل كثيرة أبرزها الاعياء الذي أصيبت به الحضارة العربية بعد قرون ستة من الفعل الحضاري المتنوع ، واستنزاف الطاقة في فتن داخلية وحروب خارجية ، وسيادة النزعة السنية التي ترفع بطبعها من شأن القديم . ثم أن تراكم التراث الثقافي عبر العصور واتحاده مع عالم الزمن جعل منه كائناً حضارياً له جلاله ان لم نقل قدسيته ، في نظر العقول في العصر الذي نتحدث عنه ، وهو عصر كما تبين لنا ـ سادت فيه الحركات « الاحيائية » على صعيد العمل السياسي والنشاط العقلي ـ وتمثلت في حركة صلاح الدين وما خلفته من آثار وفي حركة ابن تومرت وعبد المؤمن الموحدي وما أدت اليه من نتائج .

وهكذا أصبح هدف النشاط العقلي فهم التراث والتلاؤم معه وتقليده ـ وان وجدنا بعض المذاهب في الادب خاصة ـ تقول بأفضلية الجديد أو مساواته مع القديم فما ذلك الا من شدة الاحساس بوطأة ذلك القديم . والواقع ان أنصار أمثال تلك المذاهب كانوا يفكرون في تجديدات شكلية كالاسراف في البيان والبديع : ولم يكونوا يعبرون عن معارضة جوهرية للأنماط السائدة الموروثة في المعطيات الفكرية الرئيسية .

ونتيجة لذلك سنرى كيف ان هذا العصر سيكون بداية لتلك الاعمال الجمعية التصنيفية الكبرى التي تشبه الموسوعات أو الاعمال التلخيصية الموجزة أو الاعمال التفسيرية التي تهتم باعطاء الشروح . وكل هذه

الاعمال هدفها الاكبر خدمة التراث وتسهيل الطريق أمام العقل المعاصر ليفهمه ويتلاءم معه ، ذلك العقل الذي كان همه الاكبر طلب « القاعدة » و « القانون » المستخرجين من كتب القدماء ، وهو ان حاول التجديد ففي الفروع والتفاصيل ـ ومن هنا يمكن تفسير ولوع العقل في هذا العصر والعصور التالية بالجزئيات وصغائر الامور ـ فهنا فقط يمكن التجديد .

والواقع ان القاء نظرة عجلى على أمهات الكتب التي ظهرت في القرن السابع تكفي لاقناع المرء بانتشار هذه الظاهرة وسيطرتها على الحياة الثقافية . ففي حقل حفظ النصوص الشعرية والنثرية وجمعها وتبويبها لدينا مجهود ابن سعيد نفسه (685) في كتابيه الضخمين « المغرب » و « المشرق » اللذين أمضى في سبيلهما عمره متنقلاً مسجلاً : في هذين الكتابين حاول ابن سعيد تقديم نتاج الاقطار الاسلامية قطراً قطراً ومدينة مدينة في ميدان الشعر خاصة منذ بداية ظهور النتاج الشعري فيها حتى عصره .

وفي حقل الدراسات القرآنية ظهر « تفسير » الفخر الرازي (606) وكتابه في « اعجاز القرآن » كما صنف ابن ابي الاصبع العدواني (654) كتابي « البرهان في اعجاز القرآن » و « بدائع القرآن » .

وفي ميدان اللغة والبلاغة والنقد قام أبو البقاء العكبري (616) بشرح ديوان المتنبي ومقامات الحريري ، وعمل السكاكي (626) على ايجاز وتقعيد كل من الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض في كتابه « مفتاح العلوم » الذي شغل الشراح والملخصين فترة طويلة من الزمن ، وفي الوقت ذاته كان ضياء الدين ابن الاثير (637) يلخص الذوق الفني والبراعة الفنية في كتابه « المثل السائر » الذي وصف بأنه « بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الاحكام » . كما قام ابن ابي الحديد (655) بشرح نهج البلاغة وعمل الزنجاني (655) على وضع شروح وملخصات في الصرف والنحو ، وقام ابن مالك (672) صاحب « الالفية » بعمل مماثل في ميدان النحو .

أما في حقل التاريخ العام وتاريخ الدول فقد ألف عبد الرحمن بن الجوزي (597) كتابه « المنتظم » ووضع عز الدين بن الاثير (630) موسوعته الهامة « الكامل » وأرّخ عبد الواحد المراكشي (621) لاخبار الدولتين المرابطية والموحدية في كتابه « المعجب » . وفي حقل التراجم وضع ياقوت الحموي (626) « معجم الأدباء » ـ بالاضافة الى موسوعته الأدبية ـ الجغرافية « معجم البلدان » ـ كما وضع ابن شداد (632) كتاب « النوادر السلطانية » في سيرة صلاح الدين وترجم جمال الدين القفطي (646) للعلماء على اختلاف منازعهم من أطباء وفلاسفة ولغويين في كتابيه « أخبار العلماء » و « أنباء النحاة » كما ترجم للعلماء ابن ابي أصيبعة (668) أهم مصنفاته مثل : « تكملة الصلة » و « المعجم » و « الحلة السيراء » . وفي أواخر القرن كان ابن خلكان (681) يترجم لمشاهير العلماء والوزراء والشعراء منذ فجر الاسلام حتى زمنه في موسوعته الضخمة « وفيات الاعيان » .

ومن الظواهر الثقافية الاخرى التي يحسن الالتفات اليها في هذا العصر ما يلي :

أ ـ استمرار اشراف الدولة على معاهد العلم ـ الديني خاصة ـ وتشجيعها لها . وقد تمثلت هذه الظاهرة في المدارس الايوبية في مصر والشام والمدارس الموحدية في الاندلس ومراكش على حد سواء . وقد أدى ذلك الى ارتباط النشاط الثقافي ارتباطاً قوياً بالحكم واتجاهاته .

ب ـ زيادة العناية بالمكتبات الخاصة والعامة لحفظ كتب التراث المتراكم . وقد اعتنت المعاهد الرسمية بهذه الناحية كالمدرسة الفاضلية في القاهرة والنظامية ببغداد ، بالاضافة الى الجهود الفردية في جمع الكتب الثمينة كجهود كمال الدين بن العديم والقفطي .

ج ـ **قوة الاحتكاك بين رجال العلم** : فقد حدث احتكاك بين رجال العلم المسلمين في هذا القرن بشكل واسع ، وكانت الدواعي متعددة : فالذين كانوا يجمعون نصوص الشعر والنثر والروايات جالوا في الاقطار لجمع

مادتهم ، والذين تعرضت مدنهم للغزو كالقرطبيين والبلنسيين والاشبيليين والبغداديين رحلوا الى مراكز ثقافية أخرى التجاء وابتغاء للرزق . كما كان الرحالة من الجغرافيين يجوبون الاقطار معرفين الناس ببلدان العالم محببين اليهم الرحلة كالسائح الهروي (611) صاحب « الاشارات الى معرفة الزيارات » وعبد اللطيف البغدادي (629) ، والقزويني (682) والعبدري (688) . وقد ساعد ذلك كله في تقوية التفاعل بين أجزاء العالم الاسلامي ، وأبعد الاشخاص أثراً في هذا الميدان أولئك العلماء المغاربة الذين رحلوا الى المشرق حيث عرفوا أهله بأحوال المغرب ثم عادوا الى بلادهم لينقلوا اليها صورة عن المجتمع الشرقي والثقافة المشرقية . وقد كان ابن سعيد في طليعة هؤلاء العلماء المغاربة في هذا القرن . فلقد عرف المشارقة بالمغرب عبر كتابه الكبير « المغرب » وكتابه الشعري المختصر « روايات المبرزين » كما أنه ألف كتاب « المشرق » وكتاب « الغصون » اللذين يحويان مادة عن المشارقة وأدبهم .

2 ـ الاندلس في عصر ابن سعيد
بين 595 ـ 646 هـ / 1199 ـ 1248 م /

1 ـ تمهيد :

هذه الحقبة التي سنخصها بشيء من التفصيل ـ تمهيداً لدراسة ابن سعيد ، ومحاولة لفهم الجو السياسي والثقافي الذي نشأ فيه وتأثر به ـ تقع بين حادثين زمنيين مهمين يجعلان منها حقبة متميزة بذاتها . أما الحادث الاول فهو وفاة الخليفة الموحدي العظيم أبي يوسف يعقوب المنصور، قاهر جيوش الاسبان في معركة الارك (591) ـ آخر معركة ثبت فيها الوجود العسكري الاسلامي في اسبانيا ـ والقيّم على أزهى حركة فكرية شهدها الغرب الاسلامي ـ حركة ابن طفيل وابن رشد ـ سنة 595 هـ ، وتولي ابنه محمد الناصر اللين العريكة ، المفتقر الى الحزم الحكم مكانه ، هذا الخلف الذي سيقود جيوش الموحدين الى الهزيمة المنكرة في موقعة

العقاب (609) ـ بداية النهاية في التاريخ الاندلسي ـ والذي سينعزل بعدئذ في قصره بمراكش ليتلاشى في حياة لاهية[1] . أما الحادث الثاني فسقوط اشبيلية ـ عاصمة الاندلس الموحدية ـ في يد فرديناند الثالث ملك قشتاله ورحيل اميرها الموحدي أبي عبد الله بن أبي العلاء ادريس المأمون عنها ـ مع جموع غفيرة من اهاليها سنة 646[2] .

أي أننا سنصحب الاندلس في عهد سقوط مدنها الرئيسية ـ عدا غرناطة ـ في يد الاسبان ونصحب اشبيلية العربية خلال سنينها الخمسين الاخيرة منذ انتهاء آخر عصر ذهبي لها بوفاة المنصور حتى سقوطها الاخير . والواقع أن هذه اللوحة الختامية من المشهد الاندلسي لوحة صارخة الالوان ، صاخبة الحركة ، متشابكة الاضواء والظلال . انها توهج الجذوة قبيل الانطفاء ، بل قل انتفاضة النزع الاخير : ولذلك برزت فيها المتناقضات بشكل حاد وفي حركة سريعة متلاحقة ، وأخذت جوانب الحياة تؤثر في بعضها البعض بصورة دينامية فعالة لا تشاهد في السنين المسالمة العادية . من هذه التأثرات والتفاعلات الهامة العلاقة القوية التي ستنشأ بين الجانب الثقافي والجانب السياسي الحربي ، لا من حيث التأثير غير المباشر كاغناء الادب ـ مثلاً ـ بأحداث السياسة والحرب فحسب ، بل من حيث التقرير الحاسم لمصائر رجال الثقافة المشاركين في الاحداث أو الراغبين عنها على حد سواء . وسيتغلف هذا التفاعل بوضع اجتماعي نفسي تهتز فيه المقاييس اهتزازاً عنيفاً حتى ليكاد المرء ـ من شدة تداخل الخطوط ـ لا يميز بين « فضيلة » و « رذيلة » وبين « ايمان » و « كفر » حتى تلك الحواجز التاريخية الفاصلة بين حضارتين متميزتين ستنال نصيبها من الهدم أو الزحزحة : في هذا العصر سيلجأ أمير موحدي من سلالة عبد المؤمن ـ كأبي زيد بن محمد بن أبي حفص[3] ـ الى مملكة أراجون

---

(1) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص 160 .

(2) ابن خلدون ، كتاب العبر ، 6/258 .

(3) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب : 3/270 .

الاسبانية ليعتنق النصرانية في سبيل استرجاع مقعد حكمه المهتز في بلنسية ، وسيغادر امام في الحديث حلقة تدريسه ـ كما فعل أبو الربيع الكلاعي [1] ـ ليقود كتائب المجاهدين في موقعة أنيشة قرب بلنسية ويقتل في المعركة ، وستنتقل كتيبة نصرانية بأمر من ملك قشتالة الى معقل الموحدين في مراكش لتحمي أمير « المؤمنين » المأمون [2] من شرور أفراد عائلته ومستشاريه من أشياخ الموحدين ، وسيقتل الفقيه ابن الياسمين الاشبيلي ـ وهو من أعلام العارفين بالوثيقة [3] ـ قتلة مخزية في فضيحة « غلمانية » ، وسيقطع ابن الابار ـ كبير مصنفي العصر ـ ويحرق مع مصنفاته بسبب وشايات على الارجح [4] ، وسيتهم قاضي اشبيلية في عهد المنصور والناصر بأنه « غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق [5] » وسينتقل فجأة عالم زاهد متواضع ـ كأبي بكر عزيز بن خطاب ـ الى زي أصحاب السيوف وأخذ الاموال من غير وجهها وسفك الدماء [6] في امارة مرسية حيث سينقض عليه ويغتاله ابن مردنيش وهو من ضيع ملكه في بلنسية ! بل ستنقلب الدولة الموحدية على مؤسسها الفكري وأبيها الروحي ـ المهدي بن تومرت ـ لتتهمه على لسان أميرها المأمون بالدس والكذب ولتبطل مهدويته وتتحلل من التزامها بمبادئه [7] في جو ارهابي دموي تعلق فيه آلاف الرؤوس على الجدران وتتعفن فاذا بها ذات روايح « عطرة » [8] في أنف أمير المؤمنين ! .

---

(1) كتاب العبر : 283/6 .

(2) البيان المغرب : 264/3 .

(3) ابن سعيد المغربي ، الغصون اليانعة ، ص 42 ـ 50 .

(4) المغربي ، أزهار الرياض 207/3 .

(5) الغصون 91 ـ 92 .

(6) ابن سعيد ، القدح المعلي ، ص 146 .

(7) الحلل الموشية ، ص 137 .

(8) الحلل الموشية ص 138 .

2 ـ أهمية الدولة الموحدية في حياة الاندلس :

لسنا بصدد الحديث عن الدولة الموحدية من حيث نشأتها وتطورها ومكانتها في سير التاريخ ، فالتوسع في ذلك خارج عن نطاق هذا البحث . ولكن الذي يهمنا من هذا كله التنبه الى الامور التالية :

أ ـ ان هذه الدولة دولة بربرية الأصل نشأت في المغرب الأقصى في عصر كان العالم الإسلامي يشهد فيه حركات إحيائية على صعيد الفكر الديني والعمل السياسي هدفها محاربة الإنحلال الإجتماعي والخلقي ومواجهة الهزائم التي حلت بالعالم الاسلامي منذ بداية الحملات الصليبية أو القضاء على الامارات المتناحرة التي سبقت زمن تلك الحملات وكانت من أسباب نجاحها . وقد كانت تلك الحركات تغلب الطابع العقيدي وتقوم بقيادة دعاة دينيين او قادة سياسيين عسكريين عليهم مسحة الدعاة ولا ترتبط في اساسها ـ الفكري على الاقل ـ بحقوق عائلات معينة في الحكم كما فعل العباسيون والفاطميون من قبل . والدولة الموحدية من الامثلة البارزة لمثل هذه الحركات . فقد قامت على أساس عقيدي مرتبط بشخصية المهدي ابن تومرت وقادها رجال يرتبطون في الدرجة الاولى برباط عقيدة معينة . . وكانت قاعدتها ـ بالرغم من طابعها القبلي ـ تتحرك بدافع من الحمية الدينية والرغبة الاصلاحية . وتقوم دعوة المهدي (485 ـ 524) على اصول اشعرية ومعتزلية وتحمل طابع الغزالي في التجديد الديني والدعوة الى الرجوع الى اصول الدين ، كما أنها تقرب من المنزع الشيعي في المهدوية والعصمة . وهي من حيث نتائجها العملية تدعو الى دعوة للاسلام الصحيح قولاً وعملاً بتأكيدها على ضرورة العمل والدعوة ، والاعتماد على أصول الدين من كتاب وسنة ونبذ للتعلق بالفروع التي سببت التفرقة وحجبت الاصل . وبسبب ذلك نجد أن الحركة الموحدية تتعاطف مع المذهب الظاهري الذي أسسه في المشرق أبو داود ودافع عنه في الاندلس ابن حزم ، وتبدي نوعاً من الجفاء تجاه المذهب المالكي وفقهاء المالكية .

ب ـ وقد ارتبط العامل العقيدي بالعامل السياسي الحربي عندما أقنع

ابن تومرت القائد عبد المؤمن بن علي بالانضمام الى دعوته . فعلى يد هذا القائد تحولت الدعوة الى دولة بعد وفاة الداعية الاول بما يقارب العشر سنوات ، اذ بدأت أعمال عبد المؤمن الحربية في سنة 534 بالسيطرة على المغرب فالمغرب الاوسط فتونس فالاندلس التي انتهى من الاستيلاء عليها سنة 555 . واصطدم عبد المؤمن خلال حروبه هذه بقوتين رئيسيتين : الدولة المرابطية التي كانت تحكم المغرب والاندلس والاسبان الذين كانوا يهددون المدن الاندلسية في أواخر حكم المرابطين القصير المضطرب . وقد دخل عبد المؤمن الاندلس بدعوة من أهلها الذين سئموا الحكم المرابطي بطابعه القبلي الصحراوي وتدخله المباشر في شؤون الاندلس وضغطه على حرية الثقافة . وهكذا فالدولة الموحدية هي الدولة المغربية الثانية التي تستنجد بها الاندلس لحمايتها من الزحف الاسباني الآتي من الشمال بعد ان ذهبت وحدتها السياسية .

ج ـ يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس الهجري والسنوات الاولى من القرن السابع (حتى حوالي 610) عصر المزاوجة بين الثقافة الاندلسية وبين « السلم » الموحدي . فان الثقافة الاندلسية التي شهدت ازدهارها في أواخر الحكم الاموي العامري وخلال عهد الطوائف لم تستطع أن تستمر في نموها بعد ازدياد خطر الاسبان وشيوع روح التناحر الداخلي . وأصبح من الضروري أن توفر لنفسها « سلماً » خارجيا بشكل أو بآخر حتى تستطيع أن تحتمي بظله . وقد تمثلت محاولات البحث عن هذا السلم في السياسة الاندلسية منذ أواخر عهد الطوائف في :

أ ـ عقد محالفات أو اتفاقيات هدنة مع الامارات الاسبانية .

ب ـ الاستنجاد بالمرابطين .

ج ـ عودة الى الاستنجاد بالامارات الاسبانية بعد أن اتضح أن السلم المرابطي سلم مرهق .

د ـ الاستنجاد بالموحدين بعد فشل محاولات الحكم المحلي بعيد اهتزاز الحكم المرابطي ، وبعد أن اتضح أن سلم الاسبان ما هو الا تمهيد

للقضاء التام على الاندلس العربية .

وهكذا جاء « السلم الموحدي » ليعطي الثقافة الاندلسية فرصة جديدة من فرص النمو والازدهار خاصة وأن الموحدين لم يكونوا في تعصب المرابطين ازاء النشاط العقلي ، وان كانوا سيؤثرون في طريق سيرها طبقاً لمعتقدهم الديني والفقهي . فبعد وفاة عبد المؤمن تولى الحكم بعده ابنه أبو يعقوب يوسف (مدة حكمه 558 ـ 580) الذي سار على سياسة أبيه في اقرار السلم في المغرب ومهاجمة الاسبان في الاندلس . وقد أمضى أبو يعقوب فترة طويلة في الاندلس أثناء حكم أبيه حيث كان والياً على أشبيلية العاصمة فكان من الطبيعي أن يتفاعل مع الثقافة الاندلسية ويتعاطف معها ، حتى برزت له شخصية علمية الى جانب شخصيته السياسية والحربية : فقد شغف بأخبار العرب وأيامهم ومال الى علوم اللغة « وكان متفنناً في العلوم الشرعية والاصولية[1] » ثم جاء من بعده ولده أبو يوسفه يعقوب المنصور (580 ـ 595) الذي بلغ العهد الموحدي في ظله عصره الذهبي وتألقت أشبيلية تحت حكمه آخر فترات تألقها السياسي ومن ملامح عهده السياسية والحربية البارزة : قضاؤه على امارة بني غانية وترحيله للقبائل العربية التي ناصرتهم الى أقصى المغرب وانتصاره على الاسبان في معركة الارك (591) واتصال صلاح الدين الايوبي به بقصد التحالف ضد الغرب . أما الملامح الحضارية والثقافية لعهده فمن أبرزها : ازدهار حركة عمرانية تمثلت في بناء مدينة الرباط ومسجد سلا ومدرسته . والجامع الاعظم بمراكش وصومعة الكتبيين والبيمارستان المراكشي ، ومئذنة جامع أشبيلية (الجيرالدا) والسور الميحط بها . كما استظل ببلاطه أكبر فلاسفة العصر وعلمائه كابن زهر الطبيب وابن طفيل وابن رشد وأبي بكر بن الجد وعبد الملك بن عياش الكاتب ، وقد تطعمت أجهزة حكمه بالعناصر الاندلسية المثقفة فكان أكثر قضاته وكتابه من الاندلسيين . ومن أحداث عصره الثقافية الهامة أيضاً : اتضاح ميل الدولة نحو المذهب الظاهري واشتداد محاربة فقه

---

(1) البيان المغرب 3/183 .

الفروع والتحول الخطير الذي طرأ على موقفها تجاه الفلسفة والذي تمثل في نكبة ابن رشد سنة 593 وتفرق « تلاميذه أيدي سبأ »[1] .

وعلى العموم تعد هذه الفترة السابقة للحقبة موضع البحث ، فترة استقرار وانتاج ، فلقد زرع السلم الموحدي القوي بذور الاستقرار بشيء من التسامح والمراعاة للشخصية الاندلسية ، وواصلت الثقافة الاندلسية نتاجها العقلي بشيء من الاطمئنان . ولكن بعد وفاة الخليفة المنصور أخذت تلك المزاوجة الموحدية ـ الاندلسية تنحل تدريجاً بفعل عوامل وأحداث سنتأملها بعد قليل ، وأخذ الوضع الحضاري ـ الثقافي ـ السياسي يتجه نحو اتخاذ قالب جديد مغاير تماماً للتركيب السابق في حركة سريعة متلاحقة الحلقات تتصف ـ كما أشرت ـ بكثرة التقلب وحدّة التناقض .

3 ـ الوضع السياسي بين :
595 ـ 646 هـ / 1199 ـ 1248 م /

تولى محمد الناصر بن يعقوب المنصور الحكم سنة 595 ، وقد تمت له البيعة الأولى في حياة أبيه الذي اختلف المؤرخون حول مصيره : فمن قائل أنه دفن بمراكش ومن قائل أنه تزهد وساح في الأرض حتى توفي بالشام وأصبح قبره مزاراً[2] . ومهما كان الأمر فان محمد الناصر ، بويع بيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه وذلك في العشر الاخر من ربيع الأول سنة 595 ، واستوثقت له الخلافة بهذه البيعة[3] .

وكان الموقف السياسي في بلاد الأندلس والمغرب عشية تولي محمد الناصر الخلافة متأثراً بمواقف القوى التالية :

أ ـ الجبهة الموحدية الحاكمة وما كان يعتريها من صراع داخلي بين

---

(1) البيان المغرب 3/202 .
(2) الناصري ـ الإستقصاء 2/181 ـ 184 .
(3) البيان المغربي 3/211 .

الأمراء وأشياخ الموحدين .

ب ـ العناصر الداخلية في الدولة الموحدية المنقسمة على النحو التالي :

1 ـ قبائل العرب التي بدأت تستوطن المغرب مصطدمة بالعناصر البربرية المحلية ، مشاركة في كثير من حركات التمرد وحوادث السلب والنهب[1] .

2 ـ بقايا الأمراء من عهد المرابطين كبني غانية الذين تمركزوا في جزيرة ميورقة بشرق الأندلس وأخذوا يهاجمون الجزر والسواحل الموحدية في تونس ، واستطاعوا أن يتوغلوا الى الداخل ويتحصنوا في مدن كالمهدية ويقاوموا جيوش الخليفة نفسه[2] .

3 ـ الزعماء الأندلسيون الذين سرعان ما يستغلون الشعور المحلي ضد سيطرة الدولة أو بسبب تعاونها في مقارعة الاسبان أو نظراً لصراعاتها الداخلية .

ومن أشهر الذين برزوا أيام الناصر عبد الرحيم بن الفرس ، وهو « من طبقة العلماء بالأندلس . . انتحل الامامة وادعى أنه القحطاني » الذي بشر به حديث نبوي[3] .

ج ـ الامارات الاسبانية التي كان موقفها حرجاً مزعزعاً بعد موقعة الارك . الا أن عدم تمكن الخليفة الجديد من استغلال هذا الوضع فتح للاسبان مجال التجمع والاستعداد للحرب من جديد[4] .

وقد اضطر الناصر في السنين العشر الأولى من حكمه ـ وقبل أن يصطدم بالاسبان ـ الى الدخول في معارك محلية كثيرة بددت طاقة الدولة . فقد أبعد ابن غانية عن تونس بعد معارك بحرية وبرية كثيرة . وبعث جيشاً

(1) البيان المغربي 213 / 214 .

(2) البيان المغرب ، 219 ـ 221 .

(3) كتاب العبر 6/250 .

(4) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/94

لتأديب قبائل العرب المتمردة فانتصرت عليه أول الأمر وبددت شمله[1] . كما صرف جهداً كبيراً في القضاء على ابن الفرس ، وجهداً مماثلاً في أخذ جزيرتي ميورقة ومنورقة من يد بقايا المرابطين . في هذه الأثناء كان الاسبان يستعدون لجولة جديدة : فقد أرسل ملك قشتالة رسولاً الى البابا لكي يعلن الجهاد المقدس في أوروبا ، ورسولاً آخر الى فرنسا . وفي الوقت ذاته عقد مؤتمر اسباني جامع في قونقه تحت إشراف الفونسو النبيل[2] . ويبدو أن السبب المباشر الذي دفع الناصر للحرب « تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية » مما أهمه وأقلقه ، فغادر مراكش الى أشبيلية ومنها الى محاصرة حصن شلبطرة المنيع [3] . ويرى أشباخ أن هذا هو الخطأ الأساسي في تخطيطه للحرب . فقد أجهد جيشه في الحصار[4] فلم يتمكن بعدئذ من قتال الاسبان في موقعة العقاب حيث كانت الهزيمة ساحقة . ويرى المؤرخون أن من أسباب ضعف سياسة الناصر اعتماده على وزراء لا يوثق بهم وشدته مع أشياخ الموحدين بعد هزيمة العقاب ولقد كان ذلك سبباً في هزيمته وفي موته إذ « ذكر أن بعض وزرائه أغروا به من سمّه لأنهم خافوا منه ان يقتلهم فيما جنوه[5] وكان ذلك سنة 610 هـ[6] .

بعد هزيمة العقاب هذه التي قوّت مركز الاسبان وتسببت نتائجها في تصديع الجبهة الداخلية في الدولة عامة وفي إحداث تشاؤم وذعر في الاندلس خاصة ، تولى الحكم ابن الناصر ، يوسف المستنصر وهو ابن ست عشرة سنة ، فتسلط أعمامه وأشياخ الموحدين على الحكم . وبعد سنة من توليه الحكم قام « مهدي » جديد يدّعي الانتساب للفاطميين بثورة قمعت بعنف . وبين سنة 614 وسنة 617 ساءت الحالة الاقتصادية

(1) البيان المغرب 3/213 .
(2) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/109 .
(3) كتاب العبر 6/249 .
(4) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/108 .
(5) البيان المغرب 3/243 .
(6) البيان المغرب 212 .

و « اشتدت الحال في تناهي غلاء الأسعار بالبلاد المغربية والاندلسية » بسبب « المحل العظيم والمجاعة[1] . في أثناء هذا الوقت كانت الجهود تبذل في الجانب الاسباني لتوحيد الجهود[2] بينما كان أعمام المستنصر يتنازعون حكم ولايات الأندلس ويثيرون حفيظة أهلها . وقد توفي المستنصر شاباً سنة 620 هـ وبوفاته بدأت تظهر حركات الانفصال بين المغرب والأندلس على أيدي أمراء الموحدين أنفسهم أول الأمر ثم على يد زعماء الأندلس فقد تولى الأمر بعده بمراكش عم أبيه عبد الواحد (المخلوع) الذي نازعه الحكم في الأندلس أمير موحّدي آخر هو عبد الله الملقب بالعادل . ولكن الانشقاق تسرب الى الأندلس أيضاً وبين الموحدين أنفسهم إذ رفض السيد أبو زيد بن محمد صاحب بلنسية مبايعة العادل .

ومع كثرة حوادث الانشقاق انتشرت الدسائس بين المتنافسين ، فخلع عبد الواحد وخنق بعد بضعة شهور من توليه ، واستطاع العادل بعد جهد نيل بيعة مراكش والأندلس سنة 622[3] . إلا أن الوضع أخذ يزداد سوءاً بتجرؤ ولاة الموحدين على الخروج عن سيادة الدولة والتحالف مع اسبانيا علناً .

ففي سنة 623 خلع عبد الله البياسي والي قرطبة « دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وأدخلهم قيجاطة . . (و) حصن باجة ولوشة وغيرهما من الحصون » ثم حاصر أشبيلية عاصمة الأندلس حينئذ فقاومه أبو العلاء أخو العادل وهزمه[4] . غير أن أبا العلاء هذا الذي لقب بالمأمون عاد فخلع أخاه وطلب البيعة لنفسه بينما كان أخوه يستعد لمحاربة بعض قبائل العرب في المغرب . وفي أثناء هذا الاستعداد اختلف مع أشياخ الموحدين الذين هجموا عليه في القصر وقتلوه وكتبوا الى أخية المأمون بالبيعة ، وكان ذلك

(1) البيان المغرب 243 ـ 245 .

(2) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/154 .

(3) البيان المغرب 3/247 ـ 249 .

(4) المصدر السابق 249 ـ 250 .

سنة 624[1] . وقد كان المأمون يقيم والياً في أشبيلية فتم له الأمر فيها وبايعته أيضاً سائر المدن الأندلسية في بادىء الأمر .

وما أن أطلت سنة 625 حتى ازداد الموقف سوءاً من كافة نواحيه : فقد وقع الخليفة الجديد بين نارين : نكث أشياخ الموحدين بمراكش بيعته وولوا يحيى بن الناصر، كما ثارت الأندلس ضده في شخص زعيمها الجديد محمد بن يوسف بن هود الذي أشعل الثورة من مرسية وأعلن الولاء للعباسيين وكان شعاره تخليص الأندلس من الموحدين والاسبان معاً . وعلى أثر ذلك شهدت الأندلس حروباً أهلية متتابعة بين كل من المأمون وابن هود وزعماء الامارات الاندلسية الآخرين الذين كانوا يغيرون ولاءهم تبعاً للظروف . وبالرغم من أن المأمون استطاع أن يهزم جيش ابن هود[2] فإنه لم يتمكن من القضاء على إمارته . بل إن سلطان المأمون انحصر في أشبيلية وأخذ سلطان ابن هود يتوسع ليشمل المرية وغرناطة وقد ساعد ابن هود في ذلك شعور الاندلسيين المعادي للموحدين الذين قتلوا أو نفوا عن كل بلد في الاندلس[3] . إزاء هذا الظرف الحرج ، وبالنظر لتدهور الأوضاع في مراكش غادر المأمون أشبيلية ـ آخر معقل للموحدين ـ وعاد الى المغرب ليقاوم منافسه يحيى بن الناصر ويتبع سياسة إرهابية عنيفة تقوم على إضعاف سلطة أشياخ الموحدين والتحالف مع الامارات الاسبانية وتغيير بعض الأسس العقيدية للدولة كالتبرؤ من المهدي[4] . وهكذا يبقى الاندلسيون في العشرين سنة الأخيرة من هذه الحقبة بين 626 و 646 هـ وحيدين في الميدان تمزقهم خلافات داخلية ويدفعهم الزحف الاسباني بالتدريج نحو أقصى الجنوب دون أن يجدوا مساعدة حقيقية من جيرانهم المنشغلين بأنفسهم اللهم إلا بعض النجدات المتقطعة القليلة من مراكش وتونس .

---

(1) البيان المغرب 252 ـ 253 .

(2) المصدر السابق 3/258 .

(3) المصدر السابق 269 .

(4) المصدر السابق 275 .

وفي أثناء تلك الفترة الأخيرة ارتسمت ملامح الوضع السياسي حسب الصورة التالية :

اولاً ـ على الصعيد الإسلامي كانت هناك أربعة كيانات سياسية منفصلة :

أ ـ الدولة الموحدية الهرمة التي ستنحصر في المغرب ليستمر فيها الصراع بين الأمراء وليسيطر عليها أشياخ الموحدين سيطرة تامة مع استمرار شيء من نفوذ أمرائها في منطقة أشبيلية .

ب ـ الامارة الحفصية في تونس التي أسسها يحيى بن أبي حفص ، أحد قادة الموحدين القدامى وهو الذي ساعد الدولة في القضاء على نفوذ بني غانية في تونس . وقد ظهرت هذه الامارة رسميا سنة 627 حيث بويع الأمير يحيى بيعة عامة[1] .

ج ـ إمارة ابن هود التي ظهرت سنة 626 وانتهت بوفاته سنة 635 . وقد تمركزت هذه الامارة في منطقة وسط الأندلس وجنوبيها في المنطقة الواقعة بين المرية وغرناطة وقرطبة والجزيرة الخضراء ووصلت في امتدادها حتى أسوار بلنسية .

د ـ إمارة بلنسية وتوابعها في شرق الأندلس ، وقد أكدت استقلالها بثورتها على الموحدين تحت قيادة زيان بن مردنيش ومقاومتها لنفوذ ابن هود. إلا أنها اضطرت تحت تهديد الغزو الاسباني الى طلب العون من تونس وتقديم البيعة لأميرها الحفصي[2] .

ثانياً ـ أما على الصعيد الاسباني فقد كانت هنالك خمس ممالك أقواها وأوسعها مملكتا أرجوان وقشتالة . ولم تكن تلك الممالك قوة واحدة تعمل لهدف محدد فقد كان ملوكها يتنازعون فيما بينهم على المقاطعات

---

(1) البيان المغرب 3/275 .

(2) كتاب العبر 6/283 .

الاسبانية كما كانوا يتنافسون في مجال استخلاص المدن الاندلسية من أيدي المسلمين إذ كان كل ملك يطمح في الإستيلاء على أكبر عدد ممكن من تلك المدن . إلا أنه نظراً لأسباب جغرافية تتعلق بمواقع تلك الممالك اهتمت قشتالة بمدن الوسط والجنوب بينما ركزت أرجوان همها على مدن الشرق وتطلعت البرتغال صوب المقاطعات الغربية . ومن أهم الأحداث في هذه الفترة ـ على الصعيد الاسباني ـ اتحاد مملكتي قشتالة وليون ، هذا الاتحاد الذي يعتبر « الحجر الأساسي للفتوحات العظيمة التي قام بها فرديناند في الأندلس[1] » .

والواقع أن الصراع المباشر سيكون الآن بين إمارة ابن هود ومن سيخلفها من أمراء الأندلس من جهة وبين الممالك الاسبانية الغازية من جهة أخرى وحتى الأمراء الموحدين في أشبيلية سيكافحون باعتبارهم زعماء محليين لا بوصفهم ممثلين للدولة المغربية .

وقد تطورت الأحداث خلال هذه العشرين سنة الأخيرة حسب الصورة التالية :

اولاً ـ مع رحيل المأمون الموحدي سنة 626 الى المغرب قوي نفوذ ابن هود المتوكل وأصبح القوة الأندلسية الأولى . حتى إن أهالي أشبيلية خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا ابن هودْ[2]، الذي أعد جيشاً ضخماً في السنة التالية لمحاربة الاسبان في ماردة ، إلا أنه هزم في هذه المعركة التي تعتبر أول غزواته وأضخمها[3]، وفي سنة 629 توفي المأمون الذي كان يدّعي السيادة الاسمية على الأندلس ، ومع أنه « لم يبق للموحدين بالأندلس أمر ولا نهي[4]» في السنوات القليلة التي سبقت ذلك ، فان وفاته قوّت من مكانة ابن هود ، الذي وصلته الخلعة العباسية بالتولية في السنة

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : 2/149 ـ 150 .
(2) البيان المغرب 3/270 .
(3) البيان المغرب 3/270 .
(4) روض القرطاس 182 .

ذاتها . و « استقامت أحواله ، وولى العهد لابنه الواثق بالله فوفدت عليه البيعات من كل البلاد من جزيرة شقر الى الجزيرة الخضراء[1] » . غير ان استقامة الأحوال ليست من طبع تلك الفترة فبعد بضعة شهور ثار العامة في أشبيلية ضد والي ابن هود وولوا عليهم أحد زعمائهم وهو الباجفي . وفي الوقت ذاته ظهر زعيم أندلسي جديد هو محمد بن يوسف بن الأحمر والذي بويع في أرجونه ومد نفوذه الى جيان وقرطبة ونازع الباجي على أشبيلية[2] هذا في الوقت الذي كان فيه ابن مردنيش يستقل ببلنسية ويقاوم نفوذ ابن هود . وهكذا وجد الأخير نفسه في صراع مع منافسين داخليين بينما كان توسع الممالك الاسبانية يتقدم باضطراد ملحوظ ، مما أرغمه على عقد صلح مع مملكة قشتالة سنة 620 ودفع جزية لها تقدر بألف دينار في اليوم وذلك ليتفرغ لمقاتلة ابن الأحمر والباجي [3] اللذين انتهى صراعهما على أشبيلية بعودتها ثانية الى ابن هود سنة 632 . وقد أراد ابنُ هود مواصلة بسط نفوذه على ما تبقى من الاندلس فقصد في السنة ذاتها مدينة لبلة وأحكم حولها الحصار . ولكن توغل مملكة قشتالة في أراضيه أجبره على رفع الحصار ومفاوضة ملك قشتالة على الصلح والجزية ، فتم عقد هدنة جديدة تتراوح مدتها بين ثلاث الى أربع سنوات على أن يدفع ابن هود أربع مئة ألف دينار في السنة ، غير أن هذه المعاهدة لم يطل أمدها اكثر من سنة [4] .

ثانياً ـ بعد أن وصل وضع الأندلس الى هذه الدرجة من الضعف واضطر أقوى أمرائها الى دفع الجزية للاسبان اتخذ التوسع الاسباني صبغة جديدة حاسمة . أذ لم يعد الاسبان يكتفون بالمال أو بالاستيلاء على الحصون الجانبية بل أخذوا يتطلعون نحو قواعد الأندلس الكبرى .

وهكذا ما إن جاءت سنة 633 حتى أصبحت قرطبة تحت رحمة

---

(1) البيان المغرب 3/278 .
(2) البيان المغرب 3/279 .
(3) روض القرطاس 183 .
(4) البيان المغرب 3/322 .

قشتالة وبلنسية تحت رحمة أراجون . وأصبحت قوة ابن هود ـ بالاضافة الى تمزقها الداخلي ـ موزعة بين الجبهتين المتباعدتين غير أنه ترك قرطبة لمصيرها واتجه صوب الشرق الأندلسي على أمل أن يتمكن من ضمه الى إماراته . ولم تطل مقاومة قرطبة إذ سقطت في السنة ذاتها[1] وفي تلك السنة اشتد حصار ملك أراجون لبلنسية ومنطقة الشرق الاندلسي ، فكانت له سبع محلات لحصار المسلمين اثنتان منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة[2] » .

في هذه الأثناء جاءت وفاة ابن هود سنة 635 في ظروف غامضة لتزيد الأمر تعقيداً ولتمزق إمارته المضطربة بين أقاربه وقواده . ولم تبق من تجمعات الأندلسيين الثابتة نوعاً إلا منطقة أشبيلية ، ومنطقة غرناطة التي حكمها ابن الأحمر ومهد فيها لاقامة إمارته التي ستبقى بعد هذه الأحداث ما يقارب قرناً ونصف قرن . أما بلنسية فقد سقطت في يد ملك أراجون سنة 636 بعد حصار ومجاعة . ولم تجد نفعاً نجدة أبي زكريا الحفصي الذي استغاث به البلنسيون وبايعوه واستمر الزحف الاسباني في شرق الاندلس حتى أجلى عنه العرب نهائياً حوالي سنة 644[4] .

وفي تلك السنة ذاتها بدأت الخطط القشتالية الأخيرة للاستيلاء على أشبيلية . وكان أهاليها في ذلك الوقت قد اختاروا الأمير أبا عبد الله بن أبي العلاء الموحدي والياً عليهم . بدأ الزحف القشتالي ببث الرعب في المناطق المحيطة بأشبيلية مما حدا بالسكان الى التسليم دون مقاومة ، وكان ابن الأحمر والي غرناطة الذي أصبح حليفاً لقشتالة ينصح الاندلسيين بالتسليم حقنا للدماء . وقد تمكن القشتاليون من تحطيم أسطول استقدمه أمير الموحدين من المغرب لتأمين الحماية البحرية . وبعد حصار شاق سلم

---

(1) البيان المغرب 3/322 ـ 323 .

(2) كتاب العبر 6/283 .

(3) البيان المغرب 3/258 .

(4) كتاب العبر 6/285 .

الاشبيليون على أن تصان دماؤهم وأموالهم ويسمح لهم بالهجرة ، وكان ذلك سنة 646[1] .

ومع نهاية النصف الأول من القرن السابع عادت الأندلس أسبانية ما عدا إمارة بني الأحمر في غرناطة التي أصبحت مقر التجمع الأخير لعرب الأندلس والتي ستحيى ، رغم مركزها الفريد الحرج ، آخر فترة من فترات العطاء الحضاري في تاريخ الاندلس العربية .

4 ـ المجتمع والثقافة في الاندلس خلال هذه الفترة .

تمت الإشارة الى أن مجتمع الأندلس في هذه الفترة كان مجتمع اضطراب واختلال ، وتقلبات سريعة وتناقضات حادة . وسنتأمل الآن في أهم ظواهره الاجتماعية والنفسية والخلقية ولعله من الخير أن نتنبه الى أن بذور القلق والتقلب في المجتمع الاندلسي وجدت لها تربة خصبة في فترات سابقة متتالية كعهد الفتنة البربرية وعصر الطوائف الذي أعقبه[2] ، بل ربما كان القلق والتقلب ظاهرة نفسية داخلية في المجتمع الاندلسي نشأت منذ انهيار السلطان الاندلسي الرادع القوي بانتهاء حكم الاموية الموحدة واختها العامرية ، وأخذت تظهر بوضوح عندما تفقد الاندلس ضابطاً قوياً يتولى أمرها وتختفي تحت السطح عندما يأتي للاندلس حكم قوي كحكم المرابطين أو الموحدين .

من أهم الظواهر البارزة في هذه الفترة ظاهرة شيوع الخوف وعدم الاستقرار واختلال المقاييس واهتزاز الحدود الفارقة . وكان الخوف يتجلى على هيئة قلق تجاه المستقبل وكانت المعارك والحروب الدائرة بين

---

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/195 ـ 199 .

(2) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) : 176 ـ 177 وكذلك (عصر الطوائف والمرابطين) : 32 ـ 44 .

الأندلسيين والاسبان تتسم بالتأثير العميق في نفسية المجتمع الاندلسي الذي لم يكن ينظر الى تلك الحروب باعتبارها نشاطاً عسكرياً عادياً أو فتوحات خارجية بقدر ما هي حياة ومصير . وهكذا وجدت تلك الأحداث صدى قوياً في الشعر الأندلسي منذ أن بدا خطرها واضحاً للعيان[1] حتى اللحظة الأخيرة في حياة الاندلس العربية . وفي هذه الحقبة التي نتحدث عنها سنجد نماذج عديدة من أشعار التفجع والاستغاثة والتشكي من الغربة كقصيدة أبي البقاء الرندي المشهورة التي غدت سجلاً لحوادث النكبة من بعده : (لكل شيء إذا ما تم نقصان . . .) وسينية ابن الابار التي عبرت عن استغاثة أهالي شرق الأندلس بأمير تونس (أدرك بخيلك ، خيل الله أندلسا . .) ، وكذلك سنجد في شعر ابن سعيد نفسه ظاهرة الشعور بالغربة بارزة حتى أثناء إقامته في وطنه[2] . وغني عن البيان ان بروز هذه الظاهرة في الشعر بشكل واضح يدل على أن المجتمع كله كان يعاني منها . غير أن هذه الظاهرة لم تسحب ظلالها على الشعر فحسب بل عكست نفسها في قلق نفسي واجتماعي عام يمكن تلمّس آثاره في الكثير من الحالات الاجتماعية والفردية .

كان هناك جو من عدم الاستقرار يشمل نواحي الفكر والمعتقد ، كما يتناول حياة الناس في خطوط سيرها ، كما يتمثل في التغيرات المعتادة من تعاقب أنظمة الحكم وتغير حظوظ الأفراد في كدهم المعيشي . أما فيما يختص بتغير الحكام فهذا ما اتضح بجلاء في حديثنا عن الوضع السياسي ، حتى أن مدينة كأشبيلية تغير حكامها في سنتين أربع مرات بين الموحدين وابن هود والباجي وابن الأحمر . ومن الطريف هنا أن نلاحظ أن ابن سعيد ، الذي كان همه الأول النشاط التصنيفي ، تأثر بهذه الأحداث واضطر أن يغير ولاءه بسرعة بين المتنافسين حتى أنه مدح الباجي عندما أبعد ابن هود عن أشبيلية ، مع العلم أن ابن هود قد عين والده والياً على

(1) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 177 ـ 192 .
(2) المقري ، نفح الطيب 3/25 .

الجزيرة الخضراء ، وكان هو نفسه يستظل بظله[1] ، وسرعان ما اضطر ابن سعيد لتغيير ولائه ثانية عندما خضعت أشبيلية لابن الأحمر الذي قتل الباجي ، فعاد ومدح قاتل ممدوحه السابق[2] ، ولم يقف التذبذب عند هذا الحد بل ناول جانب العقيدة ، فقد قام اثنان من كبار أمراء الموحدين هما البياسي صاحب قرطبة وأبو زيد صاحب بلنسية باعتناق النصرانية[3] في سبيل العودة الى الحكم ، وعمل كهذا ليس ظاهرة عادية في مجتمعات العصر الوسيط الدينية ثم ان هاتين الحادثتين على صعيد الأمراء ذوي الصبغة الدينية توحيان بأن هناك جواً اجتماعياً يمكنه أن يتقبل ذلك ، وأن هناك أفراداً من سائر الطبقات سلكوا الطريق ذاته . وقد رأينا ـ من ناحية أخرى ـ كيف أن الدولة الموحدية ثارت على مؤسسها ونبذته في عهد المأمون ، ثم جاء أمير بعده ليحاول العودة الى تعاليم المهدي ثانية .

ومن مظاهر انعدام الاستقرار في حياة الأفراد ، كثرة الوشايات التي لا تدعهم يستقرون في منصب معين ، بل ان الوشايات أحيانا تؤدي الى هلاك من توجه ضدهم . ولعل في مصنفات ابن سعيد شواهد كثيرة على ذلك عكست نفسها بوضوح في حياته وحياة من ترجم لهم . فهذا هو الأفلح اللخمي يسعى لوالد ابن سعيد عند ابن هود ليوليه إمرة الجزيرة الخضراء ثم لا تلبث الوشايات أن توعز صدره فيسعى في تأخيره[4] وهذا سهل بن مالك الرئيس العالم يغربه ابن هود عن وطنه غرناطة بسبب تضخيم أهل « الحسد والعداوة » لاقواله[5] وهذا أبو بكر ابن البناء الأشبيلي يظهر أمام الناس متواضعاً قانعاً وهو في حقيقته « أهون ما عنده أن يسعى في سفك دم إنسان ، تخاصم مع وكيل له في شبر من أرض »[6] .

ومن الظواهر المرتبطة بذلك ظاهرة بروز المغامرين على مسرح

---

(1) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب 2/103 .

(2) البيان المغرب 3/270 .

(4) القدح 142 .

(5) القدح 61 .

(6) القدح 118 .

الاحداث وقفزهم من أدنى الدرجات الى رتبة الامارة والقيادة في برهة زمنية وجيزة . والواقع ان ابن هود نفسه كان في طليعة هؤلاء المغامرين الذين عرفوا كيف تنتهز الفرص . ويجمع المورخون أن ابن هود ، رغم انتسابه الى بني هود ملوك سرقسطة السابقين ، رجل عامي جاهل أقام ملكه على أكتاف المغامرين من أمثاله . فابن عذارى ينسب انتصاره الى زعيم عصابة يدعى الغشتي تحالف معه . وكان أتباع الغشتي « جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة . . فكان يقطع بهم الطرقات والنواحي ، فاكتسحوا ما فيها من البقر والأسرى[1] » . وبتأييد من هؤلاء أصبح ابن هود أمير المسلمين وغدا الغشتي قائد الأساطيل في الدولة المتوكلية . ويحدثنا ابن سعيد وهو المؤرخ الأندلسي المعتدل ، ان ابن هود كان « عامياً جاهلاً ، مشؤوماً على الأندلس ، كأنما كان عقوبة لأهلها . . . وولى قرابته الأرذلين بين شعار ، وخباز ، وقيم حمام ، ومناد ، على ممالك الأندلس ، فقضى ذلك بتشتيت شملها[2] » .

وكما جاءت بداية ابن هود رمزاً على المغامرة والانتهازية ، جاءت نهايته لتعكس ما في العصر من غدر ودس . فعندما مر بالمرية في طريقه الى الشرق الأندلسي ، استقبله وزيره ابن الرميمي أحسن استقبال في قصره ، ثم « قتله بالليل غيلة . . . وقد نقب نقباً في قصره[3] » .

وقد أدى هذا الإختلال في الحياة العامة وعلاقات الناس ببعضهم إلى طلب « تعويض » والبحث عن « هروب » من واقع تلك الحياة القلقة القاسية . فكان طبيعياً الميل إلى حياة الترف وحياة اللذة . وتمثل الترف في الميل إلى الزخرف والشكل البراق سواء أكان ذلك في الفنون المعمارية ، التي ازدحمت بها هذه الفترة والفترة التي سبقت أو في المسكن والملبس . . . أو في الألقاب والتخاطب . . أو في الرسائل والأدب شعراً

---

(1) البيان المغرب 3/256 .

(2) المغرب 2/251 ـ 252 .

(3) المغرب 252 .

ونثراً عامة . ولا يقتصر ذلك على طبقة الأمراء وحدهم ، بل يتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ومتوسطي الحال ، فهذا أبو القاسم بن حسان الأشبيلي ينشىء له قصراً « يشتهر فيما بين المنازه والديار منزهه وداره ، إذا قيل قصر ابن حسان فلا يشاركه في هذا الوصف إلاّ ما كان منزلاً للسلطان ، ودخلت إليه مع والدي . . فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضه البديعة الجميلة ، وكذلك إذا قيل في المنازه التي على النهر منزه بيسانه ، مال كل ذي سمع وبصر إلى ألحان أطياره وأفنان أشجاره المزدانة[1] . وهذا أبو القاسم عبد الرحمن العثماني السبتي تصبح « شهرته » الرفاهية و « له في ذلك حكايات محفوظة منها أنه كانت له ثياب النزهة ، وثياب الحمام ، وثياب العرس وما أشبه ذلك ، لكل حالة ما يليق بها لا يخل بشيء منها . واحتاج يوما إلى شيء ضروري فحضر السائس ولم يحضر المتصرف فلم يقدر على أن يصرف السائس . وكان يقول : لا سبيل إلى وضع شيء في غير محله حتى كان ينسب ذلك للهوس ، وبالجملة فكان من الخواص في كل ما تلبس به[2] » .

هذان مثلان : أحدهما من أشبيلية والآخر من سبتة . ومن البين أن هذه النماذج الفردية ما كان لها أن تبرز بهذا الشكل لو لم يكن في البيئة الإجتماعية كلها ما يشجع على ذلك .

وإلى جانب ظاهرة الترف والتأنق ، نلحظ ظاهرة الميل الغلماني التي تغلغلت في أوساط العامة والخاصة حتى اشتهر بها وزراء وكتاب وشعراء . . . بل وفقهاء . . ومصنفات ابن سعيد وحدها تكفي لإقناعنا بانتشار هذه الظاهرة التي يبدو أنها انحراف في اللذة وتنويع لها أكثر مما هي مجرد تنفيس عن شهوة حبيسة . ولو عددنا الشواهد الكثيرة على انتشارها في هذه الفترة لتجاوزنا الحد المرسوم لهذه المقدمة الموجزة . والرجوع إلى ما صنفه ابن سعيد من تراجم هو الذي يعطي صورة كاملة ودقيقة عن هذه

---

(1) القدح 148 .

(2) القدح 196 .

الظاهرة المتفشية[1] .

ومن صور الإضطراب في هذا العصر التدهور الاقتصادي واضطراب الحالة المعيشية عند عامة الناس ، فقد أدت الغارات إلى أن « اشتد الضرر بالأرض ومن عليها » ولحق الأذى بـ « المترددين في طرقاتهم لتجاراتهم[2]» كما افتتحت هذه الحقبة بقحط أدى إلى ارتفاع الأسعار وسبب مجاعة . هذا بالإضافة إلى ما تسببه الحروب من تدمير للمزروعات وما تستهلكه من نفقات . ومما لا شك فيه أن المبالغ الضخمة التي دفعها ابن هود وغيره من أمراء الأندلس جزية للاسبان قد جمعت من الزراع والتجار الذين أنضبت مواردهم الفتن الداخلية والحروب . وهذا الإضطراب الإقتصادي من شأنه ـ طبعاً ـ إحداث اختلال في العلاقات الإجتماعية ودفع الناس إلى الهجرة أو الخروج على القانون كما كانت تفعل عصابات الغشتى وابن هود .

ومن أخطر الظواهر البارزة على صعيد المجتمع في هذا العصر عودة ظاهرة « الجلاء » التي كانت ملحوظة في المجتمع الأندلسي في حقبة سابقة[3] إلى البروز والتأثير بشكل جذري أعمق وأخطر من ذي قبل . ففي بداية هذه الحقبة أخذت الجماعات الأندلسية تنتقل من منطقة إلى أخرى تبعاً للظروف الحربية والإقتصادية ، ومع سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ـ في نهايتها ـ اضطرت جموع الأندلسيين إلى الهجرة جنوباً حتى غادرت الأندلس نهائياً ـ عدا الجماعات التي تحصنت في منطقة غرناطة . وهكذا تغير الوجه البشري ـ الحضاري لجنوب اسبانيا بحلول الاسبان محل العرب الذين كانوا أرقى حضارة منهم . وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلاقات العربية ـ الاسبانية كانت تتسم بالعداء والعنف في هذه الحقبة نظراً للصراع المصيري القائم بين الطرفين . أما مسألة التأثير والتأثر فمسألة يحسن

---

(1) انظر الغصون 13 ، 45 ، 46 ، 140 ، 141 ، وكذلك القدح 8 ، 9 ، 61 ، 77 ، 82 ، 91 ، 92 ، 95 ، 96 .

(2) البيان المغرب 3/256 .

(3) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 32 ـ 33 .

الإلتفات إليها إلا أنها خارج نطاق بحثنا هذا . وإذا كانت اسبانيا وأوروبا قد فقدتا جماعة من أنشط الجماعات في القرون الوسطى ، فإن شمال افريقيا وتونس بالذات قد غنما أذكى عناصر تلك الجماعة حيث تطعمت الدولة الحفصية الناشئة في تونس بالمثقفين والمهنيين الأندلسيين . ولنا أن نتصور أن كثيراً من مميزات الطابع الأندلسي قد انتقل مع اولئك الى المجتمع التونسي .

نأتي الآن إلى التساؤل الأهم : ماذا كانت ردة فعل الأوساط الثقافية الأندلسية إزاء هذا الوضع الحرج الذي انتهى بكارثة ؟

يمكننا في هذا المجال الإشارة إلى ثلاثة نماذج من ردات الفعل عند رجال الثقافة. النموذج الأول هو موقف التفاعل القوي المباشر من الأحداث بحيث يواجه المثقف او العالم ظروف الموقف مواجهة يومية ويترك عمله العلمي اما ايمانا منه بضرورة العمل الوطني والديني واما رغبة منه في الإستفادة الشخصية من اختلال سير الامور . يمثل هذا الموقف عالم في الحديث مثل أبي الربيع بن سالم الكلاعي الذي ترك التدريس في بلنسيه ليقاتل حول حدودها ويستشهد بعد أن أحس بخطر الغزو الداهم ، وعالم زاهد آخر هو أبو بكر عزيز بن خطاب الذي كان معروفاً « بشعار الزهد والعلماء » في مرسية ثم انتقل فجأة إلى « زي أصحاب السيوف . . . وسفك الدماء » حيث تولى حكماً قصيراً مضطرباً فيها دفع حياته ثمناً له .

أما النموذج الثاني فموقف من يساير الأحداث ويرتبط بها ولكنه يظل محافظاً على نشاطه العلمي ولا يسمح لارتباطه بالأحداث أن يغرقه فيها بل يراقب الموقف بحذر حتى إذا تحرج لدرجة الخطر الشديد تركه وهاجر من وطنه . يمثل هذا الموقف أصدق تمثيل ابن الابار ، المصنف البلنسي الكبير ، الذي كتب لأبي زيد بن أبي حفص والي بلنسية ثم تركه عندما لجأ إلى الأراجونيين وتنصر ، وعاد إلى أمير بلده الجديد ابن مردنيش وذهب سفيراً عنه إلى تونس إبان محنة بلنسية . . . . ولكن عندما سقطت بلنسية وأخذ ابن مردنيش يغامر في سبيل السلطة في المدن المتبقية من شرق

الأندلس تركه ولجأ الى تونس ليبدأ حياة جديدة في ظل الحفصيين[1] . وأما النموذج الثالث فموقف من ينصرف إلى نشاطه العلمي انصرافاً كلياً ويظل يراقب الأحداث من بعيد . أفضل مثل على ذلك صاحبنا ابن سعيد نفسه فبالرغم من أن أباه وأجداده تولوا الإمارة وشغلوا مناصب سياسية ، نجده لا يلتفت الى ذلك ، وبينما كان الاندلسيون يصارعون أنفسهم ويناضلون ضد الموحدين والاسبان في عهد ابن هود كان ابن سعيد يجول المدن الأندلسية مسجلاً مادته العلمية لكتاب المغرب لا يعنيه من أمر الحوادث شيء ، وقد غادر الأندلس نهائياً سنة 636 ، أي قبل سقوط بلده أشبيلية بعشر سنين[2] . مثل آخر على ذلك : أحمد بن مفرج الأشبيلي المعروف بابن الرومية الذي وهب حياته لعلم الحديث والنبات ورفض الإشتراك في تبعات الحكم أو الوظيفة[3] .

ومهما كانت المواقف المتخذة ، فإن الحركة الثقافية في هذا العصر كانت نشطة خصبة . رغم الحوادث الجسام والقلق والاضطراب ، بل ربما كان لتلك الأحداث فضل في تنبيه الأذهان وتعميق الحس التاريخي والوعي العقلي عند المثقفين خاصة . وقد سبق هذه الفترة ـ كما اتضح ـ الشطر الأول المستقر المزدهر من عهد الموحدين حيث أتيح للثقافة الأندلسية في جو من الأمن والدعة مواصلة مسيرتها في ظل تفهم أمراء الموحدين وتعاطفهم وتشجيعهم الفعلي في أكثر الأحيان مع ما عرف عن العهد الموحدي من إنشاء معاهد العلم ورعايتها والإشراف على الطلاب والحفّاظ وإعالتهم . وإذا كان من أثر للعهد الموحدي الأول على الثقافة الأندلسية فهو توجيهه لبعض فروع العلم كعلوم الدين ووقوفه أحياناً في وجه علوم أخرى كالفلسفة .

ثم تأتي حقبة التحول والاضطراب هذه ، ويتلاشى السلم

(1) القدح 191 .

(2) راجع الفصل الخاص بحياته من هذا البحث .

(3) القدح 181 .

الموحدي ، ولكن الثقافة الاندلسية تحتفظ بالكثير من حيويتها وزخمها وتظل قيم الثقافة محترمة مقدرة باعتبارها قيماً في حد ذاتها . فتستمر المناقشات الفقهية والأدبية والنحوية في معاهد أشبيلية ومدارسها ويواصل الناس إقبالهم عليها للتخرج فيها والتزود من جوها العلمي النشيط . وكان رجال الثقافة يجلّون العلم ويضعونه فوق كل اعتبار ويضحون في سبيله فهذا موسى والد ابن سعيد ، وهو سليل أعرق الأسر الأندلسية نسباً ومكانة وعلماً ، يلاحق الكتب أنى كانت ويسير الى أصحابها مهما اتضعت مكانتهم ـ يوم كان أمير الجزيرة الخضراء ـ رغم ما يجده منهم من جفاء ثم أنه يخبر ولده أن ما ناله من الفوائد العلمية أفضل من الولاية التي نالها في اليوم ذاته[1] .

وكان موسى هذا يقضي أيام أعياده « في جهد عظيم من الكتب » ويجد في ذلك الراحة الحقيقية[2] . ولقد حدثنا ابن سعيد كثيراً عن مكتبات الأفراد الذين ترجم لهم في « القدح المعلى » وما كانت تحويه من فوائد وما كان يبذل في سبيل جمعها من جهد[3] .

وأرى أن كثيراً من المثقفين حاولوا تحدي عصرهم القاسي ومجابهة ظاهرة الفناء والتشتت بمزيد من الأعمال العلمية ـ التي تبقى بعد فناء المال والأهل والوطن ـ تأكيداً للذات والوطن وحرصاً على التراث وأمجاد الرجال الذين أفنتهم صروف الدهر . ولربما استطعنا على ضوء ذلك تفسير ظاهرة كثرة التواريخ والتراجم والسير في هذه الفترة . وان الذي يتصفح كتاب « القدح المعلى » لابن سعيد يشعر بالجو الثقافي المزدهر الذي كان يعيشه الاشبيليون خاصة ، وكأن مدينتهم بعيدة عن الاضطرابات وتهديدات الغزو والإفناء . وان روح التحدي ذاتها هي التي تملي على ابن الابار ـ أفصح متحدث بلسان أهل العلم في هذه الحقبة ـ أن يبدأ بالإعداد لكتاب التكملة

---

(1) النفح 8/162 ـ 163 .

(2) النفح 169 .

(3) القدح 86 .

سنة 631 وكتائب أراجون تقترب من أسوار ولاية بلنسية . وهو يفصح عن ذلك بعبارة تنم عن وعيه بالموقف الخطير : « وكان انبعاثي لهذا التقييد أول شهر المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة . . . . ليعلم انها (الاندلس) ما أفلت أهلتهـا ، وان أعضلت علتها وبـطلت على البرد أدلتهـا ، ولاهوت نجومها وان أقوت رسومها . . . وما غرب الاسلام فيها وعجز قـومها عن تلافيها ، فالعلوم ما صرفت عنها ، ولا عدمت بالجملة منها . . ومصداق ذلك وصل إحسانهم والحبل مبتور ، ونظم جملهم (جميلهم ؟) والشمل منثور . . . [1] » ويبدو أن الكارثة والتشـرد قد أثـرا سلبياً في هـذه الروح المتحدية إذ يخبرنا ابن الابار أن الأحداث التي « ختمت بالمصيبة الكبرى في أشبيلية مصائبها ودهمت بالجلاء المكتوب والرجاء المكذوب عصائبها » جعلته ينقطع عن الكتابة مدة من الزمن متعللاً بما عانى من خطوب ، ولكن إلحاح الأصحاب عليه بالعودة إلى التصنيف ، قبل أن يصيبه مكروه ويضيع ما لديه من علم ، أجبره على إتمام التأليف حفظاً للحقيقة من الضياع ، بعد أن استخار « الله في الإسعاف والإسعاد[2] » وسيستخير الله مع ابن الابار مئات العلماء الأندلسيين الذين سيفـاجئهم هول الصـدمة في البـداية ثم يستفيقون في مهاجرهم الجديدة ليعودوا سيرتهم الاولى .

***

وليس من الممكن في هذه التقدمة الموجزة أن تؤرخ للحركة الثقافية رجالاً وفروعاً وخصائص ومراكز ومذاهب بالتفصيل . إلا أنه لا بد من عرض عام للعلوم الأدبية وعلم الجغرافيا والرحلات على وجه الخصوص نظراً لأن مصنفات ابن سعيد ستنصب في هذين العلمين اساساً .

يبدو شعر هذه الفترة غزيراً متنوعاً ، مصـطبغاً بـطابع عصـره القلق المضطرب والشعر من طبيعته أن يكتسب حدة وحيوية في عصـر كهذا . ويبدو شعر هذه الفترة معبراً عن طابعها وروحها عندما يتوزع في موضوعاته

---

(1) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ص 3 .

(2) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ص 4 .

بين تسجيل الأحداث المتلاحقة ، والنكبات المتتالية من ناحية ـ وبين الإنصباب على وصف مجالس اللهو والغزل الغلماني والخمريات من ناحية أخرى ، وكأنه يعكس واقع مجتمعه الذي يواجه مرارة الحقيقة تارة ويهرب الى اللهو واللذات تارة أخرى . وسيعبر الشعر في هذه الفترة عن مشاعر الغربة خاصة عندما يستقر الشعراء في مهاجرهم الجديدة بعد سقوط مدنهم الأندلسية وسنرى كيف أن هذه الأبعاد ستسحب ظلالها على شعر ابن سعيد نفسه بشكل أو بآخر . وعلى الصعيد الفني سيتجه الشعراء نحو المزيد من الكد الذهني وطلب الصورة البعيدة « الجديدة » كما سيبالغون في اصطناع الأسلوب الرقيق المحمل بالمحسنات البديهية انسجاماً منهم مع « الظاهرة الزخرفية » السائدة في مجتمعهم .

وقد اعتنت المصنفات الأدبية في هذا العصر ـ كمصنفات ابن الابار وابن سعيد ـ عناية فائقة برواية الشعر ، حتى أنها تتبعت الفقهاء والنحويين والمحدثين والنباتيين والفلاسفة والأمراء فيما قالوه من شعر ولو كان لا يتعدى البيتين أو الثلاثة . بل أن المصنف في أغلب الأحيان لا يترجم للعالم إذا لم يكن له شعر . ومن أشهر شعراء هذه الحقبة ابن سهل الاسرائيلي الذي أعاد جو أبي نواس في خمرياته وغلمانياته وامتاز بحدة في الشعور ورقة في التعبير ، وأبو بكر الصابوني وابن حيون الاشبيلي ، وابن زهر الحفيد ، وأبو البقاء الرندي ، وابن الابار ، وابن سعيد . والطابع الغالب على الشعر اتجاه نحو طريقة المحدثين إلا أن بعض الشعراء لأسباب معينة يسيرون على نهج طريقة العرب كبعض قصائد ابن سعيد وكقصائد ابن سهل « الحجازية »[1] غير أن هذه حالات فردية .

وواصل الاندلسيون اهتمامهم بفنهم الشعري الخاص : الموشح ، فأخذ عدد الوشاحين يزداد وتنوعت موضوعات التوشيح ، إلا أن ازدياد العناية بالصنعة اللفظية أفقد الموشح بعض رقته[2] . ومما يدل على ازدياد

---

(1) القدح 8 .

(2) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 250 ـ 251 .

أهمية الموشحات في هذا العصر أن ابن سعيد قام بوضع الموشحات جنباً الى جنب مع الشعر الكلاسيكي في مؤلفه الموسوعي الهام « المغرب » وربما كان ذلك لأول مرة في تاريخ التصنيف الأدبي .

أما على صعيد الأعمال النقدية فنذكر كتاب أبي البقاء الرندي « الوافي في نظم القوافي » الذي يمكن اعتباره تعبيراً عن وجهة نظر مذهب المحدثين ، وسنعود الى هذا الكتاب عند الحديث عن النقد عند ابن سعيد . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال « رسالة الشقندي »[1] في المفاضلة بين الاندلس والمغرب التي تتضمن بالإضافة الى تعبيرها عن النزعة الاندلسية وعرضها لعلوم الاندلسيين ، بعض إشارات نقدية . وإذا اعتبرنا مؤلف الرندي ممثلاً لما يمكن تسميته بالنقد المنهجي في هذا العصر ، فإن الرسالة هذه تمثل طابع النقد الذاتي التأثري .

وفي مجال النقد الأدبي قام أبو العباس الشريشي بشرح مقامات الحريري والتعليق عليها . وقد أثار شرح الشريشي اهتماماً كبيراً مما يدل على إعجاب الاندلسيين بفن المقامة . كما شرح مقامات الحريري في هذا العصر محمد أحمد بن سليمان المالقي[2] . أما في فن الرسائل فقد اشتهر أبو المطرف بن عميرة الذي كتب لأمراء بلنسية فالمغرب فتونس . وقد قال عنه ابن سعيد : « شيخ كتاب زماننا وامام أدباء أواننا[3] ، وأسلوبه في النثر كأسلوب معاصريه يقوم على العبارات القصيرة المسجوعة ، وعليه مسحة قوية من التعبير القرآني جاءت من ثقافته الفقهية ، إذ كان قاضياً .

ويحدثنا ابن سعيد عن حركة نحوية قوية شهدها هذا العصر فيقول أن « النحو عندهم (الاندلسيين) في نهاية من علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر كأصحاب عصر الخليل وسيبويه . . . وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم

---

(1) النفح 4/177 ـ 208 .

(2) السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 11 .

(3) القدح 42 .

النحو . . . فليس عندهم بمستحق للتمييز[1] » ومن أشهر علماء النحو أبو علي الشلوبيني الذي شرح « الجزولية » و« التوطئة » وكان له صيت ذائع تعدى الاندلس والمغرب وكان الناس يقصدونه في أشبيلية من جميع الأنحاء . واشتهر « باقراء مصنفات الأدب الجليلة » بالإضافة الى شهرته النحوية[2] » ومن معاصري الشلوبيني وتلاميذه أبو الحسن بن عصفور الاشبيلي صاحب كتاب « المغرب » في النحو ، وقد عرف ابن عصفور بأسلوبه التعليمي السهل في التأليف[3] وكذلك يمكن إضافة ابن مالك صاحب « الألفية » في نظم قواعد النحو الى نحويي هذه الحقبة وإن كان قد عمر بعدها (توفي سنة 672) . ويلاحظ أن الجهود النحوية كانت منصبة على الشرح وتبسيط القواعد ونشرها . وربما كان اهتمام العصر بالبراعة اللغوية من أسباب إزدهار هذه الحركة النحوية .

ومع هذه الحركة ظهرت فئة من الأساتذة تقوم باقراء كتب الأدب وشرحها من هذه الطائفة أبو الحسن الدباج[4] ، والأعلم البطليوسي اللذان كانا يعلمان في معاهد اشبيلية ، وقد تتلمذ عليهما ابن سعيد ذاته .

وفي حقل التاريخ الأدبي والتراجم وجمع النصوص الشعرية يبرز ابن سعيد وابن الابار علمين على هذه الحقبة . وستمثل مصنفاتهما كافة الاتجاهات المنهجية التي عرفها فن التصنيف من قبل ، فالحلة السيراء لابن الابار تترجم لشخصيات من الاندلس والمغرب منذ القرون الأولى أي أنها مقيدة مكاناً شاملة زماناً ، وكتاب « التكملة » له يهتم بالاندلسيين خصوصاً في نطاق الزمن الذي وصل إليه ابن بشكوال (578) في « الصلة » وإن كان لا يتقيد بحدود الكتاب الأخير حرفياً . بينما يقوم كتاب « تحفة القادم » على معارضة « زاد المسافر » لصفوان بن ادريس (598) ويختص

---

(1) النفح 1/205 ـ 206 .

(2) القدح 152 .

(3) الغبريني عنوان الدراية ، ص 188 .

(4) القدح 155 .

بالاندلس أيضاً لكنه زمنياً ينحصر فيمن سبق وفاته مولد المؤلف علىٰ وجه العموم[1] ، وسنرى عند الحديث عن منهج ابن سعيد في التصنيف كيف أن فن التصنيف الأدبي هذا العصر استفاد من تطور العلوم فأخذ يميل الى الدقة في التقسيم والتبويب بشكل تفصيلي كما يفعل النحاة والفقهاء والمناطقة في تقسيمهم وتبويبهم لفروع علومهم . وسيكون منهج ابن سعيد في تصنيف « المغرب » أفضل مثال على ذلك ، هذا المنهج الذي لو قارناه بمنهج « الأغاني » القائم على تداعي الرواية لأدركنا مدى الفرق الهائل الذي طرأ في حقل التصنيف الأدبي خلال أربعة قرون تقريباً .

أما في نطاق الجغرافية والرحلات ، فإن نشاط هذه الحقبة في الحقلين تأثر بصورة واضحة بالنتاج الجغرافي وجهود الرحالة خلال القرن السادس ، هذا القرن الذي يمكن اعتباره الفترة الذهبية وعصر النضج لعلم الجغرافية والرحلات في الاندلس خاصة والمغرب عامة . ففي النصف الأول من القرن السادس ظهر الشريف الادريسي (+ 493) الذي يعتبره الباحثون من أعلام الجغرافيين العرب ، والذي سيبدي جدة وطرافة في أبحاثه الجغرافية ، فكتابه « نزهة المشتاق » من أهم الكتب التي تمثل ظاهرة الجمع بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية ، وهو يضم مصورات جغرافية لأقسام الأقاليم السبعة وهذه تعتبر من الظواهر الجديدة في الجغرافية العربية . كما أنه في هذا الكتاب اعتمد على مصادر اوروبية اطلع عليها في بلاط مضيفه روجر الثاني ملك صقلية ، بالإضافة إلى مصادره العربية[2] وسنرى عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد أن كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي واحد من أهم مصادره الجغرافية[3] . أما في النصف الثاني من القرن السادس فقد ظهر الرحالة الشهير ابن جبير (540 ـ 614) الذي وإن كانت رحلته وصفاً للبلاد الشرقية ، فإن انطباعاته وميوله ستترك

---

(1) ابن الأبار ، المقتضب من تحفة القادم ، ص « ي » .

(2) انظر مادة « جغرافيا » في الموسوعة الإسلامية ج 7 ص 26 (الترجمة العربية) .

(3) انظر فصل « ابن سعيد الرحالة الجغرافي » من هذا البحث .

أثرها عند قرائه المغاربة وخاصة المهتمين بالرحلة منهم . وسنجد أن ابن سعيد في تسجيله لمشاهد بعض رحلاته سيهتم بالنواحي الاقتصادية والثقافية كما فعل ابن جبير في رحلته من قبله .

ومن رجال الجغرافية والرحلة في المغرب ابن فاطمة الذي يكتنفه شيء من الغموض ، ولولا ما نقله عنه ابن سعيد من معلومات جغرافية تتعلق بغرب افريقيا ووسطها لما أمكن التعرف الى طبيعة جهوده[1] والراجح أنه قام برحلة بحرية جنوبي مراكش وربما وصل الى ساحل الذهب على الساحل الافريقي الغربي[2] .

وقد تعمق الحس الجغرافي في الأندلس مع نشوء دول الطوائف في المدن الاندلسية المختلفة حيث أخذت كل مدينة تفتخر على الأخرى بما لها من حسنات ، وازداد هذا الحس عمقاً عندما بدأ الاحتكام قوياً بين الأندلس والمغرب عهدي المرابطين والموحدين . ويعتبر العصر الموحدي عامة عصر ازدهار للنشاط الجغرافي خصوصاً فيما يتعلق بأفريقيا حيث توسعت الدولة الموحدية في أفريقيا الغربية ، كما يذهب بعض الباحثين الى أن المغاربة قاموا باكتشاف منابع النيل في هذا العهد[3] .

ومن أهم الخصائص التي تميز بها التأليف الجغرافي في عصر ابن سعيد امتزاج الجغرافيا بالتاريخ والأدب . من دلائل ذلك كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشي (- 621) الذي مزج بين الجغرافية والتاريخ . وكتاب ياقوت « معجم البلدان » حيث امتزجت الجغرافيا بالتاريخ بالأدب ، وكتاب « المغرب » لصاحبنا ابن سعيد نفسه الذي ارتبط في ذهنه التصنيف الأدبي بالتصور الجغرافي . ومن الخصائص الملحوظة أيضاً نقل معارف السابقين وتنظيمها وتبويبها بعد صياغتها في أسلوب أدبي ـ والميل الى ذكر

---

(1) ابن سعيد ، بسط الأرض في الطول والعرض ص 14 ، 36 .
(2) زكي حسن ، الرحالة والمسلمون في القرون الوسطى ، ص 122 .
(3) محمد المنوفي ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 93 .

العجائب والخوارق[1] .

وإتماماً لهذه الصورة الموجزة يجمل بنا الإشارة الى أهم الأسماء في نواحي المعرفة الأخرى . ففي علم الحديث إشتهر خلال هذه الحقبة ابن القطان الكتامي المعافري (- 627) وأبو الربيع الكلاعي البلنسي (- 633) الذي يعتبر عالم العصر الأول في الحديث ، وابن الرومية (631) الذي عرف بميله الى المذهب الظاهري .

وفي حقل التصوف برز اسم ابن عربي (- 638) وتلميذه ابن سبعين (- 669) ويلاحظ ان الاثنين أمضيا الشطر الثاني من حياتهما في المشرق .

أما في علم النبات فنشير الى ابن الرومية سابق الذكر الذي قام برحلة علمية الى المشرق لدراسة النبات ثم عاد الى أشبيلية . ونخص بالذكر ابن البيطار العالم النباتي الشهير (645) الذي رحل الى المشرق أيضاً وتوفي في دمشق ، وكتابه « الجامع » من المصادر العلمية الهامة في القرون الوسطى .

5 ـ أهم المراكز العلمية في هذا العصر

أما فيما يختص بمراكز العلم ، فإننا نرى أشبيلية تحافظ على مكانتها الى ما بعد منتصف هذه الحقبة (أي حوالي 635) مواصلة دورها الذي اضطلعت به منذ العهد الموحدي الأول .

ولقد امتازت أشبيلية بكثرة معاهدها وإقبال الطلاب عليها من سائر أنحاء الأندلس ـ وكذلك المغرب ـ للدراسة فيها . وتوجه رجال العلم نحوها لاظهار علمهم ونبوغهم . وأكثر مصنفي هذه الفترة وعلمائها وفقهائها وشعرائها أشبيليون : أصلاً أو إقامة . وسنخص جو أشبيلية بشيء من التفصيل بعد قليل مكتفين هنا بالإشارة الى كونها المركز الأعظم للثقافة في هذا العصر .

---

(1) انظر مادة « جغرافيا » في الموسوعة الإسلامية .

ومع اقتراب سقوط أشبيلية وبقية الاندلس ، كانت الظروف تعد تونس لترث مكانة أشبيلية ولتصبح أهم مركز ثقافي في الشمال الأفريقي . ففي ظل الحكم الحفصي ، أكثر النظم إستقراراً في المنطقة عندئذ ، أخذ الأندلسيون يتوافدون عليها بكثرة حاملين معهم خزائنهم العلمية ليعيدوا خلق جوهم العلمي من جديد .

ونلاحظ أن حياة ابن سعيد نفسه كانت ـ قبل رحيله الى المشرق ـ موزعة بصورة رئيسية بين أشبيلية وتونس حيث كانت الأولى متألقة في بداية الحقبة وحيث بدأت الثانية تتألق مع نهايتها وفي السنين التي تلت . ويصدق هذا القول على أكثر علماء أشبيلية خاصة والأندلس عامة .

الى جانب هذين المركزين الرئيسيين الهامين ، كانت هنالك مراكز أخرى في الأندلس لها دورها الثقافي مثل قرطبة وبلنسية في أوائل الحقبة ، إلا أنهما لم تكونا في مكانة أشبيلية التي كانت عندئذ قاعدة السلطات ، وأكثر أماناً ـ نسبياً ـ من حيث التأثر بسير الغزو الاسباني إذ لم يصلها الاسبان الا بعد أن احتلوا قرطبة بثلاث عشرة سنة وبلنسية بعشر سنين . وفي أواخر هذه الحقبة كانت الظروف تهيء غرناطة لتكون المركز العلمي الوحيد والأخير في الأندلس . فبعد سقوط المدن الأخرى قصدها بعض العلماء للعيش في ظل أميرها ابن الأحمر الذي هادن الاسبان وبدأ يضع أسس إمارته الجديدة . غير أن وضع غرناطة لم يكن واضحاً في الزمن الذي نتحدث عنه وكان ثمة خوف من سقوطها مع البقية ، لذا لم تزدهر الحركة العلمية بها أثناء تلك الحقبة بالذات وإن كانت بذورها قد بذرت .

أما في الإمارة الحفصية ، فنشاهد الى جانب المركز الثقافي الأهم : تونس ، مدينة بجاية التي يعود ازدهارها العلمي ـ بصورة رئيسية ـ الى العلماء الاندلسيين المهاجرين إليها من أشبيلية وبلنسية ومالقة ومرسية وشاطبة[1] . ويبدو أن الصبغة الدينية كانت غالبة على النشاط الثقافي في

(1) عنوان الدراية ، ص 5 ، 43 ، 51 ، 139 ، 174 ، 188 .

بجاية إذ قصدها كبار متصوفة العصر وفقهائه وحفاظه[1] . ومن المراكز العلمية الجديرة بالذكر في هذا المجال جزيرة منورقة حيث أقام الرئيس العالم الأديب سعيد بن حكم القرشي نظاماً مرناً مهادناً للاسبان . فكان بعض العلماء المهاجرين من الأندلس يقصدون بلاطه للإقامة أو يمرون به طلباً للمساعدة . وكانت العلاقات العلمية ناشطة بين منورقة وتونس في ذلك الوقت بفضل علماء الأندلس خاصة[2] .

6 ـ أشبيلية في عصر ابن سعيد

1 ـ جو أشبيلية الطبيعي والعمراني :

تقع أشبيلية على نهر الوادي الكبير الذي يمر بها آتياً من قرطبة منساباً نحو مصبه عند البحر المحيط . وهذا الموقع جعل منها ميناءً نهرياً داخلياً ، بالإضافة الى أهمية مركزها في التجارة البرية . كما أن وجودها في هذه المنطقة النهرية جعل منها قاعدة لمنطقة زراعية واسعة . وهذا الجو الطبيعي الأخضر كان له أثره في تلطيف أذواق الأشبيليين وتعميق أحاسيسهم بالمنظر الجميل : فالريف الأشبيلي يمتاز بـ « الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليمون . . وغير ذلك[3] ، فهو « كريم التربة ، دائم الخضرة لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه » حتى أن السائر يمشي أربعين ميلاً في مثلها « في ظل الزيتون والتين[4] » . كما أن نهرها الذي يخترقها يمتاز عن سائر الأنهار بـ « كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم ، متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره » . وهذا الحسن الطبيعي سحب نفسه على مظاهر العمران في المدينة ، فقد اهتم الأشبيليون بـ « تزيين الخارج

---

(1) المصدر السابق 5 ، 13 ، 20 .
(2) القدح 28 .
(3) نفح الطيب 4/200 .
(4) المصدر السابق 1/150 .

والداخل » من مبانيهم وراعوا تبييضها لتتناسب مع جو مدينتهم الأخضر فإذا « هي من تبييضهم لها نجوم في سماء الزيتون[1] » على حد تعبير الشقندي الذي يصف أشبيلية في تلك الحقبة بالذات . وسيفتقد الأشبيليون هذا الإنسجام بين البياض والخضرة الذي سيظل مقياساً لحكمهم على جمال المدن ونضارتها حتى أن ابن سعيد نفسه سيتعجب عند دخوله « الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . . .

«وفي الأندلس . . إذا توجهت من أشبيلية فعلى مسيرة يوم . . . مدينة شريش وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة . . . . . . وهذا كثير في الأندلس[2]» .

2 ـ عظمة أشبيلية في العصر الموحدي :

عندما تألقت أشبيلية في عصر ابن سعيد مركزاً ثقافياً وحضارياً في بلاد الأندلس ومنطقة المغرب الإسلامي كله ، لم يكن تألقها هذا أمراً عابراً أو حادثاً جاء مع السلطان الموحدي ونشأ لظروف دقيقة محدودة . فأشبيلية كائن حضاري عريق أخذ ينمو تدرجاً وصعداً مع حركة التاريخ حتى شهد كامل نموه في العصر الموحدي . عندما كانت اسبانيا رومانية كانت أشبيلية قاعدة الرومان ، وعندما أصبحت قوطية أضحت أشبيلية أكبر مدنها وأرقى مركز فكري فيها ، وعندما غدت عربية أمست أشبيلية مقر أول أمرائها : عبد العزيز بن موسى بن نصير . لذا كان انقيادها لقرطبة صعباً ، إذ تمردت عليها يوم كانت قرطبة أموية وانفصلت عن سلطة خلفاء عبد الرحمن الثاني ابن الحكم في ظل أمرائها بني الحجاج . وما إن خربت الفتنة البربرية قرطبة سنة 400 هـ حتى غدت أشبيلية المدينة الأولى في الأندلس : عمراناً وسياسة وثقافة .

---

(1) المصدر السابق 4/199 .

(2) البيان المغرب 3/138 ـ 139 .

تألقت مع تألق الشعر والأدب في بلاط بني عباد ثم أخذها المرابطون عاصمة لهم عندما حكموا الأندلس وأخيراً غدت عاصمة الموحدين عندما انتقل إليها الخليفة العالم يوسف بن عبد المؤمن وواصل الإقامة فيها خلفاؤه من بعده أثناء وجودهم في الشطر الأندلسي من دولتهم . وقد حظيت أشبيلية بالكثير من اهتمام هذا العاهل المثقف المشجع للعلوم والعمران . فهو « الذي مصر أشبيلية وأمر ببناء سورها من جهة الوادي . . بعد هدم السيل له عام أربعة وستين (564) ـ ولما استقر بأشبيلية في عام ستة وستين (566) عقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة المؤسسة . . لعبور الناس . . . ولإجازة العساكر للغزو . . وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها . . . وابتنى فيها الجامع الكبير . . . وابتنى الصومعة الى نصفها وابتنى الزلالق لأبواب أشبيلية . . . احتياطاً من السيل ، وابتنى قصبتها البرانية والداخلية . . . وابتنى جميع أسوارها . . . وفدى من الأسر من وجد عند الروم من أهلها[1] » . وصحبت هذه النهضة العمرانية حركة تجارية مزدهرة وحركة ثقافية نشطة . والواقع أن معظم ما أشرنا إليه من مظاهر الثقافة كان ينطلق من أشبيلية أو يتجه إليها . وقد واصل خلفاء يوسف العناية بأشبيلية : فأكمل ابنه المنصور صومعة مسجدها الجامع ببناء برج « الجيرالدا » والجدير بالذكر أن هذا الجامع الأعظم بني على يد جد ابن سعيد ، محمد بن عبد الملك والي أشبيلية من قبل الموحدين[2] . كما قام المأمون ببناء برج الذهب . وإذا كانت أشبيلية قد فقدت عظمتها السياسية تدريجاً ابتداء بوفاة المنصور ومروراً بهزيمة العقاب وانتهاءً برحيل المأمون عنها ووقوعها فريسة بين تنازع ابن هود والباجي وابن الأحمر ، فإنها لم تفقد مكانتها الحضارية عامة والثقافية خاصة بمثل هذه السرعة شأنها في ذلك شأن سائر المدن العظيمة التي مرت بظروف مشابهة . وهكذا ظلت متألقة شطراً كبيراً من هذه الحقبة الأخيرة حتى السنوات الأخيرة التي سبقت سقوطها عام 646 هـ .

---

(1) البيان المغرب 3/138 ـ 139 .

(2) المغرب 2/162 .

وأشبيلية في هذه الحقبة صورة ناطقة لطابع عصرها المتغير ، المتقلب ، المشحون بالحيوية ، والناظر لأشبيلية من زاوية معينة يخرج بانطباع مغاير لانطباع الناظر إليها من زاوية أخرى . فقد كانت هذه المدينة مجموعة من « الأجواء » التي تبدو متنافرة متباعدة من الخارج ولكن من يحاول أن ينظر إليها عن كثب يمكنه أن يكتشف وحدة تلك الأجواء المتباينة ، التي تكون تمازجها العجيب : « أشبيلية » .

فقد كانت أشبيلية قاعدة السلطة السياسية وكانت قاعدة انطلاق جيوش الموحدين للغزو وكانت مركز الثقافة الأول في الأندلس والمغرب . . . وكانت مركزاً تجارياً عظيماً . . وكانت ـ أخيراً لا آخراً ـ مدينة الطرب واللهو والفرجة . . . وبإيجاز كانت قصبة لالتقاء كافة الميول والأهواء ، فقد جمع فيها الغرب الإسلامي كافة مخزوناته الحضارية في آخر فترة وأزهى فترة من فترات تألقه الحضاري . وربما ـ نظراً لذلك ـ يمكننا قبول المبالغة المشهورة التي رواها لنا الشقندي عن عوام أشبيلية : « لو طلب لبن الطير في أشبيلية . . وجد[1] » .

3 ـ أشبيلية وحياة اللهو والطرب :

في هذا الجو الطبيعي الجميل التقت عناصر عديدة من السكان . من بقايا الرومان والقوط ، الى الاسبان الأصليين ، الى العرب ، الى البربر ، الى الجالية اليهودية ، الى عناصر مجلوبة أخرى كالصقالبة ، لتكون شعب أشبيلية الناطق بالعربية ، الخاضع للموحدية ، المعتز بالأندلسية . ومن الطبيعي ألا يرى هذا الشعب المزيج في التزمت والجد والصرامة والوقار قيماً يجب التمسك بها حرفياً . لذلك ليس من المستغرب أن نجد « أهل أشبيلية أكثر العالم طنزاً وتهكماً » إذ أنهم « قد طبعوا على ذلك[2] » حتى طارت لهم شهرة طبقت الآفاق فعرفوا بأنهم « أخف الناس أرواحاً ،

---

(1) المغرب 1/286 .

(2) نفح الطيب 4/199 .

وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب ، قد مرنوا على ذلك . فصار لهم ديدناً حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً . . [1] » وطبيعي أن يقدر هذا الجو الضاحك المرح مظاهر اللهو على اختلاف أنواعه خاصة في هذا العصر الذي تشجع ظروفه الإجتماعية والنفسية على ذلك . وهكذا أصبحت أشبيلية « بأهلها يضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة [2] » . « وقد سعد هذا الوادي (وادي أشبيلية) بكونه لا يخلو من مسرة ، وإن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر الى شر وعربدة . . » وإذا عرفنا أن هذا الكلام أورده أديب أندلسي كبير هو الشقندي في مجال الفخر بأشبيلية عاصمة الأندلس أمام أمير موحدي وفي مناظرة ضد مغربي متطرف ـ دون أن يخشى لومة لائم ، أدركنا أن الرأي العام عندئذ كان يقدر هذه الجوانب من الحياة ولا يستحي أو ينفر منها . بل أن الشقندي يشير صراحة الى أن مقاومة الدولة لذلك باسم الدين لا تجدي ، فيقول : « . . وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك ، فلم يستطيعوا إزالته [3] » فإذا كان هذا القول ينطبق على عصر الموحدين الملتزمين بدعوة عقيدية محددة ، فما بالك بعهود الأمراء الضعاف الذين توالوا على حكم أشبيلية من بعدهم ؟ .

وقد أدى جو المرح واللهو الى تشجيع الطرب والغناء حتى غدت أشبيلية المركز الموسيقي الأول في الأندلس وارتبط ذكرها بذكر الموسيقى حتى أن ابن رشد عندما أراد الفخر بمدينته قرطبة في مناظرة بينه وبين أبي بكر بن زهر قال له : ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى أشبيلية [4] ، وقد مدح ابن رشد أشبيلية من حيث

(1) المصدر السابق 1/151 .
(2) المصدر السابق 4/199 .
(3) نفح الطيب 4/199 .
(4) المصدر السابق 1/147 .

مكانتها الموسيقية ، حيث أراد ذمها . ويحدثنا الشقندي عن تنوع الآلات الموسيقية في أشبيلية فيقول : « وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والفنار والزلامي والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق ، وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد[1] » .

وسنرى كيف أن هذا الجو الضاحك المرح الخليع ، الطروب قد عكس نفسه في مصنفات ابن سعيد وفي جوانب من حياته الخاصة حتى غدا عنصراً أساسياً من عناصر شخصيته .

4 ـ جو الجد والعلم والتدين في أشبيلية :

من مظاهر عظمة أشبيلية أن جو اللهو والطرب لم يتمكن أن يسيطر عليها ليجعلها مدينة منازه وحانات فحسب . فقد سابقت شهرة أشبيلية في العلم شهرتها في اللهو وإذا كانت هذه الشهرة الأخيرة عمت آفاق الأندلس فإن الشهرة الأولى وصلت إلى المشرق : شامه وعراقه ، ولا تكاد مصادر هذه الفكرة كالقدح والتكملة وعنوان الدراية تمر بشخصية علمية دون أن تذكر علاقتها بأشبيلية سواء أكانت هذه العلاقة إقامة أو دراسة وتدريساً أو إمامة أو توطناً أو زيارة .

ومنتديات العلم في أشبيلية عديدة في مقدمتها بلاط الموحدين الذي اصطبغ بصبغة علمية رفيعة أيام يوسف عبد المؤمن وابنه المنصور بما ضم من أكابر رجال الفكر والأدب والفقه ـ وقد أشرنا الى أشهرهم ـ كما أن المأمون ـ آخر خليفة موحدي في الأندلس ـ عرف بتشجيعه الشديد للعلم وبشغفه الشخصي بالعلوم حتى عد عالماً[2] ، بالإضافة الى ذلك كانت دور الأمراء والأعيان تستضيف أهل العلم وتعتني بالخزائن العلمية . ولقد كانت

---

(1) المصدر السابق 4/200 .

(2) القدح 152 .

دار بني سعيد ـ وهم ولاة المدينة من قبل الموحدين ـ في مقدمة الدور المهتمة بعلوم التاريخ والجغرافيا والأدب ، خاصة وأن هذه الأسرة قد ألزمت نفسها مسؤولية هامة ألا وهي وضع موسوعة أدبية ـ تاريخية ـ جغرافية عن الأندلس خاصة والمغرب عامة . هي كتاب « المغرب » الكبير . وكان الأثرياء الذين يقيمون لأنفسهم القصور الضخمة يحرصون على إتمام مظاهر أبهتهم بإضافة المكتبات إليها ، فهذا ابن حسان الأشبيلي يبني قصراً يشبه « منزل السلطان » ويلحق به مكتبة كبيرة يستقبل فيها زواره من محبي العلم ، يحدثنا ابن سعيد عنه : « دخلت إليه مع والدي وهو بهذا القصر في بهو قد ملأه من الكتب . فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة . . . »[1] .

وكانت مجالس العلماء والمساجد أهم مراكز التدريس العامة التي لا تقتصر على طبقة دون طبقة بل هي مفتوحة للجميع أغنياء وفقراء ، بلديين وغرباء ، من ذلك مجلس الشلوبيني إمام النحو في عصره وأستاذ ابن سعيد وابن سهل وأبي بكر الصابوني[2] . يحدثنا إبن سعيد أن مجلسه « بأشبيلية كان غاصاً بالبلديين والغرباء من الآفاق . . ثم رحلت فوجدت ذكره قد ملأ مسامع الشام والعراق ومن مراكز العلم المشهورة في أشبيلية جامع العدبس حيث كان أبو الحسن الدباج الذي كان مْن الأدب بمنزلة عالية « والذي كان « أمتن الناس ديناً وأخلصهم لله يقيناً يتولى الإمامة وإقراء الأدب »[3] .

والى جانب ما شهدناه من نماذج الخلاعة والإنحلال الخلقي نلتقي في هذه المدينة الجامعة بنماذج رائعة للورع والتقوى فهذا الشيخ أبو بكر بن قسورة بن زهر الأيادي الأعظم يتصف بـ « حال جليل من الصيانة ، والخير والأمانة ، حتى قدمه أهل بلده إماماً بجامعهم الأعظم وكان رحمه الله ـ حقيقاً بأن يؤتم به ويقدم . . .[4] وهذا الفقيه أبو عمران موسى المارتلي

---

(1) القدح 152 .
(2) المصدر السابق 155 .
(3) المصدر السابق 150 .
(4) الغصون اليانعة 135 ـ 137 .

يشتهر بالزهد والإنقطاع حتى كان في ذلك واحد وقته « يزوره الملوك ويتبركون به ويستوهبون دعاءه » . . وكان لا يقبل من أحد شيئاً وإنما كان له ما يقوم به من ملك ورثه من جهة طيبة . وكان مع ذلك يعمل الخوص بيده في خلوته ويبيعه ويتصدق منه لأنه كان يرى كراهية البطالة عن شغل لمثله[1] .

وكانت دور العلم هي الجامع الذي يلتقي فيه أهل اللهو والطرب من شعراء وزجالين ووشاحين ومتغنيين كابن سهل وابن عتبة وابن جحدر والصابوني بأهل الجد من فقهاء ونحويين كالدباج والأعلم البطليوسي والشلوبيني وابن عصفور ، فتتم في رحاب المعرفة وحدة شخصية المدينة الضاحكة الجادة ، اللاهية المتدينة النابضة بتدفق الحياة اولاً وأخيراً .

ومن الطريف أن نشير في الختام أن ملامح شخصية أشبيلية ـ على ما هي عليه من تنوع وخصب ـ سنراها تنطبق الى حد كبير على شخصية ابن سعيد الأديب الجغرافي المنادم الظريف ، بل ربما جاز القول أن ابن سعيد أصدق معاصريه تعبيراً عن روح أشبيلية .

7 ـ أسرة بني سعيد

من حق بني سعيد علينا في هذا البحث أن نخصهم بشيء من الإلتفات لأسباب عدة ، أولها أن هذه الأسرة لعبت دوراً مرموقاً في تاريخ الأندلس الثقافي والسياسي وخاصة في عصر الموحدين ، وثانيها أن بعض أفرادها البارزين ساهموا في الإعداد لكتاب المُغرب قبل أن يقوم آخرهم صاحبنا علي بن سعيد بإظهاره في ثوبه النهائي . فهؤلاء إذن مشاركون رئيسيون في الكتاب الذي تحاول هذه الدراسة إبرازه بشكل خاص باعتباره مصدراً أولياً في الأبحاث الأندلسية . أما ثالث هذه الأسباب فهو أن تعرفنا الى أسرة بني سعيد شخصياً وثقافياً سيمكننا من فهم « البيئة العائلية » التي نشأ فيها ابن سعيد نفسه والتي تأثر بها خلقياً وعلمياً الى حد بعيد كما سنرى

---

(1) انظر الفصل الخامس بشخصيته من هذا البحث .

عند دراستنا لشخصيته .

وأسرة بني سعيد أسرة عربية معروفة ارتبط ذكرها بتاريخ الكفاح الإسلامي المبكر ضد مشركي قريش عندما اشتد ضغطهم على النبي وأصحابه قبل الهجرة . فهذه الأسرة تنتمي الى عمار بن ياسر العنسي الذي احتمل هو ووالده حر الهجير في مكة تحت سياط القرشيين حتى استحقوا قول الرسول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . . » .

وتشاء الظروف أن يكون لعمار دور آخر مشهود في معركة الجمل ، ودور أكثر أهمية في معركة صفين إذ أنه قتل مخلفاً وراءه جدلاً عنيفاً بين أنصار علي وأتباع معاوية حول تفسير العبارة المنسوبة للنبي والموجهة له : « تقتلك الفئة الباغية » .

ويبدو أن بعض أحفاد عمار قدم الى الأندلس في عهد الفتح أو بعده بقليل ، إذ نجد أحد أحفاده وهو عبد الله بن سعد بن عمار يحل بالقلعة التي ستعرف بقلعة بني سعيد (وهي عبارة عن إقطاعية كبيرة في ريف غرناطة تتكون من القلعة السعيدية ـ أكبر حصن بها ـ ومن حصنين : القبذاق والعقبين[1] وتعرف أيضاً بقلعة يحصب[2] . ويصبح أميراً على اليمانية من جند دمشق ويوالي يوسف الفهري والى العباسيين في الأندلس ، ويقف تبعاً لذلك في وجه بني عمار قاتلي جدهم .

وبعد قتل عبد الله المذكور على يد الداخل ، يختفي ظهور هذه الأسرة عن مسرح الأحداث المشهورة حتى يثور أحد أفرادها ، وهو خلف بن سعيد ، زمن ملوك الطوائف ويستقل بالقلعة وتوابعها[4] .

---

(1) المغرب 2 (160 ، 182 ، 185) .
(2) آنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 244 .
(3) المغرب 2/161 .
(4) المصدر السابق 2/161 .

عبد الملك بن سعيد (496 ـ 562)[1]

ويظل بنو سعيد في قلعتهم حتى يظهر من بينهم عبد.الملك بن سعيد الذي ساهم في مقاومة المرابطين أثناء ثورة الأندلس عليهم ، ثم أيد الموحدين واستمر في إمارة منطقته باسم عبد المؤمن أول خلفائهم . ويبدو أن عبد المؤمن شك في ولائه له فاستقدمه الى مراكش وسجنه ، إلا أنه عاد فعفا عنه وأعلى قدره . وكانت وفاته بحضرة مراكش . وقد عُرف عبد الملك بتشجيعه للعلم ومساهمته فيه ، ففي أواخر حكم المرابطين قدم عليه أبو محمد عبد الله الحجاري (499 ـ 549)[2] ومدحه وصنف له بناء على طلبه كتاب « المسهب في غرائب المغرب » الذي أصبح فيما بعد نواة لكتاب « المغرب » ويروى أن عبد الملك نفسه هذب « المسهب » وزاد عليه ثم عهد به الى أبنائه من بعده فبين الحجاري وبني سعيد ـ إذن ـ رابطة من العلم ورابطة من الولاء والخدمة . فهو كما ذكر واضع نواة المغرب بمسهبه الذي ألفه سنة 530 من ستة أجزاء وضمنه فضائل أهل الأندلس والمغرب على أساس ذكر المشاهير منذ زمن الفتح حتى عصره مع رواية شيء من أشعارهم وأخبارهم التاريخية ممزوجة بشيء من المعلومات الجغرافية . وللحجاري اتصال بالأمير أحمد بن عماد الدولة بن هود أمير « روطة » في عهد الطوائف ، وقد أسر في أثناء مرافقته لهذا الأمير في إحدى غزواته ولم ينقذه من الأسر إلا عبد الملك بن سعيد السابق ذكره . وصفه علي بن سعيد بأنه « جاحظ المغرب » وروي أن والده موسى بن سعيد أطنب في الثناء عليه من طريق البلاغة نظماً ونثراً ومعرفة بالتصنيف[3] .

---

(1) انظر المصدر السابق 161/2 وكذلك النفح 101/3 .

(2) المغرب 35/2 تاريخ الفكر الأندلسي 272 .

(3) المغرب 35/2 .

محمد بن عبد الملك بن سعيد (514 ـ 589)[1]

كان ولي عهد والده ، عبد الملك وقائد جنده . اتصل بالمرابطين أول الأمر حيث صار مقدماً عند يحيى بن غانيه واليهم على غرناطة ، ثم ولاه الموحدون أعمال أشبيلية وغرناطة وأعمال سلا بالمغرب الأقصى وعلى يديه بني الجامع الأعظم بأشبيلية ، وقد اشتهر محمد بالقدرة والكفاءة في الحكم كما كان واسع الثراء يميل الى الأبهة في منزله وملبسه ومواكبه حتى أن الخليفة الموحدي المنصور عزله وصادر أملاكه فترة من الزمن ، إلا أنه عاد وعفا عنه وعوضه لما عرف عنه من اهتمام بأمور الرعية .

وسار محمد على سنة والده في تشجيع العلم فواصل الإهتمام بتوسيع كتاب « المغرب » كما شجع رجال العلم والشعر حتى قصده الرصافي البلنسي (ـ 572) شاعر العصر الكبير « الذي كان يمدح الخلفاء » وبالغ في مدحه وتعظيمه .

الشاعر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك (ـ 559)[2] .

هو شقيق محمد السابق ذكره ، يعتبر أشهر أسرة بني سعيد ، وأحد الشعراء البارزين في عصر الموحدين . وفي حياته عدة ظواهر تستلفت النظر . فلقد كان مخلصاً مع ذاته منسجماً مع مزاجه الشعري لا يخضعه لمتطلبات وزارة أو كتابة حاول والده عبد الملك أن يوكل إليه وظائف في الدولة فانسل منها ، كما ولاه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة وظيفة الكتابة وأرغمه على ذلك فهجاه وساءت علاقته معه وأدى ذلك الى قتله . ولأبي جعفر شبه بابن زيدون . فلقد أحب شاعرة تدعى حفصة الركونية ، وأخذ يراسلها بالأشعار وتلاقى معها ونافس في حبها مولاه أبا سعيد بن عبد المؤمن مما أدى الى مزيد من التدهور في علاقته به وانتهى

---

(1) المصدر السابق 62/2 النفح 100/3 .

(2) المغرب 164/2 ، الرايات 64 ، ابن الخطيب الإحاطة 94/1 ، النفح 211/5 ، العمري ، المسالك11 ورقة 279 (مخطوطة طوبقيوسراي) .

الأمر بقتله . ولأبي جعفر يد طولى في إضافة مواد جديدة الى « المغرب » فقد كان شاعراً يميل الى فنون الأدب بطبعه مما أفسح له مجال الإهتمام بهذه الرسالة الموسوعة المتنامية .

والد بن سعيد ، موسى بن محمد بن عبد الملك (573 ـ 640)[1] .

هو أبرز أبناء الوالي محمد ، يتوازى في حياته خطان : العمل للدولة في الإمارة والولاية ، والجهد الشخصي في حقل التقييد والتصنيف ، إلا أنه على العموم أقل احتفالاً بالناحية الأولى وأكثر ميلاً الى الثانية وربما كانت حياته مرحلة وسطى في تاريخ الأسرة من اهتمامها بالعمل السياسي أساساً الى تحولها شيئاً فشيئاً نحو العمل العلمي .

فالملاحظ أن أسرة بني سعيد منذ أيام خلف بن سعيد حتى أيام محمد بن عبد الملك والد موسى كان يغلب عليها الطابع السياسي مع اهتمامها بالناحية العلمية ، إلا أنه مع ظهور الشاعر أبي جعفر وموسى بدأ الاتجاه يشتد نحو العلم يتغلب على الاتجاه السياسي ، وسنرى أن هذا التطور سيتوج بظهور صاحبنا علي بن سعيد الذي سيترك المهام السياسية والرسمية ـ اللهم إلا تولي الكتابة لبعض الأمراء وقت الحاجة ، وهي وظيفة ذات طابع أدبي ـ ويتجه بصورة رئيسية نحو حقل التصنيف . ولعل سر هذا التحول راجع الى تدهور الأوضاع السياسية في الأندلس وارتباط العمل السياسي بالأخطار والنكبات ، مما حدا بالأسرة الى الاتجاه نحو اهتمامها الآخر الذي ازداد نموه مع تصاعد النشاط العلمي في العهد الموحدي ، والذي كان الملجأ الأمين الوحيد في مثل تلك الظروف .

هذا وقد استمر موسى في خدمة الموحدين ، وكان ضمن حاشية المنصور التي صحبته في وقعة الارك المشهورة سنة 592[2] ، ثم كتب

---

(1) المغرب 170/2 النفح 114/99/3 ـ 128 .
(2) المغرب 221/1 .

للخليفة عبد الواحد (المخلوع) واتصل بالعادل وصحبه في رحلتـه الى مراكش سنة 624 [1] وبعد مقتله عاد الى الأندلس حيث كتب لمنافسه أبي العلاء المأمون وهو آخر خليفة موحدي يحكم الأندلس . وفي ظل حكم ابن هود تولى أمرة الجزيرة الخضراء بين سنتي 630 ـ 632 [2] إلا أنه أخر عن الولاية بسبب الوشايات ومنذ ذلك الحين لم يتول موسى عملاً رسمياً في الأندلس ، خاصة عندما بدأ الصراع على الحكم في أشبيلية ذاتها بين ابن هود والباجي وابن الأحمر مما أتاح له فرصة التنقل ومقابلة العلماء والأخذ منهم . ويطنب المؤرخون في ذكر كلف موسى بالرحلات العلمية واللقاءات الشعرية والأدبية ، فلقد زار معظم المدن الأندلسية قبيل مغادرته النهائيـة للأندلس سنة 636 ويندر أن يكون قد فوت الالتقاء بعلم من أعلام العلم والأدب في عصره ، ومعظم رجال الثقافة الذين رآهم ابن سعيد هم أصدقاء شخصيون لوالده . ومن ضمن العلماء الذين تتلمذ عليهم أو استفاد منهم ابن رشد [3] والحافظ وأبو بكر بن الجد ، وأبو بكـر بن زهر [4] وأبـو وليد الشقندي [5] .

ويحدثنا ابن سعيـد أن والده مـوسى له « الحظ الأوفـر » في كتاب المغرب كما أنه أوحى له بفكرة كتاب « المشرق » وكان « أشغفهم (بني سعيد) بالتاريخ وأعلمهم به . . وقد عاش سبعاً وستين سنة ولم أره يوماً يخلى مطالعة كتاب ، أو كتابة ما يحلو حتى أيام الأعياد » [6] .

ولموسى نظم يميل الى الطريقة الوعظية ، وتمتاز كتابته النثرية بتغلب عنصر الفكرة عليها مع عناية بالشكل لا توغل كثيراً في التكلف . ويبدو في الوصية المطولة التي كتبها لابنه علي أواخر حياته حكيماً متأنياً له نظرات

---

(1) القدح 211 .
(2) المصدر السابق 142 .
(3) المغرب 1/221 .
(4) النفح 3/128 .
(5) المغرب 1/214 .
(6) المصدر السابق 2/170 .

في الأخلاق وآراء في العلاقات الشخصية والاجتماعية وفي مواجهة الحياة عامة . ويمكن اعتبار الوصية هذه نموذجاً طيباً لنظرة رجل حكيم مجرب الى الناس والزمان والأشياء في ذلك العصر فهي تتجاوز إطار النصائح العادية الشائعة لتقدم مواقف شخصية لها طابعها الخاص . وهي إجمالاً يغلب عليها طابع التفاؤل وتتسم بالحث على مقارعة صروف الدهر وعدم الاستسلام لها . وسنرى أن ابن سعيد سيتأثر بهذه الوصية ويستفيد منها في حياته الحافلة . وقد وصل موسى مع ابنه إلى تونس حيث أقام هناك بين سنتي 636 ـ 639 يشتغل بالكتابة لولي العهد الحفصي أبي يحيى ، وإن شابت علاقته بهذا الأمير السعايات والوشايات كذلك ثم رحل ـ مع ابنه أيضاً ـ الى مصر حيث توفي في الاسكندرية سنة 640 هـ .

شخصيات أخرى من بني سعيد .

ترجمنا فيما سبق لأهم رجالات بني سعيد في حقل السياسة والأدب وللمساهمين منهم في « المغرب » بالذات وقد اتفق أن كان هؤلاء أجداد علي بن سعيد أو أعمامه الأقربين . وإكمالاً للإستقصاء نشير هنا بإيجاز الى شخصيات أخرى من الأسرة السعيدية لها صلة بابن سعيد من قريب أو بعيد .

1 ـ **أبو بكر محمد بن سعيد**[1] : تولى أعمال غرناطة أيام المرابطين . وله اهتمام بالأدب والشعر .

2 ـ **حاتم بن سعيد**[2] : كان من أصحاب ابن مردنيش الثائر ببلنسية والشرق الأندلسي في بداية عهد الموحدين ، وكان يقرض الشعر ، توفي سنة 592 هـ .

3 ـ **مالك بن محمد بن عبد الملك**[3] : هو عم علي بن سعيد قام برحلات

---

(1) المغرب 2/163 .

(2) المصدر السابق 2/168 ، الإحاطة 1/310 .

(3) المغرب 2/171 .

في الأندلس والمغرب واستقر كاتباً عند يحيى بن غانيه الميورقي الذي احتل تونس وحارب الموحدين أيام محمد الناصر . وكان يتعاطى نظم الشعر أيضاً .

4 ـ **عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك**(1) : هو عم آخر لعلي بن سعيد كان معروفاً بالحدة وسرعة الغضب فترك الأهل وغادر الأندلس الى المغرب ومن هناك قام برحلة طويلة مر بها الغرب الأوسط (الجزائر) فتونس ، فالاسكندرية فالقاهرة ، فالحجاز للحج ، فدمشق ، فحلب ، فالموصل ، فبغداد ، ففارس ، حتى وصل الى بخارى وعكف هناك على الدرس . وقد بعث الى أهله بالأندلس رسالة يصف فيها أحداث رحلته بإيجاز ويذكر انطباعه عن كل بلد زاره ، وقد حفظ لنا ابن سعيد هذه الرسالة ، ويبدو أنه اطلع عليها ضمن سجلات الأسرة وانها أثارت في نفسه الشوق الى الترحال . ولعبد الرحمن شعر جميل في التشكي من الغربة . وقد قتله التتار عند اكتساحهم لبخارى حوالي سنة 615 هـ .

5 ـ **أبو عبد الله محمد بن الحسين بن سعيد**(2) : من بني سعيد الذين برزوا في تونس في ظل الإمارة الحفصية ، وكان من قادة الجيوش ، عمل للأمير أبي زكريا (ـ 647) وابنه المستنصر (ـ 675) وقد ساعد ابن سعيد ووالده على التقدم عند الأمير أبي زكريا أثناء نزولهما في تونس ، إلا أنه سرعان ما انقلب عليهما وسعى في تأخيرهما . ولابن سعيد قصائد طويلة في مدحه ومعاتبته واستعطافه . وكان هذا القائد كسائر أفراد الأسرة السعيدية ، يتعاطى فنون الأدب نثراً وشعراً .

***

من هذا العرض السريع لتاريخ الاسرة السعيدية نجمل خصائصها

---

(1) المصدر السابق 2/172 ، النفح 3/132 .

(2) المصدر السابق 2/168 ، النفح 3 ، 44 ، 85 .

الهـامة المتـركزة في علو النسب ووضـوحه ، وارتفـاع المكانـة عبـر العصور ، والمركز القيادي والمسحة الأرستقراطية ، والإسهام الغني في الحركة الثقافية شعراً وأدباً وتصنيفاً ، وروح الإقدام والمغامرة . . .

وهي خصائص سيكون لها في نفسية ابن سعيد وحياته ومكانته نصيب واضح .

الفصل الأول

سيرة ابن سعيد

(610 ـ 685 هـ / 1213 ـ 1285 م)

بين نشأة أندلسية ورحلات مشرقية

1 ـ نشأته في الأندلس :

- مولده في غرناطة
- نشأته ودراسته في أشبيلية
- تنقله مع والده في أرجاء الأندلس

2 ـ حياته بين المغرب والمشرق

- إقامته في تونس
- رحلته الأولى الى المشرق
- عودته الى تونس
- رحلته الثانية الى المشرق
- عودته الأخيرة الى تونس ووفاته بها

تاريخ حياة ابن سعيد

في حياة ابن سعيد دوران متميزان بارزان : دور إقـامته في بلده ، ودور رحلاته وتغربه . ورغم أن الدور الثاني يغطي الدور الأول من حيث الإمتداد الزماني والإتساع المكاني والنشاط العلمي فإنه لا يفوقه من حيث التأثير العميق في تكوين ابن سعيد النفسي والعلمي . ولـولا هذا الـدور الأول وما امتاز به من إعداد وتجارب لما تمكن ابن سعيد من مواجهة الدور الثاني وتحدياته ومصاعبه بقدر كبير من الإستعداد والقدرة .

وينقسم الدور الأول في حياة ابن سعيد الى ثلاث فترات : فترة مولده وطفولته في غرناطة . وفترة صباه وشبابـه ودراسته في أشبيليـة ، ثم فترة تجواله في أرجاء الأندلس مع والده لجمع المادة العلمية لمؤلفاتهما وخاصة كتاب « المغرب » . ويلاحظ أنه ليس ثمة فاصل تام الوضوح بين الفتـرة الثانية والثالثة فقد كان ابن سعيد يصحب والده في جولات قصيرة في المدن القريبة من أشبيلية أثناء فترة دراسته بها ، كما أنه كان في الفترة الثالثة ـ فترة التجوال في الأندلس ـ يمر بأشبيلية ويقيم بها عاماً أو بضعة شهور دارساً أو مستعيداً ذكريات لهوه . غير أن التمييز يزداد وضوحـاً عندمـا يقرر الـوالد والإبن حوالي سنة 632 هـ مغادرة الأندلس ، عندئذ يتركان أشبيلية نهائياً ويتجهان صوب جنوب شرقي الأنـدلس حيث يمضيان مـا يقارب الأربـع سنوات (632 ـ 636) في زيارات لمدن تلك المنطقة كمرسية ومالقة .

أما الدور الثاني ، وهو دور الرحلة والإغتراب ، فينقسم إلى خمس

فترات : فترة إقامته مع والده في تونس ، وفترة رحلته المشرقية الأولى التي زار خلالها مصر وبلاد الشام والعراق وبعض مدن فارس والديار الحجازية للحج ، ثم فترة عودته الى تونس ، ثم فترة رحلته المشرقية الثانية التي يبدو أنها امتدت حتى أقاصي خراسان متجاوزة حدود الرحلة الأولى ، وأخيراً فترة رجوعه الأخير الى تونس ووفاته بها .

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه :

هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد[1] بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن يسار العنسي[2] . يكنى بأبي الحسن وهي ـ كما هو معروف ـ كنية تطلق على كل من يتسمى علياً في المشرق وهو من ضمن الألقاب التي كان يتيمن المشارقة باطلاقها مقرونة بلفظة « الدين » كشمس الدين وضياء الدين . ويظهر أن من يتسمى علياً ينال لقب « نور الدين » إذ لكل إسم لقب خاص من هذا النوع[3] .

1 ـ حياته في الأندلس

مولده بغرناطة :

عند الحديث عن أسرة بني سعيد تبين أن قلعتهم كانت إقطاعية تابعة لمدينة غرناطة . فمدينة غرناطة ـ إذن ـ هي أقرب المدن الأندلسية إليهم ، وعندما أصبح محمد بن عبد الملك بن سعيد ، جد علي والياً للموحدين تولى ولاية غرناطة قبل أن يرتقي في سلم الولاية ويتولى أعمال العاصمة

---

(1) المغرب 2/172 .

(2) المصدر السابق 2/161 ، يلاحظان بين علي والجد الأكبر ياسر ستة عشر جداً خلال ستة قرون وهو على ما يظهر تناسب محتمل بين العدد والزمن .

(3) نبهني الى ذلك استاذي الدكتور جبرائيل جبور رحمه الله .

أشبيلية ويبدو أن رجالات بني سعيد كانوا يتركون عائلاتهم وأطفالهم في مدينتهم الأولى عندما يتولون أعمالاً خارجها . وهذا ما قد يصدق على موسى ، والد ابن سعيد ، الذي نراه في رفقة خلفاء الموحدين وأمرائهم منذ سنة 592 حيث رافق الخليفة المنصور في موقعة الارك . وأياً كان الأمر فإن المصادر لا تسعفنا بذكر مكان موسى سنة 610 وهي السنة التي ولد فيها ابن سعيد[1] وإن كان من غير المستبعد أن يكون مقيماً في غرناطة نفسها ، مسقط رأس ابنه ، في تلك السنة . فمن استقراء تاريخ الأسرة يتبين أن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، والد موسى ، كان متولياً أعمال غرناطة قبل حوالي عشرين سنة من مولد علي[2] ، وأن أخاه أبا جعفر أحمد بن عبد الملك خلفه في منصبه حيث استوزره عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، وأن ابنه موسى بقي مع عمه أحمد قائماً له ببعض أعمال الكتابة . فقد كان موسى متعلقاً بعمه الشاعر أبي جعفر معجباً بموهبته الشعرية « مقدماً له على سائر أقاربه[3] » . ومن المرجح أن موسى بقي في خدمة الموحدين بغرناطة بعد مقتل عمه على يد عثمان المذكور حتى مولد ابنه في تلك السنة بها .

ولا يمكن الجزم الى متى ظل ابن سعيد في غرناطة : هل قضى عدداً كبيراً من سنوات طفولته بها أم أن والده أخذه معه الى أشبيلية وهو في سني طفولته الباكرة . وأغلب الظن أنه بدأ يحتك ببيئة أشبيلية ويعيش فيها وهو في حوالي العاشرة من عمره . ففي سنة 621 نجده مع والده في أشبيلية ، وكان والده عندئذ على اتصال بالخليفة الجديد عبد الواحد الذي بويع بالخلافة لتوه[4] . ويلاحظ أن ابن سعيد لا يتحدث عن أية ذكريات باكرة له في غرناطة بينما يورد كثيراً من ذكريات صباه في أشبيلية مما يوحي أنه ترك غرناطة قبل أن يعي الأشياء والحوادث وعياً كاملاً . أما بعض أشعاره التي

---

(1) المغرب : 174/2 ، النفح : 41/3 .

(2) المغرب : 162/2 .

(3) المصدر السابق : 164/2 .

(4) النفح : 124/3 .

يتشوق فيها الى جلسات لهوه في غرناطة فسنرى أنها تعود الى مرحلة شبابه عندما كان يتنقل بين المدن الأندلسية .

نشأته ودراسته في أشبيلية :

كان لا بد لكل من أراد نيل قسط من الثقافة في تلك الفترة من تاريخ الأندلس من أن يقصد أشبيلية مركز الثقافة الأعظم في تلك الفترة من الوقت . وكان طبيعياً أن يشجع موسى بن سعيد ولده علياً على الدراسة لما عرف عن أسرة بني سعيد من ميل الى العلوم والتأليف . ثم أن موسى اتجه الى الإقامة في أشبيلية عندما كان ابنه بين العاشرة والرابعة عشرة ، لاشتغاله في خدمة الخليفتين أبي محمد عبد الواحد والعادل[1] ، وهكذا شجعت الظروف العلمية والعملية إنتقال ابن سعيد الى العاصمة وهو في حوالي العاشرة .

وفي أشبيلية قضى ابن سعيد عهد صباه ، وفيها تلقى علومه على يد عدد من علماء الأدب والنحو من أمثال أبي علي الشلوبيني النحوي ، والأعلم البطليوس مقرىء من أشياخ الأدب ، وأبي يحيى بن هشام الكاتب ، وأبي الحسن الدباج مقرىء الأدب وإمام جامع العبس[2] ، كما التقى فيها بكثيرين غيرهم من شعراء وعلماء ورجال دولة مكوناً مع الجميع صداقات وطيدة ومثمرة على الصعيد العلمي والشخصي . ولعل أبعد هذه الصداقات أثراً في ميله الشعري وتكوينه النفسي صداقته مع الشاعر الأشبيلي ابن سهل الاسرائيلي التي ذكرها في عدة مواضع من كتابه « القدح المعلى » بقوله : « قرأت معه على الأستاذ أبي الحسن الدباج زماناً وبادرنا لأنواع اللذات ميداناً فميدانا ، وكان مهوى هوانا ، ومجمع لذاتنا ومنانا ، بمرج الفضة والعروس ، والسلطانية وشنتبوس لا نكاد نخلو من التفرج في تلك الأدواح والقصور . . . دعوته يوماً الى مرج الفضة . . . وخرجت مرة

---

(1) النفح 3/126 .

(2) انظر الحديث عن أساتذته بالفصل الخاص بمؤلفاته وعلمه .

معه الى السلطانية . . . وتنزهنا مدة بالعروس . . . ثم ركبنا نهر أشبيلية . . . ثم صعدنا الى فم الخليج . . . وحضرت معه يوماً مجلس الأستاذ أبي علي الشلوبيني [1] .

وكما تعود ابن سعيد منذ صغره مخالطة رجال العلم والأدب في ظل والده تعود معه أيضاً منذ تلك السن المبكرة الرحلات بحيث لو وصفت حياته بأنها رحلة متواصلة لما كان ذلك تجاوزاً للحقيقة . فقد سنحت له الفرصة وهو ما زال في السنة الرابعة عشرة من عمره للقيام برحلة الى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدي العادل الذي كان والده منتظماً في سلك خدمته . ففي سنة 624 اضطر العادل للذهاب الى مراكش بسبب امتناع كثير من أمراء المدن الأندلسية عن مبايعته من ناحية وبسبب اضطراب الحالة في مراكش نفسها من ناحية أخرى تاركاً الأمر في الأندلس لأخيه أبي العلاء المأمون [2] . وفي هذا الجواز الى بر العدوة (المغرب الأقصى) صحبه رهط من علماء الأندلس وشعرائها المقربين إليه من ضمنهم موسى والد ابن سعيد [3] والشري المتأدب ابن حسان الأشبيلي من أعيان أشبيلية [4]، وأبو عمر بن حكم القبطلي أحد وجوه جزيرة قبطل من أشبيلية [5] وأبو المعالي أحمد القيجاطي من رجالات جبان [6] وقد اصطحب موسى ولده علياً في هذه الرحلة الملكية التي أتاحت له الإجتماع بعدد كبير من الشخصيات الأندلسية والمغربية ، ومشاهدة حاضرة الدولة الموحدية ، والتعرف الى بيئة المغرب التي تختلف من عدة أوجه عن بيئة الأندلس . ولكن يبدو أن ظروف تلك الرحلة لم تكن مساعفة ، فقد قتل العادل في تلك السنة [7] ولا نعلم كيف كان موقف والد ابن سعيد من تلك الحادثة ،

---

(1) القدح : 73 ، 74 ، 75 ، 76 ، 77 .
(2) روض القرطاس 163 ، كتاب العبر 6/251 .
(3) القدح 211 .
(4) المصدر السابق 149 .
(5) المصدر السابق 200 .
(6) المصدر السابق 211 .
(7) روض القرطاس 163 ، كتاب العبر 6/251 .

إلا أنه على أي حال كتب رسالة تهنئة وهو بمراكش الى أبي العلاء ادريس المأمون الذي أخذ البيعة لنفسه في أشبيلية . وكان المأمون هذا من خلفاء الموحدين المشهورين بتشجيع العلم وكان لبني سعيد اتصال به قبل توليه الخلافة (1) .

ويبدو أن موسى وابنه بقيا في المغرب مدة من الزمن تقارب السنتين وذلك لجمع المادة التاريخية والشعرية الخاصة بمراكش لكتاب « المغرب » ففي سنة 627 نجدهما مارين بسبتة ، المواجهة لبر الأندلس من الطرف المغربي ، بعد أن التقيا بكاتبها أبي القاسم عبد الرحمن العثماني (2) والأرجح أنهما كانا قادمين من مراكش في تلك السنة .

وفي هذا الوقت تقلص نفوذ الموحدين في الأندلس وأخذ نجم ابن هود الثائر عليهم ، يعلو بعض الوقت ، ويظهر أن والد ابن سعيد رأى من حسن السياسة الإتصال بهذا الحاكم الأندلسي الجديد للإستفادة منه . ففي سنة 629 نرى موسى مع ابنه علي في غرناطة يحاول الإلتقاء بأبي عبد الله محمد بن عمار البرجي كاتب عسكر الثائر ابن هود (3). وفي السنة التالية ، سنة 630 ، يعود ابن سعيد ـ ووالده معه ـ أدراجه الى ملاعب صباه في أشبيلية ، وقد بلغ سن العشرين حيث يعاود الإتصال بابن سهل ، ويلتقي بالشاعر الأديب أبي الوليد بن طيفور المارتلي (4)، وبالأفلح اللخمي ، وزير ابن هود ، الذي كان عهده به مع والده « في اتصال مزاورة ، واطراد مجالسة ومحاضره » واقتباس من أدبه واستفادة . وقد زين له ابن سهل الاسرائيلي يوماً أن يشاركه في هجاء هذا الوزير الذي بدأت تظهر عليه بعض إمارات الغطرسة ، غير أنه عاد الى مدحه واسترضائه بتأنيب شديد من والده موسى (5) .

---

(1) النفح 3/127 .
(2) القدح 196 .
(3) لمصدر السابق 218 .
(4) المصدر السابق 183 .
(5) المصدر السابق 140 ـ 142 .

وهنا نجحت جهود والد ابن سعيد في محاولته الإتصال بابنْ هود. فقد ولاه أمرة الجزيرة الخضراء ـ من أعمال مملكة أشبيلية ـ بحسن وساطة الوزير الأفلح اللخمي[1] . فكانت تلك مناسبة طيبة لابن سعيد يعود فيها الى درسه ولهوه معاً . ومما يدل على نضجه وحسن تحمله للمسؤولية في تلك السن المبكرة . وهي سن الحادية والعشرين (631 هـ) أنه ناب عن أبيه في أمرة الجزيرة الخضراء فترة من الوقت .

ولكن ذلك لم يمنعه من أخذ حظه من اللهو في مرابع الجزيرة الخضراء متعاطياً الشعر مصاحباً للعلماء[2] . إلا أن هذا العيش الهنيء لم يطل بسبب الوشايات التي أوغرت صدر الوزير الأفلح فسعى في تأخير والد ابن سعيد عن الإمارة سنة 632 [3] .

وفي هذه الفترة كانت أشبيلية هدفاً لتنافس ثلاثة ثوار : الباجي وابن هود وابن الأحمر . ويبدو أن ابن سعيد بقي مع والده هذه الفترة في منطقة أشبيلية واتصل بأميرها الباجي ومدحه بقصيدة هنأه فيها بانهزام ابن هود [4]، إلا أن الباجي لم تطل مدة حكمه فما لبث ابن الأحمر أن فرض سيطرته على أشبيلية « وقتل ملكها المعتضد الباجي ، وكنت حينئذ هنالك وأنشدته قصيدة أولها :

لمثلك تنقاد الجيوش الجحافل
وتذخر أبناء القنا والقنابل [5]

ولا نعلم مدى علاقته بابن الأحمر ، إلا أن علاقته به لم تطل .

ونصل هنا الى الفترة الخطيرة الحرجة من حياة الأندلس ، فقد أخذت قواعدها الكبرى تسقط تباعاً في يد الاسبان وعلى رأسها مدينة قرطبة سنة 633 هـ . ويبدو أن موسى وولده أدركا في هذه الأثناء أن الأندلس لم

---

(1) المصدر السابق 140 ـ 142 .
(2) القدح 2 ـ 3 .
(3) المصدر السابق 142 .
(4) النفح 3/36 .
(5) المغرب 2/109 .

تعد بالمكان الصالح للإقامة . ولم يعد في الإمكان التنبؤ بثبات أية منطقة في وجه الزحف الاسباني الآتي من الشمال والشرق والغرب . وأعتقد أنهما قبل أن يغادرا الأندلس نهائياً قررا المرور بالمدن الأندلسية الواقعة في الطريق بين أشبيلية والساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس ، المواجه لتونس ، لجمع بعض المادة العلمية عنها .

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الفترة الأشبيلية من حياة ابن سعيد ، أذكر عدداً من الشخصيات العلمية التي قابلها ابن سعيد في أشبيلية ، وإن لم يكن بالإمكان تحديد موعد تلك اللقاءات على وجه الدقة ـ مع أن الراجح أن أكثرها تم بين سنتي 630 ـ 632 :

1 ـ **أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي** : من حفاظ ومؤرخي الأندلس وأدبائها جالسته كثيراً في أشبيلية . . وكان والدي يكرمه لحفظه[1] » .

2 ـ **الأديب الهيثم أبو غالب الهيثم** : « حافظ أشبيلية لم ألق بها أحفظ منه[2] » .

3 ـ **الطيب الوشاح أبو الحجاج يوسف بن عتبة** : « اجتمعت به في أشبيلية[3] » .

4 ـ **أبو الحسن علي بن حجدر** : « كان زجالاً مطبوعاً ، صحب والدي مدة ، ولقيته أنا بأشبيلية[4] » .

5 ـ **أبو بكر الصابوني** : « اجتمعت به في أشبيلية والناس يجعلونه شاعرها المشار إليه . .[5] » .

---

(1) المغرب : 1/120 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 135 ، وفي ابن الزبير صلة الصلة ص 10 .

(2) المغرب : 1/258 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 158 ، وفي الرايات 18 .

(3) المغرب : 0/258 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 161 ، وفي الرايات 21 .

(4) المغرب ، 1/262 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 172 .

(5) المغرب : 263 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 69 وفي الرايات 21 وفي ابن الأبار التحفة رقم 100 وكذلك ابن شاكر ، فوات الوفيات 2/168 .

6 ـ **أبو بكر محمد الأندي** : « قرأ معي على الشلوبيني إمام نحاة المغرب . تركته وقد رجع من أشبيلية الى بلده[1] » .

7 ـ **أبو العباس أحمد بن بلال** : « لقيته بالجزيرة ـ من توابع أشبيلية ـ فلقيت خير من يلقى مع تصرف في الأدب ومعرفة بالشعر وقول له ، وتركته هناك . . [2] » .

هذا بالاضافة الى ابن سهل ومن ذكرت من أساتذته ومن مر ذكره أثناء الحديث من قبل .

ابن سعيد في جولاته الأخيرة بالأندلس :

أشرت الى أن ابن سعيد ووالده قررا مغادرة الأندلس بعد تدهور الحالة حوالي سنة 633 . ويبدو أنهما غادرا أشبيلية نهائياً في أوائل تلك السنة متجهين نحو الجنوب الشرقي في المنطقة الواقعة بين مرسية ومالقة ، لُجمع ما فاتهما من مادة الكتاب « المغرب » والظاهر أن النية كانت متجهة للمرور بتونس ثم الرحيل الى المشرق وأداء فريضة الحج . وقد حاولا الإستفادة من مرورهما بكل مدينة واقعة في طريقهما .

ففي قرمونة التقى ابن سعيد بشاعرها ابن البلارج القرموني [3] وفي مالقة أقاما مدة [4] حيث التقى ابن سعيْد بقاضيها أبي عبد الله ابن عسكر الذي كان «متبحراً في العلوم[5]» وبشاعرها أبي النعيم رضوان بن خالد الذي كان « من شعراء العصر المشهورين[6]» وبزجالها أبي علي الحسن الدباغ « وهو إمام في الهجو على طريقة الزجل . . [7]» ويصف ابن سعيد

---

(1) المغرب 1/338 ، انظر ترجمته في القدح أيضاً 168 .
(2) المغرب 1/326 ، انظر ترجمته في القدح أيضاً 86 .
(3) المغرب 1/300 .
(4) المصدر السابق 1/423 .
(5) المصدر السابق 1/431 ، القدح 130 .
(6) المصدر السابق 1/437 .
(7) المصدر السابق 1/438 .

فترة وجوده في مدينة مالقة بأنها الوقت الذي كانت فيه « نية الرحلة المشرقية والزورة النبوية قد ثارت حينئذ في خاطري وملكت باطني وظاهري » . وقد أودعه القاضي ابن عسكر السابق الذكر أبياتاً لإنشادها في الروضة النبوية[1] مما يدل على أن ابن سعيد كان على أهبة الرحيل بالفعل . وآخر ما نصادف ابن سعيد في الأندلس عام 636 عندما كان ماراً بمرسية مع أبيه حيث اجتمعا بواليها العلامة عزيز بن خطاب وبالوزير الأندلسي الغرناطي المتغرب سهل بن مالك . وأرجح أن يكون مرورهما بالمدينة في شهر محرم وهو الوقت الذي بويع فيه الأمير ابن خطاب . وقبل شهر رمضان من ذلك العام وصل ابن سعيد برفقة أبيه الى تونس[2] .

2 ـ حياته في الغربة

إقامته في تونس :

كان من الطبيعي أن يختار ابن سعيد ووالده تونس ملجأ أول لهما بعد مغادرتهما الأندلس . فقد كانت تونس عندئذ في ظل الإمارة الحفصية التي استطاعت أن تظهر نفسها بمظهر الإمارة القوية المستقرة ، المشجعة للعلم وقد وردت الإشارة الى أن أغلب رجال العلم الأندلسيين اتجهوا نحو تونس بعد النكبة . فكان اجتماع ذلك العدد الضخم من رجال العلم بها سبباً هاماً لجذب ابن سعيد ووالده نحوها . أضف الى ذلك أن أحد بني سعيد وهو أبو عبد الله بن الحسين ، كان قائداً بارزاً في الدولة الناشئة .

وتدل فترة إقامتهما في تونس على أنهما أجلا حجهما ورحلتهما المشرقية . فقد بقيا فيها حوالي عامين ودخلا في خدمة أميرها الحفصي أبي زكريا (ـ 647)[3] وهو أول أمير حفصي يستقل بتونس عن الدولة

(1) القدح 130 .
(2) المصدر السابق 146 .
(3) النفح 3/44 ـ 45 .

الموحدية ويكون فيها دولة مستقلة ولا يمكن تحديد سبب بقائهما في تونس على وجه الدقة طوال هذه المدة : أهو من أجل الكسب والإعداد المالي للرحلة ؟ أم هو من أجل جمع مواد المغرب ؟ أم للإثنين معاً ؟ والذي يزيد الأمر غموضاً أنهما غادرا تونس مضطرين بعد أن أدت الوشايات الى تأخيرهما عن أعمالهما وبعد أن خشيا أن تؤدي تلك الوشايات الى ما هو أدهى من التأخير[1] .

وخلال هذه الفترة تولى ابن سعيد قراءة المظالم لأبي زكريا الحفصي بفضل وساطة ابن عمه أبي عبد الله بن الحسين بن سعيد ، قائد الأمير . ولكن ابن عمه هذا ما لبث أن انقلب عليه ، وأخذ يسعى ضده حتى نجح في تأخيره عن قراءة المظالم . وقد نظم ابن سعيد فيه كثيراً من القصائد يمدحه ويعاتبه ويستعطفه[2] رجاء أن يميل إليه ويعود الى مساعدته ، إلا أنه ـ على ما يظهر ـ لم ينجح في إعادته الى سابق سيرته .

ويبدو أن السبب في انقلاب أبي عبد الله بن الحسين ضد ابن عمه ، ابن سعيد ، هو تقرب الأخير من أحد منافسيه ـ وهو الوزير ابن جامع ـ الذي أخذ يتوسط لابن سعيد عند الأمير أبي زكريا ويرفع له أمداحه . ورغم أن ابن سعيد يقول أن الصحبة كانت وثيقة بين ابن عمه والوزير ابن جامع ، فإن النص التالي يوحي وكأن السبب في انقلاب ابن عمه ضده راجع الى تقربه من الوزير ابن جامع : « وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور أن ملك أفريقية استوزر أبا العلاء ادريس بن علي بن جامع فاشتمل علي ، وأولاني من البر ما قيدني وأمال قلبي إليه ، مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصحبة ، فلم يزل ينهض بي ، ويرفع أمداحي للملك ويوصل إليه رسائلي منبهاً على ذلك ، مرشحاً ، الى أن قبض الملك على كاتب عسكره، وكان يقرأ بين يديه المظالم، فاحتيج الى من يخلفه في ذلك فنبه الوزير علي ـ مع أني كنت من كتاب الملك ـ فقلدني قراءة المظالم

---

(1) المصدر السابق 3/44 .

(2) المصدر السابق 3/41 ـ 44 .

المذكورة ، وسفر لي الوزير عنده في دار الكاتب المؤخر ، فأنعم بها ، فوجد الوشاة مكاناً متسعاً للقول ، فقالوا وزوروا من الأقاويل المختلفة ما مال بها حيث مالوا ، وظهر منه مخايل التغيير ، فجعلت أداريه وأستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير ، الى أن سعى في تأخير والدي . . ثم سعى في تأخيري عن الكتابة وقراءة المظالم . . [1] » .

وبعد هذا التأخير بقي ابن سعيد في ظل الوزير ابن جامع يكتب له ويتولى جميع أموره ، وأولاه الوزير من العناية ما عوض عليه جفاء ابن عمه[2] . غير أن سعي ابن عمه ضده لم يتوقف مما أثار هواجس ابن سعيد وخشي أن ينجح في مساعيه ولا يتمكن الوزير ابن جامع من حمايته . وهنا رأى أنه من الأفضل ترك تونس تجنباً لما قد يجره عداء ابن عمه ضده من ويلات . وأخذ يلح على ابن جامع في أن يسمح له بذلك وأن يرفع رغبته للملك في الرحيل الى المشرق برسم الحج . ولكن ابن جامع لامه على تخوفه وقلة ثقته به وألح عليه بالبقاء ولم تؤد أمداحه ومعاتباته واستعطافه الى إقناع الوزير بتركه يرحل[3] .

وظل ابن سعيد مع ابن جامع فترة قصيرة في توجس وحذر . وما لبث أن توفي ابن جامع[4] . فلم يبق لديه عندئذ نصير في تونس وكان طبيعياً أن يفكر هو ووالده في الرحيل عنها .

وفي هذه الإقامة التونسية الأولى جمع ابن سعيد كثيراً من المواد العلمية التي استفاد منها في تصنيف كتابه الهام « القدح المعلى » وبلغ نشاطه العلمي ذروته خلال هذه الفترة باجتماعه الى ابن الأبار[5] الذي يعتبر

(1) النفح 3/44 ـ 45 .
(2) المصدر السابق 45 .
(3) المصدر السابق 3/45 ـ 47 .
(4) المصدر السابق 3/47 .
(5) هو محمد بن عبد الله القضاعي بن الأبار . انظر ترجمته في المغرب 2/309 ، القدح 191 ، عنوان الدراية 183 ، فوات الوفيات 2/226 ، النفح 4/282 .

من كبار مصنفي القرن السابع الهجري في المغرب .

وتعود أهمية اجتماعه بابن الأبار في تونس الى أنهما لم يلتقيا في الأندلس قط ، فقد كان ابن سعيد في الغرب بأشبيلية وكان ابن الأبار في الشرق ببلنسية ولا توجد إشارة الى أن ابن سعيد وصل في جولاته الأندلسية الأخيرة الى بلنسية فقد بدأ جولاته تلك بعد سنة 631 وكانت بلنسية عندئذ تتعرض للغزو الأراغوني كما أن ابن سعيد نفسه يذكر بأنه لم يجتمع به « إلا في هذه الحضرة العلية[1] » ، ويقصد مدينة تونس .

ويتحدث ابن سعيد عن اجتماعاته بزميله ابن الأبار فيقول : « ولي معه مجالسات آنق من خلق الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب » ، ويذكر أنه فارقه وقد « بقيت من فوائده في النفس بقية[2] » ، ونرى أن ابن سعيد يعتمد على ابن الأبار في بعض الروايات الهامة في «المغرب[3]»، ويوردها باعتبارها روايات شفوية لا نقولاً من كتب مما يدل على أنه استقاها منه مباشرة أثناء تلك الجلسات التي نرى أنها كانت تتحول أحياناً الى مساجلات شعرية يتبارى فيها الإثنان في وصف منظر معين[4] .

ومن أخبار ابن سعيد ذات الطابع العلمي في هذه الفترة أن الأمير أبا زكريا الحفصي شك في ديانة اثنين من علماء الأندلس المقيمين بتونس وهما ابن الصفار القرطبي وعبد الواحد الواعظ الأعمى الأشبيلي إذ شاع عنهما الخبر بـ« فساد النيات » و« ذم المحسن والمسيء من الأحياء والأموات » و« الكفر والإلحاد » ، وحدث أن قتل مجهول الواعظ الأعمى بسبب تلك الإشاعات فأوكلت الى ابن سعيد مهمة التحقيق في « المسودات والبطائن » التي وجدت في بيته . ويشير ابن سعيد أنه تصفحها ونقل منها بعض الأشعار والمجاوبات ـ وإن كانت ـ على حد تعبيره ـ ما يقضي بالبعد

---

(1) القدح 191 .

(2) المصدر السابق 191 .

(3) المغرب 2/316 ، 363 .

(4) النفح 3/55 .

« من المخلوق والخالق[1] » .

ومن الصداقات العلمية والشخصية المثمرة التي كونها ابن سعيد خلال هذه الفترة صداقته مع الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن إبراهيم الغساني[2] الذي كان يتولى الكتابة للأمير أبي زكريا الحفصي والذي وصفه ابن سعيد نفسه بأنه « لسان الدولة العلية وكاتب سرها ، والمعول عليه في نظمها ونثرها . . . » .

وقد كانت لهما جلسات شعرية عديدة في تونس[3] كما أن المراسلات بينهما ظلت مستمرة ـ شعراً ونثراً ـ أثناء غياب ابن سعيد في المشرق[4] . وتدل تلك المراسلات على قوة العلاقة بين الأديبين .

***

وخرج ابن سعيد ووالده من تونس سنة 639 في جو ترقب وحذر قاصدين مصر ، وذلك بعد وفاة الوزير ابن جامع ، كما تقدم .

رحلته الأولى :

وصل ابن سعيد ووالده الى الاسكندرية سنة 639 [5] وكان سلطان مصر عندئذ الصالح الايوبي (637 ـ 647) . وفي الاسكندرية ترك ابن سعيد والده الذي كان على ما يبدو قد أنهك من طول السفر ، ورحل الى القاهرة ، مركز الحركة الثقافية الناشطة عندئذ ودار السلطة ، إلا أنه اضطر الى العودة الى الاسكندرية بسبب اشتداد المرض على أبيه فمرضه حتى توفي في شوال سنة 640 [6] وعاد الإبن أدراجه الى القاهرة حيث كان له

---

(1) القدح 203 ـ 205 ، 210 .
(2) انظر ترجمته في القدح 12 ـ 19 .
(3) المقتطف ، ورقة 54 ، 56 ، وكذلك النفح 3/57 ـ 58 .
(4) القدح 5 ، 19 .
(5) النفح 3/93 .
(6) المغرب 2/172 .

مطارحات ولقاءات مع كثير من شعرائها البارزين عندئذ .

وفي القاهرة أجل ابن سعيد حجه مرة ثانية وبقي هناك حتى سنة 643 حيث جاء ابن العديم الى مصر مندوباً عن ملك حلب الأيوبي الناصر .

وكانت فترة السنوات الثلاث التي أمضاها ابن سعيد في مصر فترة حاسمة في حياته فقد فقد والده ، موجهه وناصحه ، في ديار الغربة وهو ما زال ابن تسع وعشرين سنة . . ثم أنه واجه ولأول مرة في حياته مجتمعاً مشرقياً تختلف بعض تقاليده وبعض طبائع أهله عن تقاليد المغاربة وطبائعهم . وهي ناحية تنبه لها ابن سعيد وسجلها فيما بعد[1] .

ويبدو أنه استطاع أن يدخل مجتمع مصر الأدبي وأن يكوّن صداقات وثيقة مع شعرائها وأعيانها وعلمائها بالرغم من شعوره بالغربة الشديدة وخيبة أمله التي انعكست في شعره عندئذ[2] فقد التقى هناك بأبي الحسين الجزار وابن أبي الأصبع وسيف الدين بن سابق وايدمر التركي والبهاء زهير وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وكانت له معهم جلسات زالت عنها الكلفة ومساجلات في الغزل والوصف[3] .

وخلال هذه الإقامة القاهرية تمكن ابن سعيد من إعداد مادة الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب كما أن فترة إقامته هذه حفلت بشتى أنواع الإنفعالات مما أكسب شعره شيئاً من حرارة الشعور الصادق : فهو يتذكر أشبيليه الجميلة التي لا تشبهها مدينة هنا ويتشوق ، وهو يتعجب من طباع الناس ، وهو يتألم من نفور الناس منه وهو يأسى لقيام الحواجز بينه وبين أداء فريضة الحج[4] .

---

(1) النفح 3/106 .
(2) المصدر السابق 3/48 .
(3) المصدر السابق 3/39 .
(4) النفح 3/78 ـ 81 .

وعندما جاء ابن العديم الحلبي[1] الى مصر . استطاع ابن سعيد ـ كعادته ـ أن يكون معه صداقة أدبية قوية . ومما لا شك فيه أن ابن العديم ذكر له أخبار الملك الناصر ومدى حبه للعلم وتشجيعه للعلماء ورغّبه في صحبته إلى حلب . فوجد ابن سعيد في ذلك ما شجعه على القيام برحلته الجديدة هذه حيث حل ضيفاً في بلاط الملك الناصر سلطان حلب (634 ـ 659) ويبدو أنه في طريقه من القاهرة إلى حلب مر بمدينة بيت المقدس حيث التقى ببعض بلديه من الاندلسيين الذين كانوا في رحلة حجهم[2] كما مر بمدينة الخليل حيث اجتمع الى أحد نقباء الطالبيين[3] .

وما لبث ابن سعيد أن تعرف الى الناصر وأصبح من مجالسيه الذين يتحدث إليهم في خلواته العلمية والشعرية ويداعبهم ويتبادل معهم النوادر[4] . . بل أن الناصر أولى موضوع تصنيفه « للمغرب » و « المشرق » اهتماماً خاصاً وأشار عليه بالإضافة إلى ذلك بعمل مؤلف موجز شامل هو « المقتطف من أزاهر الطرف » وفتح أمامه خزائنه العلمية الخاصة ووعده بمساعدته في الإطلاع على خزائن الموصل وبغداد[5] و « تبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف »[6] .

وقد أرتاح ابن سعيد الى سلطان حلب ومدحه بقصائد كان يعتبرها من أجود شعره منها القصيدة التي يقول فيها :

مليك ترى في وجهه آية الرضا
وتقرأ من أمداحه سورة الحمد[7]

---

(1) هو كمال الدين عمر بن أبي جراد ، المشهور بابن العديم أديب فقه قاض محدث (588 ـ 660 هـ) راجع ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ح 16 ص 5 ـ 57 .

(2) القدح 213 ، المغرب 1/109 .

(3) رحلة التجاني 308 ـ 309 .

(4) النفح 3/39 .

(5) المصدر السابق 3/39 ـ 40 .

(6) المصدر السابق 3/40 .

(7) المغرب 2/174 .

والقصيدة التي مطلعها :

جـــد لي بمــا ألقى الخيــال من الكـرى
لا بــد لـلضـيـف الـمـلم مـن الـقــرى

والتي يقول فيها :

من معشــر خبــروا الــزمــان ريــاســة
وسيــاســة حلوا الــذرى حــمــر الــذرا

وفي حلب تفاعل ابن سعيد مع الجو الثقافي الـذي كانت تحـركه شخصيات علمية وشعرية كإبن العديم والشهـاب التلعفري وعـون الدين العجمي والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلي والشرف بن سليمان الأربلي وآخرين من بني الصاحب من أبناء كمال الدين بن العديم[1] .

ومن حلب إلى دمشق ، وزيارة دمشق كانت حلماً من أحلامه منذ أن كان يلتقي بالرحالين الأندلسيين العائدين من المشرق فيصفون له جمـال المدينة وروعتها[2] . وهناك التقى بسلطانها توران شاه المعظم و « حضر مجلس خلوتـه »[3] ، والتقى بمن فيها من أهـل الأدب والعلم ونظم في منتزهاتها وملاعبها قصائد جميلة . ويجب أن تكون زيارته لدمشق بين سنتي 647 ـ 648 لأن توران شاه ، الذي رثـاه ابن سعيد ، قتل في تلك السنة الأخيرة .

ويظهر أن ابن سعيد انتهز فرصة انتقاله من حلب إلى دمشق فزار في طريقه كلّا من حمص وحماه بحثـاً عن الخزائن العلميـة ومن أجل خلق صداقات جديدة ورؤية أجواء جديدة فهو يذكر أنه التقى بالملك الصالح نور الدين صاحب حمص الذي اقترح عليه أن يكتب له بعض الأبيـات على تفاحة عنبر أراد الصالح إهداءها لابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب

---

(1) النفح 3/40 .
(2) القدح 181 .
(3) النفح 3/40 .

ملك الديار المصرية[1] . وهذا يؤكد أن رحلته إلى دمشق بدأت في سنة 647 إذ أن الصالح نجم الدين أيوب كان قد توفي في تلك السنة .

وفي حماه كانت له على العاصي جلسات سمر أوحت إليه بهذه الأبيات اللطيفة :

حمى الله من شطي حماة مناظرا
وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
يلومون أن أعصي التصون والنهى
بها وأطيع الكأس واللهو والوصفا
إذا كان فيها النهر عاص فكيف لا
أحاكيه عصياناً وأشربها صرفا[2]

ومن دمشق اتجه ابن سعيد إلى العراق . وكان ذلك « في عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة[3] .

ولا ندري لماذا لم يطل المقام بإبن سعيد في المدينة التي أحب . فهو لا يكاد ينهي فيها سنة واحدة . . . ربما كان ذلك بسبب شعوره بجو الفتنة القريب الذي أودى بحياة توران شاه في تلك السنة ذاتها .

ومن دمشق توجه إلى الموصل ماراً بتلعفر وسنجار من نواحي الجزيرة مسجلاً لبعض الفوائد الإخبارية والأدبية[4]. وفي الموصل بقي مدة قصيرة والتقى بعدد من شخصياتها الأدبية وسجل ما أراد من أشعار وأخبار . وفي طريقه إلى بغداد مر بالحلة[5] حيث جمع مادة ترجمته لشاعرها سحيم الحلي .

وفي ذلك الوقت كانت بغداد تشهد آخر خليفة عباسي هو الخليفة

---

(1) المصدر السابق 3/55 .
(2) النفح 3/92 .
(3) المصدر السابق 3/40 .
(4) الغصون 59 .
(5) المصدر السابق 7 .

المستعصم بالله الذي سيقتله هولاكو سنة 656 .

ويحدثنا ابن دافع السلامي أحد الذين أقاموا ببغداد وأرّخوا لها ولعلمائها (774) ان ابن سعيد « دخل بغداد هو والناصر داود الى الخليفة أبي أحمد المستعصم[1] والنصر داود هو احد سلاطين الايوبيين بالشام . ضاع ملكه من يده فالتجأ إلى الناصر صاحب حلب سنة 647 ، ثم أرسل ثروته أمانة لدى الخليفة المستعصم وحاول دخول بغداد عندما ضاقت به أرض الشام[2] . وكان الناصر داود هذا ميالاً إلى الأدب والشعر[3] فلا غرابة في أن يصاحب ابن سعيد صديق الأيوبيين ومادحهم أثناء وجودهما في بغداد . غير أنه من المستبعد أن يكون الناصر قد رافق ابن سعيد طوال رحلته من الشام إلى بغداد عبر الموصل إذ لا يمكن أن يتفق رحالة متمهل يبحث عن الأخبار والمصادر مع لاجيء مطارد يجد في البحث عن مأوى .

ولا نعلم إلى أي مدى توطدت العلاقة بين ابن سعيد والمستعصم ، وأيّاً كان الأمر فإن ظروف المستعصم السياسية لم تكن تسمح له عندئذ بالتفرغ لرحالة مغربي . إلا أن ابن سعيد يخبرنا أنه وطد علاقته بصاحب أعمال الخليفة المستعصم فخر الدين بن قاضي القضاة الدامغاني[4]. كما تعرف إلى زعيم آخر من زعماء دولة بغداد يقال له محي الدين فخرج معه إلى النزهة وطارحه الشعر[5] .

ومن رجال الشعر الذين اجتمع بهم في بغداد النجم بن شجير البغدادي الذي أنشده من شعره كثيراً ودعاه إلى زيارة قطربل على الشاطىء الغربي من دجلة حيث أقيمت جلسة خمرية أدبية سجل ابن سعيد بعض وقائعها[6] .

---

(1) ابن رافع تاريخ علماء بغداد ص 145 .

(2) انظر مادة « الناصر داود » في الموسوعة الإسلامية

(3) النفح 3/164 .

(4) المقتطف ورقة 55 .

(5) القدح 9 .

(6) المقتطف 53 ـ 54 .

ومن بغداد انحدر ابن سعيد مع فخر الدين الدامغاني « إلى البصرة في دجلة ، ورحلتي معه تحتمل سفراً ، زبدتها في هذا المكان أنّا لما وصلنا إلى البصرة حللنا بين نهر الأبلة ونهر معقل وضرب المصاحب (الدامغاني) هناك خيمة وفيها ماء يرتفع ويدور كالأهلة برسم الجلوس للناس . وجاءه الوافدون من المسلمين والنصاري والمجوس والصابيه فسنح لي القول فأنشدته . . . » واورد بضعة أبيات[1] .

ومن المدن الفارسية التي مر بها ابن سعيد في رحلته الأولى هذه[2] مدينة أرجان[3] وبعد ذلك لا نلتقي بابن سعيد إلا في الديار الحجازية حاجاً . وهكذا تمكن من الوصول إلى مكة بعد حوالي خمسة عشر عاماً من مغادرته الأندلس قضاها في التعرف على أبرز رجالات المشرق في دنيا العلم والأدب والسياسة وفي زيارة أهم مراكزه الثقافية وفي الإطلاع على عدد كبير من المصادر والكتب المشرقية .

ويظهر أن ابن سعيد أدى فريضة حجه سنة 651 . يستنتج ذلك من قوله : سألت أهل البحرين في سنة احدى وخمسين وستمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين . . . »[4] إذ يبدو أنه ذهب لزيارة الحضرة النبوية في المدينة بعد أن حج في مكة . وهذا النص يدل على أن ابن سعيد اغتنم فرصة حجه أيضاً لتقييد الفوائد العلمية .

وطبيعي أن يشتاق ابن سعيد إلى المغرب بعد هذه الغيبة الطويلة ، الشائقة ، الغنية . إلاّ أنه لا بد أن يمر مودعاً صاحب نعمته الملك الناصر صاحب حلب الذي كان له نعم النصير في تلك الغيبة . ويعز على الناصر أن يفارقه ابن سعيد فيخسر بلاطه علماً ـ جاء من بلاد الأندلس البعيدة . فلا

---

(1) المصدر السابق 55 .

(2) النفح 3/40 .

(3) ورد عنها في معجم البلدان « عامة العجم يسمونها أرغان . . مدينة كبيرة . . . بينها وبين البحر مرحلة ، وبينها وبين شيراز ستون فرسخاً ، وبينها وبين سوق الأهواز فرسخاً ، راجع معجم البلدان لياقوت ، ح 1 ص 142 ـ 144 .

(4) القلقشندي قلائد الجمان ص 120 .

« يفتح له في السفر باباً . . إلى أن حضر عنده وأنشده أبياتاً منها هذا البيت :

قضيت خير العمر في أرضكم
فمتعوا أهلي بما قد بقي

فارتاح وظهر منه الحنان ، وقال لوزير ابن يغمور : « صدق يسرح بما يكفيه من الإحسان فأخذ في السفر وجرى مع القدر »[1] الذي أوصله إلى ساحل مدينة أقليبية بتونس في سنة 652[2] .

عودته إلى تونس :

وعندما وصل ابن سعيد إلى تونس بعد طول غيبة كان الترحيب به من أصدقائه القدامى حاراً وحاثاً على الإفادة . فهذا أبو العباس اللياني يرحب به :

يا زائراً خير بيت   ديانه . . ورياضه
أفض أزاهر علم   تجلو علينا رياضه
قد تم حجك لكن   بقي طواف الإفاضه[3]

وفي ذلك الوقت كانت الإمارة الحفصية قد توطدت وازدهرت وتولى حكمها ـ بعد أبيه ـ أبو عبد الله المستنصر الذي ذاع صيته في حقلي السياسة والعلم بالنظر لاتساع نفوذه وتشجيعه للعلم والعلماء .

واتصل ابن سعيد بالمستنصر ونال عنه درجة رفيعة[4] .

ومما لا شك فيه أن سنوات إقامته بتونس كان بالنسبة له فترة إستراحة ومراجعة للمادة المجمعة . . . وتهذيب لها وتعريب . . ففي هذه الفترة صنف كتاب « الغصون » وربما كتاب جامع طبقات الشعراء كله[5] الذي

(1) القدح 8 .
(2) النفح 3/40 .
(3) القدح 9 .

(1) النفح 3/40 .
(2) انظر فصل « علمه ومصنفاته » .

ترجم فيه الكثير من شعراء المشرق المعاصرين الذين يود المغاربة الإلمام بأخبارهم وأشعارهم .

رحلته الثانية :

لا تسهب المصادر التي بين أيدينا في ذكر هذه الرحلة الثانية . ولكن لدينا من الإشارات ما يكفي لتأكيدها . فالمقري ينقل عن كتاب ابن سعيد « عدة المتنجز وعقله المتوفز » . أنه ارتحل من تونس إلى المشرق هذه المرة سنة 666 هـ ويروي عنه أخباراً شائقة من حصيلة الرحلة الثانية[1] . . . ودلالة اخرى على حصول هذه الرحلة تأتي من المصنفين المشارقة الذين توهموا أنه توفي في أثنائها مما يدل على تأكدهم من وجوده في المشرق في تلك الفترة[2] .

ولا تشير المصادر إلى أنه أوغل إلى خراسان في رحلته الأولى . إلا أن كتاب القدح وهو كتاب ألف في فترة متأخرة (فهو يذكر وفيات سنة 681)[3] يذكر لنا هذه الحكاية : « وكان بخراسان مسايراً لبعض ملوكها ، فلقيهم مملوك وسيم من الأتراك[4] . . . » ثم ذكر بيتين بعد إكمال الخبر وهذا يدل على أن هذه الزورة الخراسانية كانت جزءاً من الرحلة الثانية بل كانت أحد أسبابها الهامة . إذ يبدو أن ابن سعيد أراد أن يكمل برنامج مشاهداته لبلدان الشرق الإسلامي واطلاعه على المصادر العربية بفارس . . . على عادته في كل عمل يقوم به إذ أنه لا يقنع إلّا بنتيجة وافية متكاملة لكل ما يقوم به من أعمال .

والظاهر أن ابن سعيد بعد إقامة في تونس استغرقت أربعة عشر عاماً (652 ـ 666) قد شعر بنوع من الرقابة التي لم يعتد عليها وهو الذي قضى

---

(1) النفح 3/130 .

(2) فوات الوفيات 2/212 .

(3) القدح 117 .

(4) المصدر السابق 9 .

صباه سائحاً بين الأندلس والمغرب وقضى شبابه وجزءاً من كهولته جائلاً في تونس ومصر والشام والعراق والحجاز .

ولربما بقيت في نفسه أمور منذ الرحلة الأولى لم يستطع إليها من سبيل في ذلك الوقت من اطلاع على بعض المصادر ومشاهدة لبعض المدن والأقطار خاصة وإن الفتن كانت مستعرة عندئذ بين الأيوبيين في الشام وبقايا العباسيين وأمرائهم في بغداد . . . بينما كان الزحف المغولي يكتسح كل قوة في طريقه . . وهو أمر قد يكون من ضمن الأسباب الهامة التي عجلت برحيل ابن سعيد إلى تونس سنة 652 رغم إلحاح أصدقائه المشارقة .

وخلال هذه الفترة حدثت أحداث خطيرة في المشرق . فقد اكتسح هولاكو بغداد سنة 656 ووقعت معركة عين جالوت التي انهزم فيها المغول لأول مرة سنة 658 . . واختفت دولة الأيوبيين خلال ذلك لتحل محلها دولة المماليك .

ولقد خلف ابن سعيد وراءه في المشرق أصدقاء أعزاء لم يعد يسمع عنهم شيئاً . . . ويود لو عرف مصيرهم أو لقيهم مرة أخرى . .

وهكذا وجد المصنف النشيط المحب للحركة والاستطلاع وجد نفسه مدفوعاً للقيام برحلة مشرقية أخرى ترضي في نفسه كل هذه الدوافع .

« ولما دخل الاسكندرية لم يكن عنده أكثر من السؤال عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الأمان . . . وارتكب في حلب التتر والمرتدون ما تصم عنه الأسماع ، وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البر ابن العديم . . »[1] .

فلقد قتل كثيرون من الأصدقاء القدامى . . ولكنها كانت شيمة العصر . . وما كان لهذه الفاجعة أن تكون أمراً مفاجئاً غريباً بالنسبة لأبي الحسن الذي تعودها منذ صباه في وطنه الأندلسي الفقيد . وكان لا بد

(1) النفح 3/130 .

للرحلات أن تأخذ مداها ولا بد للمصنفات أن تكتمل . وهكذا واصل ابن سعيد سيره إلى خراسان وربما جاز إلى ما بعدها . والمصادر هنا لا تسعفنا بذكر مراحل هذه الرحلة . وهناك عبارة في ترجمته بالقدح تقول : « وسار ما بين عبادان وقزوين »[1] أي أنه اخترق بلاد العجم من أقصى جنوبيها الغربي إلى أقاصي أطرافها الشمالية ، هذا إذا جاز استنتاج ذلك من تلك العبارة الغامضة . وإذا صح ذلك فإن هذه الجولة تمت في رحلته الثانية إذ تشير المصادر إلى أنه لم يتجاوز في رحلته الأولى مدينة أرجان في الجنوب الغربي من بلاد العجم كما تقدم .

ومن الأمور الجديرة بالالتفات في حياة ابن سعيد إشارة باحثين محدثين هما المستشرق هاملتون جب[2] والدكتور زكي محمد حسن[3] إلى أن ابن سعيد في رحلته الثانية طلب الإجتماع بهولاكو التتري فاتح بغداد أو أنه اجتمع به فعلاً وأن هولاكو استضافه عنده .

ومن سوء الحظ أنهما يحجمان عن ذكر مصادر هذا الخبر أو طريقة توصلهما إلى التأكد منه أو ترجيحه . وأنا لا أملك إلّا أن أتحفظ إزاء خبر كهذا : فابن سعيد في جميع كتبه التي اطلعت عليها لا يشير إلى هذا اللقاء أو مجرد التفكير فيه من قريب أو بعيد مع أنّا نراه يذكر اجتماعاته بكثير من الأمراء والملوك فإذا كان لقاءه مع هولاكو قد تم فلماذا يا ترى يغفله تماماً رغم أهميته ؟ ثم ما بال المؤرخين المغاربة كابن الخطيب وابن فرحون والمقري لا يشيرون إلى ذلك أيضاً رغم اطلاعهم على أغلب كتب ابن سعيد التي لم تصل إلينا ؟ .

ومما يزيد الشك في إمكانية حدوث هذا اللقاء هو أن قائداً حربياً كهولاكو ليس له من الميل الأدبي ما يدفعه إلى استقبال مصنف مغربي رحالة كابن سعيد . والملاحظ أنه في جميع ما وصلنا عن ابن سعيد لا نجد من

---

(1) القدح 2 .

(2) هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلام ص .

(3) انظر مقدمة المغرب (قسم مصر) ص 17 .

أخبار هولاكو غير الفقرة التالية عن مقتل الناصر الأيوبي صاحب حلب على يديه في كتابه « عدة المستنجز ، وعقلة المستوفز » وقد أوردها المقري في النفح على النحو التالي : « قال ـ أي ابن سعيد ـ أنه سار ـ أي الناصر ـ نحو هولاكو . . . فأنزله ، وأقام يشـرب معه إلى أن وصـل الخبر بـوقعة عين جالوت على التتر . . . فقتلوه وخلعوا كتفه ، وجعلوه في أحد الأعلام على عاداتهم في أكتاف الملوك[1] ومن الواضح تماماً أن هذا الخبر عن الناصر ، ولكن قراءة الخبر دون انتباه إلى الضمـائر المستترة خصـوصاً في الفعـل « سار إلى هولاكو » ودون التفات إلى بقيته قد توهـم المرء بأن الذي سار إلى هولاكو هو ابن سعيد نفسه . وأيّاً كان الأمر فإن التحفظ إزاء الخبر واجب حتى يظهر مصدر موثوق يؤكده أو ينفيه .

رجوعه الأخير إلى تونس ووفاته :

1 ـ نقل المقري عن ابن الخطيب ـ أوثق من يمكن أن يؤرخ لابن سعيد بحكم القطر والمدينة والزمن ـ أنه توفي بتونس في حدود سنة خمس وثمانين وستمئة[2] .

2 ـ وذكر ابن فرحون (ـ 800) أيضاً ـ ويبدو أنه ينقل عن ابن الخطيب ـ أنه توفي بتونس في السنة المذكورة[3] .

3 ـ وذكر المؤرخ المصري جـلال الدين السيوطي (ـ 912) ما رواه ابن فرحون وابن الخطيب[4].

4 ـ إلا أن بعض المؤرخين المشـارقة وعلى رأسهم ابن شـاكر الكتبي[5] (ـ 764) وابن تغري بردى[6] ذهبوا إلى أن ابن سعيد توفي سنة 673 .

---

(1) النفح 3/131 ـ 132 .
(2) النفح 3/41 .
(3) الديباج المذهب 208 .
(4) السيوطي ، حسن المحاضرة 1/266 .
(5) فوات الوفيات 2/212 .
(6) ابن تغري بردى المنهل الصافي ، ورقة 453 (مخطوطة دار الكتب) .

وقد حدد ابن شاكر مكان الوفاة فقال أنه دمشق وحدد ابن تغري بردى تاريخها باليوم والشهر والسنة فذكر أنه توفي يوم السبت حادي عشر شعبان ثلاث وسبعين وستمئة .

ولكن هذه الرواية تبدو ضعيفة إذا ما قورنت بالرواية الأولى من حيث قوة المصادر . كما أن هناك إشارة من مصنفات ابن سعيد نفسه قد تساعد على ترجيح الرواية الأولى . فالملاحظ أن كتاب « القدح المعلي » لابن سعيد يصل في ذكره لتاريخ الوفيات حتى سنة 681 وهو وإن كان أهدي إلى الأمير أبي زكريا ابن المستنصر قبل توليه الحكم سنة 675 فإن ذلك لا يمنع المصنف من إضافة بعض المعلومات الجديدة إليه بعد ذلك[1] . وبناء على ما تقدم ، فإن ما يمكن ترجيحه بقدر كبير من التأكيد هو أن ابن سعيد توفي بتونس سنة 685هـ[2] .

---

(1) انظر مقدمة « القدح » التي كتبها الاستاذ إبراهيم الأبياري محقق الكتاب .

(2) توصل إلى هذا الإستنتاج ذاته كل من الدكتور شوقي ضيف في مقدمة المغرب (قسم الأندلس) ص 8 ، والدكتور زكي محمد حسن في مقدمة المغرب (قسم مصر) ص م 17 ، وإبراهيم الأبياري محقق كتابي « الغصون اليانعة » و « اختصار القدح المعلى » لابن سعيد .

الفصل الثاني

شخصيته وثقافته العامة :

نزعة مغربية . . بفضول مشرقي

1 ـ شكله وهيئته

2 ـ عوامل تكوين شخصيته

- ـ بيئته العائلية وشخصية والده
- ـ بيئة أشبيلية الاجتماعية والثقافية
- ـ ثقافته العامة وعلاقتها بشخصيته
- ـ حالة الأخلاق في المجتمع عامة
- ـ كثرة إتصالاته ورحلاته

3 ـ مزاياه الشخصية وميوله

- ـ لباقته ومجاملته
- ـ تقديره لروح الدعابة
- ـ حسن ذوقه وتقديره للجمال
- ـ بين لهوه وتدينه
- ـ جلده وصبره
- ـ نزعته الأندلسية المغربية
- ـ هل من نزعة مذهبية خاصة ؟

1 ـ شكله وهيئته

لا تسعفنا المصادر بوصف هيئة أبي الحسن ومظهره الخارجي . ولكننا نستطيع أن نتصور ـ باطمئنان ـ أن هذا الفتى الغرناطي المولد ، الأشبيلي النشأة والتربية سليل الأرستقراطية الأندلسية العريقة ، منادم الأمراء ومجالس الملوك ومصادق الشعراء والعلماء أينما ذهب وحيثما حل من أشبيلية الى مراكش الى تونس الى القاهرة الى حلب الى دمشق الى بغداد ، أقول أننا نستطيع أن نتصور ـ باطمئنان ـ أنه كان بهي الطلعة مقبولاً في مظهره بل محبباً الى النفس منذ أول لقاء . . . وإلا لما كان بإمكانه أن يخلق هذا العدد الهائل من الصداقات وان يكون نجم جلسات شعراء القاهرة وأن يجالس الناصر في خلواته وأن ينادم طوران شاه وأن يخلق تلك العلاقات الوثيقة مع ابن سهل الأندلسي والتيفاشي التونسي وابن العديم الحلبي .

وما نحن بصدد الزعم هنا أن حسن المظهر وحده كفيل بفعل كل ذلك . . . ولكن الذي لا ريب فيه هو أن الذي لا يتمتع بمظهر مقبول محبب الى النفس لا يمكن أن ينفذ الى قلوب الناس بسهولة . . .

ولا نخال أن المجاملة وحدها هي التي دفعت أبا العباس التيفاشي لقول البيت التالي في ابن سعيد :

ومن محياه ـ والله الشهيد ـ إذا
يبدو الى بصري أبهى من القمر[1]

---

(1) النفح 91/3 .

وليس لنا أن نجاري أبا العباس في وصفه لصديقه بأنه « أبهى من القمر . . » حسبنا أن نخرج من ذلك أنه كان بهي الطلعة ، حسن المنظر .

وبالإضافة الى ذلك يبدو أن ابن سعيد كـان حسن الصوت مجيـداً للإلقاء ، وقد تنبه الى هذه الميزة الملك الناصر الأيوبي سلطان حلب في أول لقاء شخصي له معه ، إذ قال له مداعباً بعد أن ألقى ابن سعيد قصيدة مدحه فيها وحدثه عن جهوده في تأليف «المغرب» و«المشرق»: «أخترت لك لقباً يليق بحسنِ صوتك وإيرادك للشعر فان كنت ترضى به ، وإلا لم يعلم به أحد غيرنا ـ وهو البلبل . . . »[1] .

2 ـ عوامل تكوين شخصيته

يلعب العامل الجسماني دوراً له أثره في تكوين الشخصية . ويبدو أن ابن سعيد لم يجد فيما يختص بهذا العامل عائقاً يمنعه من الاندماج بالناس والظهور في المجتمعات بل أن الدلائل تشير الى أنه ساعده على التفاعل مع بيئاته الاجتماعية المختلفة الى مدى بعيد . إذ لا توجد أية إشارة الى أن الرجل كان يشكو من نقص يتعلق بجسمه أو هيئته . ولنا أن نتصور أن تمكنه من القيام بتلك الرحلات الطويلة المتعددة في ظروف المواصلات التقليدية الشائعة عندئذ ـ وقد قام برحلته الثانية الى المشـرق وقد قـارب الستين ـ وتأليفه لذلك العدد الكبير من المصنفات ، ومداومته على حضور مجالس اللهو والنزهات حيثما حل ، أقول لنا أن نتصور أن تمكنه من كل ذلك يشير الى أنه كان يتمتع ببنية جسمية قوية وصحة جيدة على وجه العموم .

وإذا كان للعامل الجسماني أثره الذي لا ينكر ، فإن العوامل النفسية والمنزلية والثقافية والاجتماعية لها الأثر الأعمق في صهر الشخصية وإعطائها خصائصها ومميزاتها الهامة . وجعلها ما هي عليه . وهذه في نظري أهم العوامل التي أثرت في شخصية ابن سعيد .

---

(1) النفح 3/ 40

1 ـ بيئته العائلية وشخصية والده :

انحدر ابن سعيد كما أشرت من أسرة أندلسية عريقة ذات أصل عربي معروف وذات تاريخ بارز في الحياة الإسلامية . وكان أجداده الأقربون شخصيات مرموقة في عهدي المرابطين والموحدين فمنهم الوزير ومنهم القائد ومنهم الشاعر المبرز ومنهم البحاثة المصنف[1] ومما لا شك فيه أن خصائص من تلك البذور الوراثية دخلت في تركيب شخصية صاحبنا أبي الحسن .

وفتح أبو الحسن عينيه . . . وقرأ تاريخ أسرته السياسي والعلمي ـ وكله مسجل ـ فإذا به سجل يدعو للفخر ويدفع لمواصلة العمل . . ونظر أبو الحسن الى أقرب أفراد أسرته إليه . . الى أبيه ابن موسى . . فإذا به رجل بارز من رجالات دولة الموحدين . وإذا به كاتب وبحاثة له مكانته وشأنه بين علماء الأندلس .

والواقع أننا مهما أسهبنا في شرح تأثير الأب على شخصية الإبن لا نكون مبالغين[2] فقد ظل يوجهه في كل الظروف توجيهاً رقيقاً رزيناً حقق أغراضه دون أن يؤثر على شخصية الإبن تأثيراً سلبياً . . إذ أن طول مرافقته لوالده ومصاحبته له في الحل والترحال والإستماع الى آرائه وتوجيهاته في كل ظرف لم يخلق منه شخصية ضعيفة تنتظر المساعدة والتوجيه باستمرار . . بل كان كل ذلك بالنسبة له إعداداً لتحمل مسؤولية المستقبل ، ولقد كان ابن سعيد عند حسن ظن أبيه ، فعند وفاته بالإسكندرية بقي ابن سعيد وحيداً في ديار الغربة وكانت الظروف غير مشجعة بالنسبة له ـ كما ينعكس ذلك في شعره خلال تلك الفترة ـ ولكنه لم ييأس ولم يتخل عن الرسالة العلمية التي ورثها عن أسرته واعتبرها هدفه الأكبر في الحياة وهو ما زال شاباً في التاسعة والعشرين من عمره بل واصل

---

(1) انظر القسم الخاص بالحديث عن « بني سعيد » .

(2) ومن الغريب ألاّ نجد شيئاً عن دور الأم في حياة ابن سعيد . إذ لم أعثر على أية إشارة له عن أمه .

السير وحيداً ، دون أن يدفعه فقده لوالده إلى الرجوع إلى المغرب .

ولقد خلق والده عنده هذا الإحساس بالمسؤولية منذ سن مبكـرة ، يتمثل هذا الإتجاه في إنابته عنه في ولاية الجزيرة الخضراء وهو ما زال في الحادية والعشرين من العمر ، وفي استصحـابه الى المغـرب مع مـوكب العادل وهو ابن خمس عشرة وفي السماح له بمرافقته في زياراته المتعددة لزملائه علماء الأندلس ورجالاتها البارزين وفي محادثاتهم والأخذ عنهم .

ولمس الأب في إبنه الميل الأدبي فشجعه . . وأوكل إليه مهمة علمية تاريخية ألا وهي إكمال كتاب « المغرب » الذي عمل أجداده على تصنيفه لمدة قرنين من الزمان ، والبدء في إعداد كتاب المشرق متمم الكتاب الأول ومكمله .

ومن خلال الأمثلة العملية الحية خلق الأب في نفس الإبن تقديـراً للجهد العلمي وللصبر والجلد واحترام الحقيقة. أخبـر ـ يوم تـوليه حكم الجزيرة الخضراء ـ أن أحدهم يمتلك بعض المصادر التي تهمه . . . فبعث إليه يطلبها منه فأبى . . فذهب بنفسه الى بيته ـ رغم جفوة اللقاء ـ ونقل ما أراده وشكره بأدب وانصرف . ولما تعجب ابنه من مشيه الى منـزل ذلك الرجل بنفسه قال له ـ بأسلوب يتوخى تجسيد العبرة وأعطاء القدوة ـ « إني لا أمشي له ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم أتراهم لو كانوا أحياء في موضع أنفت أن أمشي إليهم ؟ » فأجـاب الإبن « لا » . فقال الأب : « فإن الأثر ينوب عن العين » . ثم أراد أن ينبه ابنه الى أولوية العلم بالنسبة للسياسة في عصر الثورات والإضطرابات فعقب على الـزيارة قـائلاً : « ألم تعلم يـا بني أنني سررت بهـذه الفـائـدة أكثـر من الولاية[1] » .

ودخل الفتى علي على والده في يوم عيد فإذا به « في جهد عظيم من

(1) النفح 3/95 ـ 96 .

الكتب » فقـال له « يـا سيدي أفي هـذا اليوم لا تستـريـح ؟ » فنـظر الي كالمغضب وقال : « أظنك لا تفلح أبداً أترى الراحة في غير هذا ؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت أن الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي » وكان لهذه اللفتة أثرها في نفس الفتى ـ وذلك الأثر البعيد الذي وصفه لنا بقوله « فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله ، لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف الى ما تراه[1] » .

وحرص موسى ـ فوق ذلك ـ على غرس الثقة بالنفس في شخصية الإبن من خلال احترام تخصصه العلمي والتمسك به رغم كل شيء . . «ومتى دفعك الزمان الى قوم يعرفون من العلم ما تحسنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك وتزهيداً لك فيه فلا يحملك ذلك على أن تزهـد في علمك وتركن الى العلم الذي مدحوه فتكون مثـل الغراب الـخ[2] وينتهز الأب الأحداث والمناسبات ليبصر ابنه بطبائع الناس وحقائق الحياة . . .

حدث ذات يوم أن كان الأب والابن جالسين في مجلس ابن البناء الأشبيلي الذي كان يتصف بالميل الى نوع من الجد المشوب بالحقد على الناس . وسأل ابن سعيد الرجل أن ينشده شيئاً من غزله « فاعتذر وخجل وفكر ولم يأت بشيء » فلما خرجا من عنده بادره أبوه بقوله : « ما أخالك تعقل ، هذه صورة ينطبع فيها عشق أو ارتياح أو شيء من أسباب الرقة إنما اسأل منه أن ينشـدك في فتنة أو سخط أو بـلاء فطبعـه أميل الـطباع الى ذلك[3] » .

وفي أثنـاء ثـورة ابن هـود كـانت الخـواطـر ثـائـرة والنفـوس قلقة ، وكان من حسن السياسة أن يبتعد الإنسان عن كل ما يثير الريبة ويخلق الأعداء ، وحدث في تلك الفترة أن تولى الأفلح اللخمي عملاً لابن

(1) المصدر السابق 3/99 .
(2) المصدر السابق 3/123 .
(3) القدح 119 .

هود فداخله نوع من الخيلاء المثيرة للإشمئزاز وصادف الأمر في موكب له وابن سعيد وصديقه ابن سهل الاسرائيلي موجودان في المكان فقال ابن سهل : وزيرنا يا ويحنا أفلح ، فأكمل ابن سعيد : فهل ترانا معه نفلح وواصل ابن سهل : يقرأ راجيه على فيه لا ، فختم : ابن سعيد : فحاجة المسكين لا تنجح . فبلغ الهجاء الأفلح فأسرها في نفسه وقطع عطاء لابن سعيد . وعلم أبوه بالأمر فاستدعاه ووبخه بشدة قائلاً : ما أبعد الفلاح عن وجهك ما كفى بك أدخلت روحك في النميمة بهجو الأعيان ، حتى رضيت أن تكون زاملة يهودي شاعر فاشتركت معه في الصفة بالهجو وانفرد بحصول المعنى » وكان هذا الكلام كافياً لتوضيح معالم الطريق أمام الفتى الذي خجل من عمله وأقسم ألا يعود الى مثل ذلك .

ثم حضه والده على نظم قصيدة اعتذار . . ففعل وألقاها في محضر الأفلح رغم السخرية التي قوبل بها في البداية[1] ومما لا شك فيه أن هذه التجربة المبكرة القاسية كان لها أثرها في علاقات ابن سعيد بمن اتصل بهم من ذوي النفوذ والسلطان .

والى جانب الإستفادة من الوقائع العملية كان الأب يعمل على إنضاج تفكير الابن بالحكايات وضرب الأمثال . فقد كانا يوماً يتحدثان « في اختلاف مذاهب الناس وأنهما لا يسلمون لأحد في اختياره ، فقال (الأب) : متى أردت أن يسلم لك أحد في هذا التأليف ـ أعني المغرب ـ ولا يعترض أتعبت نفسك باطلاً ، وطلبت غاية لا تدرك ، وأنا أضرب لك مثلاً . . . .

ثم قص عليه حكاية الرجل الذي خرج مع ابنه الى الطريق ومعهما حمار واحد فركباه معاً ثم تناوبا ركوبه ثم مشيا معه راجلين والناس ينتقدونهما في كل حال[2] فالأب حريص ألا يهتم ابنه بالإنتقادات التي توجه

---

(1) المصدر السابق 141 .

(2) النفح 3/93 ـ 94 .

الى عمله العلمي . من ناحية ـ وهو يريد أن يبصر ابنه باختلاف نزعات الناس وأهوائهم من ناحية أخرى .

ويستمر الأب المجرب ، العليم ببواطن الأمور ، الذي شهد دولاً تنهار ودولاً تقوم ، والذي اكتشف بعد أحداث مريرة مرت بوطنه أن الإشتغال بالعلم هو أثمن الأعمال في هذه الدنيا الفانية ـ يستمر في توجيه ابنه حتى آخر يوم في حياته ـ في أثناء مرضه الأخير بالإسكندرية كتب لولده وصية[1] تكون بمثابة دستور له في غربته شملت كثيراً من النصائح الشخصية والعلمية فمن ذلك قوله :

ولا تجالس من فشا جهله
واقصد لمن يرغب في صنعتك
ولا تجادل أبداً حاسداً
فإنه أدعى الى هيبتك

وقوله محذراً إياه من التطرف في الإعتداد بالنفس :

ووف كلاً حقه ، ولتكن
تكسر عند الفخر من حدتك

ودعوته إياه لتغليب العقل على الشهوة :

ولتزن الأحوال وزناً ولا
ترجع الى ما قام في شهوتك
ولتجعل العقل محكاً وخذ
كلاً بما يظهر في نقدتك

وتذكيره له بمبادىء السلوك الهامة في الغربة متمثلاً بقول القائل :

يزين الغريب إذا ما اغترب
ثلاث فمنهن حسن الأدب

---

(1) المصدر السابق 3/116 ـ 124 .

وثـانـيـةٌ حـسـن أخـلاقـه
وثـالـثـة اجـتـنـاب الـريـب

ويعلق على ذلك بقوله :« وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة لا يلحقك . . مع استعمالها ندم . . [1] » .

وينبهه الى ضرورة الإستفادة من تجارب السابقين والنظر إليها باحترام وتقدير وعدم الإعتماد كلياً على النظر الشخصي : « وفي أمثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ، فاحتذ بأمثلة من جرب واستمع الى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال فإنها خلاصة عمرهم ، ولا تتكل على عقلك . . [2] » ويرسم له طريق التعامل مع الناس : « وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ولا تجفهم بالجملة . . ولا تقل أيضاً أقعد في بيتي . . واستريح من الناس فإن ذلك كسل داع الى الذل والمهانة » [3] .

وهكذا يتضح الأثر البعيد الذي خلفه والده في شخصيته . وهو ـ كما تبين ـ تأثير إيجابي مثمر على كافة المستويات . ويمكن القول أن حياة ابن سعيد سارت في خط الإتجاه الذي سار عليه والده في الشطر الثاني من حياته بعد أن نفض يده من العمل السياسي نهائياً وأخذ يجول في المدن الأندلسية مقابلاً العلماء مسجلاً لفوائدهم ، متعرفاً على المدن وأحوالها الجغرافية وصفات سكانها عن كثب . وهذا الشطر الثاني من حياة الأب هو الذي وعاه الابن وشارك فيه مشاركة فعالة ، ثم واصل السير فيه من بعده .

2 ـ بيئة أشبيلية الطبيعية والاجتماعية والثقافية :

وبعد البيئة المنزلية العائلية ، تأتي البيئة الاجتماعية .

ولقد قضى ابن سعيد سنوات عمره الحاسمة في أشبيلية ، التي تمت الإشارة الى جوها الطبيعي الجميل ومبانيها الأنيقة ولطف سكانها المتعددي

---

(1) المصدر السابق 3/ 118 .
(2) النفح 3/ 119 .
(3) المصدر السابق 3/ 120 .

الأجناس ومرحهم ، وخصب الحياة الثقافية فيها وكونها المركز الأكبر للعلم والسياسة ـ معاً ـ في الأندلس . ونستدل من شعر ابن سعيد ومن مذكرات رحلته التي أشار إليها إلى الفروق بين مصر والأندلس ، إن الفتى قد انفعل منذ صغره بجمال المدينة الطبيعي الخلاب وتربى ذوقه على رؤية شوارعها ومبانيها الأنيقة وتعود على العيش بين أهاليها المعروفين بتأدبهم وحسن مظهرهم ولياقتهم وظرفهم ، وكانت له مع صديقه الشاعر ابن سهل الاسرائيلي نزهات وجولات في ضواحي المدينة وبساتينها . ومن ناحية أخرى فإن وجوده مع والده في المدينة أتاح له فرصة التعرف عن كثب على طبقتها الأرستقراطية من علماء ووزراء وقواد وشعراء مما أعطاه مجالاً للتأمل في أخلاق القوم وطباعهم ومظهرهم ومسكنهم وملبسهم وحديثهم وطرق تفكيرهم .

وسنرى أن من مميزات ابن سعيد في ترجمته للشخصيات عدم الإكتفاء بذكر الحقائق التاريخية والحرص في معظم الأحيان على إعطاء انطباعه الشخصي الذي يكون عبارة عن تقويم لشخصية الرجل أو ذكر ميزة هامة تميز شخصيته . . ولعل لهذه اللقاءات المبكرة مع علية القوم في أشبيلية أثره في هذا الجانب عند ابن سعيد خاصة وإن والده كان يهتم بلفت نظره الى طبائع الناس الذين يلتقيان بهم[1] .

بالإضافة الى ذلك سيؤثر جو أشبيلية الضاحك اللاهي وجوها العلمي والإجتماعي المتسامح في شخصية ابن سعيد كل في ناحيته . وقد كان ابن سعيد يشارك في الجوين مشاركة فعالة ، هذه المشاركة التي ستكسبه سعة في الأفق وميلاً الى التسامح الديني والإجتماعي والفكري ، وما انسجامه مع ابن سهل الاسرائيلي في مجال اللهو وفي منتديات العلم معاً إلا دليل مرونته وبعده عن التعصب . وسنأتي الى ذلك تفصيلاً عند الحديث عن مزاياه الشخصية .

---

(1) القدح 119 .

3 ـ ثقافته العامة :

يؤثر نوع الثقافة في الشخصية، كما أن الشخصية بدورها توجه الثقافة وتطبعها بطابعها. والعوامل المكونة للشخصية يكون لبعضها أثر في تشكيل الثقافة وبلورتها ووضع حدودها وآفاقها. وفيما يتعلق بثقافة ابن سعيد العامة، فان البيئة الأندلسية الغنية بمقومات الثقافة ساهمت في إطلاعه على كثير من آفاق المعرفة السائدة عندئذ وشخصية والده كان لها دورها التثقيفي الضخم واتصالاته المبكرة بأعيان الأندلس والمغرب أعطته خبرة في شؤون الناس والمجتمع ما كان يمكن أن يجدها في الكتب . ثم جاءت رحلاته الكبرى وإتصالاته العديدة بشخصيات العالم الإسلامي من أمراء وعلماء وشعراء لتوسع وتعمق ثقافته الحية وخبراته المباشرة .

وثقافة ابن سعيد العامة يمكن أن يلمسها المرء في نواح عدة من آثاره وشخصيته ومنهج تفكيره . ولسنا هنا بصدد الحديث عن ثقافته بمعناها العلمي أو بما تعنيه من مجالات التخصص في فروع معينة من المعرفة فلهذا مكان آخر في الفصل الخاص بعلمه ومنهجه العلمي . والمقصود هنا النزعة العامة في مواجهة كافة الأمور علمية وغير علمية وطريقة النظر الى الأشياء وما يمتلكه المرء من « حكمة » وبعد نظر في شؤون الحياة والمجتمع . وإذا أمكن التمييز بين مجالي « التخصص العلمي » و « الثقافة العامة » فإنه لا يمكن الفصل التام القاطع بينهما فكلاهما يرفد الآخر ويتفاعل معه . وقد انعكست ثقافة ابن سعيد الخصبة الواسعة في الظواهر التالية :

أ ـ تعوده على أصول الحياة الإجتماعية الراقية حيث نشأ في بيئة راقية أصلاً ثم أخذ يتنقل بين بلاطات الأمراء في المغرب والمشرق حيث التقى بابن يغمور في مصر والناصر الأيوبي في حلب والمعظم في دمشق . ولا شك أنه ألم بأصول المعاملات وطرائق السلوك الإجتماعي الراقي في البيئة التي نشأ فيها والبيئات التي تنقل فيما بينها . وسنهتم بتفصيل هذه الناحية عند الحديث عن مزاياه الشخصية مكتفين هنا بالإشارة إليها .

ب ـ تفهمه الدقيق لطبائع الأفراد والجماعات . وهذا ينعكس بوضوح في كتاب « القدح » الذي ترجم فيه لأشخاص التقى بهم حيث تكشف تعليقاته على شخصياتهم وتصرفاتهم فهماً دقيقاً لنفسية الأفراد ، كما ينعكس في إشاراته الى طبائع المجتمعات التي تعرف إليها فتراه يتنبه الى الفروق الدقيقة بين أخلاق المغاربة والمشارقة[1] بل يستطيع التنبه الى الفارق بين أخلاق أهالي القاهرة وأخلاق أهالي الفسطاط[2] على قرب وشدة شبه بين المدينتين المتجاورتين . . وهو المغربي الوافد الذي قدم من بلاد تختلف طباع أهلها عن طباع الجماعتين .

جـ ـ إتصافه بثقافة تاريخية واسعة : وهذه الثقافة التاريخية تنعكس بوضوح في كثرة الإشارات التي ترد في شعره والتي تكون مستمدة من حوادث التاريخ العام أو تاريخ الأدب أو القصص الديني . وهذا يدل على مدى هضمه لكل ذلك حتى أصبح جزءاً من نتاجه الذاتي[3] .

د ـ تعدد فروع إهتمامه العلمي : وهذا ما يتضح في مصنفاته بين مختارات لنصوص شعرية الى تاريخ البلدان والدول والأشخاص الذين ينسب إليهم ذلك الشعر الى وصف جغرافي لتلك البلدان .

فكتابا « المغرب » و« المشرق » عبارة عن مختارات ضخمة من الشعر بالإضافة الى تراجم مختصرة للشعراء وتاريخ المدن والدول التي قامت بها ووصف جغرافي لتلك المدن . وكتاب المرقصات ـ على سبيل المثال ـ كتاب له طابع نقدي بالإضافة الى كونه مختارات شعرية ونثرية تغطي فترة حياة الأدب العربي منذ القدم حتى عصر ابن سعيد . أما كتاب « بسط الأرض » فهو كتاب جغرافي علمي دقيق[4] بكلمة أخرى إن ابن سعيد كان أديباً ومؤرخاً ومصنفاً جامعاً وجغرافياً رحالة .

---

(1) مسالك الأبصار 4 ، ورقة .

(2) النفح 3/106 .

(3) راجع الفصل الخاص بشعره .

(4) راجع الفصل الخاص بعلمه ومؤلفاته .

وعلى ضوء هذا التعدد المتباين في فروع اهتمامه العلمي وعلاقة هذا التعدد بشخصيته يبرز السؤالان التاليان :

- هل كان ابن سعيد يتأرجح في ميله الشخصي بين خط التصنيف الأدبي وما يلحق به وبين اتجاه العمل الجغرافي وما تبعه أو أنه كان ينظر للإثنين باعتبارهما وحدة متكاملة وأنه ليس ثمة تأرجح في الإختيار . ويستتبع ذلك : هل أن الأدب والجغرافيا كانا يسيران جنب الى جنب منذ البدء أم أنه مال الى أحدهما في فترة معينة من حياته واتجه الى الآخر في فترة أخرى ؟ .

- هل كان هناك - من ناحية أخرى - تصادم بين متطلبات جهده العلمي عامة وبين النواحي الأخرى في حياته الشخصية كميله الى مجالس اللهو والتنزه والإلتقاء بأصدقائه واندماجه في أجواء المرح والدعابة وما يستتبع ذلك من تخلص من مسؤوليات التقييد والتصنيف ؟

للإجابة على السؤال الأول نلاحظ ما يلي :

إن التصور الجغرافي كان أساسياً في كتاب « المغرب » وهو الكتاب الذي نذر ابن سعيد نفسه لإكماله منذ شبابه فكتاب « المغرب » قائم على تلاحم قوي بين الجغرافيا والأدب ، وكل التراجم والنصوص الشعرية ترتبط بأجواء مدنها وأوصاف تلك المدن وطباع أهلها . ولا نستطيع أن نتصور « المغرب » بدون التقسيم الجغرافي المستند إليه . كما أن التاريخ والترتيب الزمني روعيا مراعاة دقيقة إذ لا تبدأ تراجم العلماء والشعراء إلا بعد الحديث عن الإمارات والدول التي عاشوا في ظلها .

ومن هنا كان الإهتمام بالتاريخ والجغرافيا لا يسير في اتجاه مضاد للعمل الأدبي بل يغنيه ويكمله وكل جهد في حقل تسجيل الملاحظات الجغرافية أو الفوائد التاريخية يرتبط بالجهد الأكبر المبذول في ترجمة الشعراء وجمع أشعارهم .

وقد كان ابن سعيد يعي هذه العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ من ناحية وبين التصنيف الأدبي من ناحية أخرى بل أنه كان يدرك أن الأدب وحده لا

يمكن أن ينهض علماً مستقلاً بذاته وأنه يتوكأ على العلوم الأخرى فنراه يقول : « إن هذا الفن الأدبي متطفل على سواه متوشح بغيره من الفنون توشح البلابلة بالدوح من أسفله الى أعلاه ، ولذا احتجنا مع الإستضلاع من صميم فنه الى مطالعة غيره من الفنون التي مزجناه بها مزج الصهباء بالماء » . وهكذا نرى أن ابن سعيد لم يكن متأرجحاً بين الميلين لأنه جمع بينهما في انسجام متكامل . كما أنه ليس ثمة دليل على أن الميل الجغرافي أو التاريخي سيطر على فترة معينة من حياته فلقد بدأ ابن سعيد مصنفاً أدبياً بكتاب « المغرب » وانتهى مصنفاً أدبياً أيضاً بكتاب « القدح المعلى » وكتاب « المقتطف من أزاهر الطرف » . أما فيما يختص بالعلاقة بين حياته الشخصية ومجهوده العلمي عامة فالملاحظ أن الرحلة غدت متعة شخصية عند ابن سعيد ولم تكن عملاً إضطرارياً فقد كان بإمكانه البقاء في بلاط الناصر الأيوبي صاحب حلب الذي كان متمسكاً به ممانعاً في رحيله عنه[2] وقد غذت متعته الشخصية هذه جهوده العلمية كما أننا نلاحظ أن ابن سعيد في نزهاته ومجالس لهوه مع أصدقائه ـ الذين هم من العلماء أو الشعراء أو الظرفاء ـ يقيد ما يسمع منهم من أشعار وطرف أدبية . . . بل أن تلك الجلسات كانت مثاراً للأفكار والأشعار ومجالاً لاشتراكه مع زملائه في نظم القصائد المشتركة[3] . وهنا أيضاً يوجد التكامل بين الميول الشخصية والعمل العلمي ويرفد أحدهما الآخر بحيث تغنى فوائد تلك الجلسات أعمال التصنيف ويشجع الميل لإغناء التصنيف على المداومة على تلك الجلسات .

ولابن سعيد قصيدة « ذاتية » تكشف عن نظرته في هذا الأمر حيث يربط بين حياة التنقل وصفاء الأفكار والتخلي عن المسؤوليات العائلية وبين العمل العلمي وما يتطلبه من تفرغ :

---

(1) مسالك الأبصار 8/ ورقة 2/3 .

(2) القدح 8 .

(3) انظر أحاديثه عن أمثال هذه الجلسات وما نتج عنها من فوائد أدبية في القدح 73 ـ 77 والمقتطف 54 ـ 56 .

أنا شاعر أهوى التخلي دون ما
زوج لكيما تخلص الأفكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصاً
في كل حين رزقها أمتار
دعني أرح طول التغرب خاطري
حتى أعود ويستقر قرار
كم قائل : قد ضاع شرخ شبابه
ما ضيعته بطالة وعقار
إذا لم أزل في العلم أجهد دائماً
حتى تأتت هذه الأفكار[1]

فابن سعيد يربط هنا بين حياته الخاصة وجهده العلمي الذي يلتزم به التزام الناس بأزواجهم ومسؤولياتهم العائلية . وهكذا نرى التوافق تاماً بين الجانبين الشخصي والعلمي .

ومن الخير قبل أن ننهي الحديث عن ثقافة ابن سعيد أن نشير الى علاقة ثقافته بأنواع الثقافات المعروفة في عصرة : يمكن القول أن ثقافته أقرب ما تكون الى ثقافة « الكاتب » والكاتب له وظيفة مهمة في المجتمع الإسلامي لعلها من أمتع الوظائف وأكثرها خصباً ، فهو الذي يجالس الخليفة أو الوالي أو الأمير : يجالسه في أوقات خلوته وسمره ليمتعه بطرائف الشعر والحكايات وليقرأ عليه ما يشاء من كتب تهمه ، وعلى الكاتب أن يكون مستعداً للقيام بسفارات خاصة لولي الأمر عندما يستدعي الأمر ذلك . فللكاتب كما نرى صبغة سياسية وعلمية وأدبية وإدارية فهو بمثابة السكرتير الرسمي والخاص للأمير . ومنصب كهذا يتطلب من صاحبه ـ بجانب اللياقة الشخصية ـ ثقافة تاريخية وأدبية عريضة بالإضافة الى التمكن من كتابة الرسائل الرسمية والخاصة . ومما يدل على أهمية هذا المنصب أن عدداً من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي اضطلعت بأعبائه : فقد شغله

(1) النفح 3/35 ـ 36 .

رجال من أمثال عبد الحميد الكاتب وابن العميد وابن زيدون وابن خلدون وابن الخطيب .

وقد تولى ابن سعيد شيئاً مقارباً من ذلك عند الأمير أبي زكريا صاحب تونس ، وتولى الوظيفة كاملة عند وزيره ابن جامع ، كما أنه قام ببعض واجبات الكاتب عند الناصر صاحب حلب وعند توران شاه في دمشق . ولعل كتاب « المقتطف من أزاهر الطرف » نموذج مصغر لما يجب أن يكون عليه الكاتب من حسن الثقافة العامة . يكون للكاتب ـ إذا كان مبرزاً ـ تخصص يركز عليه جهده ويشتهر به . فكاتب كابن زيدون تفوق في مجال الشعر والنثر الفني لجانب قيامه بوظيفته ، وابن خلدون ركز على التاريخ وفلسفته . . وكذلك كان لابن سعيد تخصص استحوذ على أكبر قسط من اهتمامه ألا وهو الروايات الأدبية والتصنيف في حقل الترجمة للشعراء والعلماء حسب أصول معينة .

وعلى العموم فإن ثقافة ابن سعيد الواسعة في آفاقها ، المتعددة في نوعيتها ، التي تلاقت فيها حرارة التجربة الشخصية مع مطالعات واسعة في كتب الأدب والتاريخ والجغرافيا كان لها أثرها الكبير في خلق اتزان في شخصيته وفي إخفاء مسحة من التسامح والموضوعية عنده تجاه شخصيات الآخرين وتصرفاتهم وأفكارهم . وسنأتي لتفصيل ذلك عند الحديث عن ميزاته الشخصية مكتفين هنا بالإشارة الى ثقافته العامة باعتبارها عاملاً هاماً من عوامل تكوين شخصيته .

كما ألمحنا سابقاً ، لم يكن عصر ابن سعيد بالعصر الذي يشجع على انتهاج مبدأ الصراحة في القول والعمل ولا اتباع منهج الثقة التامة بالأصدقاء والمخدومين . وقد لقنه حادث هجائه للوزير الأفلح درساً قاسياً . . كما علمته معاصرته لفتن الأندلس في عهدها الأخير الكثير من الصبر . . فكان لكل ذلك أثر بين على شخصيته سنعمل على استجلائه عند الحديث عن مزاياه الشخصية .

5 ـ كثرة اتصالاته ورحلاته :

جال ابن سعيد كثيراً . . واتصل بالكثيرين .

جال بلداناً تختلف في مظاهرها الطبيعية والعمرانية وشهد شعوباً تختلف في طبائعها . . واتصل بأشخاص تتنوع طباعهم وتتعدد تنوع ملامحهم وتعدد أسمائهم .

كل ذلك له أثره البعيد الخطير . . وعلى الأخص بالنسبة لشخص ذكي دقيق الملاحظة كابن سعيد . . .

فلقد زار مراكش المحافظة وهو في الخامسة عشرة بعد فترة خصبة قضاها في المجتمع الأشبيلي المنفتح ، ولقد جال معظم مدن الأندلس قبل ذلك وبعده ، ثم جاء الى تونس وهو في السادسة والعشرين ورحل الى مصر وهو في التاسعة والعشرين . . .

والرحلة في بيئات متباينة تدفع المرء الى التأمل والمقارنة وبالتالي الى استخراج العظة والعبرة التي يؤدي التوصل إليها بهذا الطريق العلمي الحي الى تحقيق نضج عقلي وسعة إدراك وفهم متزن لكثير من مظاهر المجتمع وطبائع الناس .

وهذا القول ينطبق على ابن سعيد الى حد بعيد فقد انعكس تأثره بهذا العامل على نفسيته ومؤلفاته بشكل واضح .

3 ـ مزاياه الشخصية

تفاعلت تلك العوامل المتعددة في نفسية أبي الحسن . . فأي نتاج كان ؟ .

في اعتقادنا أن الطبع الهادىء والعاطفة المتزنة والتعقل الرزين . . كل ذلك ممزوجاً بثقة في النفس ونظرة متفائلة للأمور الخيط الرئيسي في شخصية ابن سعيد وهو الذي يمكن أن يفسر كل مزاياه الشخصية الأخرى . .

لم يكن الرجل حاد الطبع جياش العاطفة ، ولم تكن لديه عقدة نقص تدفعه لاتخاذ مواقف حادة متطرفة سلباً أو إيجاباً .

« الإعتدال » . . ذلك هو جوهره النفسي .

إذ يبدو أن تركيبه في الأساس قائم على هدوء العاطفة والبعد عن الإنفعالات ثم جاءت العوامل البيئية من شخصية أب حكيم وبيئته مدينة منفتحة . . . وصداقات شخصية متسامحة . . ومطالعات طويلة متنوعة . . ورحلات واتصالات استغرقت سنين طوالاً ، لتدعم ذلك التركيب الأصلي في تكوينه المبكر ولتنتج هذه الشخصية الهادئة ، المتزنة ، البعيدة عن أي تطرف أو انفعال ، التي تغلب العقل على الشعور بسهولة ويسر .

وبجانب هذه المزية الأولى والرئيسية اتصفت شخصية ابن سعيد بمزايا أخرى تؤكد هذه المزية الكبرى وتظهر كانعكاسات جانبية لها . .

1 ـ لباقته ومجاملته :

فمن ذلك لباقته وقدرته على المجاملة : فابن سعيد لبق مجامل واللباقة « صنعة » قديمة تعلمها أبو الحسن في فترة مبكرة في مجالس أشبيلية . . وهي صنعة تتناسب مع شخصيته ولا ترهقه من أمره عسراً فهو يجامل بشكل طبيعي عفوي وهو من خلال هذه المجاملة الصادقة ـ إن كان ثمة مجاملة صادقة على وجه هذه الأرض ! ـ يكون الصداقات الحميمة بسرعة مذهلة وبأعداد ضخمة . والشخص الذي يصطنع المجاملة واللباقة لا يمكن أن يكون صداقة حقيقية واحدة . . . « وهنا نستثني نفاقه الذي لا بد منه في علاقاته الرسمية برجال السلطة[1] » .

وابن سعيد كعادته معتدل في صداقاته وفي مجاملاته التي يكون من خلالها تلك الصداقات . فهو لا يحب كثيراً لأنه لا يكره كثيراً فمن يمتلكه الحب الشديد يمتلكه الكره الشديد أيضاً .

---

(1) انظر مقدمة الرايات .

ومما لا شك فيه أن أدبه ومنزلته العلمية لهما أثر في صداقاته . ولكن الذي لا شك فيه أيضاً أن الأدب والمنزلة العلمية وحدهما لا يجذبان صديقاً واحداً .

والمرونة التي يتمتع بها ابن سعيد في معاملة الناس عامة وأصدقائه خاصة هي « أداة » ضرورية من « أدوات » عمله الكبير : الإطلاع على المصادر وأخذ الأخبار الشفوية من أصحابها . . وله في أبيه ، والي الجزيرة الخضراء الذي مشى الى بيت « أحدهم » من أجل العلم . . أسوة حسنة . ولابن سعيد في هذا المجال أخبار يرويها عن نفسه تكاد تصل به الى درجة البرود العجيب .

روى أبو الحسن : « أنشدني (أبو بكر محمد بن الأسنبتي) يوماً قصيدة قال فيها :

إذا رأيت نجوم الأفق بادية
فاعلم بأن الثريا راحت الظلما

فقلت : هذا بيت لا أفهم له معنى . فاغتاظ وقال : « لو كنت تفهمه لكنت من بني آدم ، أحسن الشعر وأنبله ما يكون معناه غامضاً عن أمثالك . فأضحكني »[1] .

والآن . . علينا أن نعترف أن الذين يخرجهم مغرور ، معجب بشعره ، من دائرة « بني آدم » ثم يضحكون هم قلائل للغاية .

والغرابة ليست في الحكاية فحسب بل في الطريقة الهادئة التي يرويها ابن سعيد وكأنه يحدثنا عن إحدى نزهاته في أشبيلية مع ابن سهل .

ثم ماذا حدث بعد أن أضحكه ؟ هل تركه ابن سعيد وشأنه ؟ كلا . . . لقد واصل حديثه معه ببساطة « ثم حفظت من هذه القصيدة قوله في الممدوح ، وهو مثل غيره ثقيل الروح . وأورد الأبيات[2] » .

---

(1) القدح 117 .
(2) المصدر السابق 177 .

يخرجه الرجل من آدميته ، ثم يواصل حديثه معه ، ويحفظ أبياتاً من شعره .

يبدو أن ابن سعيد هنا ـ وهو يعامل هذا الرجل الذي هو واحد من « موضوعات بحثه » . كعالم سيكولوجي يجري تجاربه على نوعية استجابات الحيوانات الهائجة وهو في غاية الهدوء والمواجهة الموضوعية للتجربة .

ولكن ابن سعيد عند ترجمته لهذا الرجل يصف كل شعره بأنه « ثقيل الروح . . . » فتكون أثقل تحية على الطريقة « السعيدية » الهادئة .

وهذه حادثة أخرى . .

كان أبو جعفر أحمد بن طلحة شديد التهور كثير الطيش ذاهباً بنفسه كل مذهب يرى نفسه أفضل من البحتري والمتنبي وأبو تمام . وحدث أن تحداه بعض جلاسه وطلبوا منه أن يقرأ عليهم من شعره . فلما قرأ « لم ينصفوه في الإستحقاق وردوه في الغيظ الى أشد ما كان فقلت له يا سيدي ، هذا والله هو السحر الحلال وما سمعت من شعراء عصرنا مثلك ، فبالله إلا ما زدتني من هذا النمط. فقال لله در أبيك من منصف ابن منصف اسمع وافتح أذنيك :

ثم أنشدني قوله : . . (وأورد له ثلاثة أبيات) .

قلت : بالله أعد وزد . فأعاد والإرتياح قد ملأ عطفه ، والتيه قد رفع أنفه ثم زاد قوله (وأورد بيتين) .

فقلت : ما على هذا من مزيد في الإحسان فعسى أن يكون مزيداً في الإنشاد فزاد ارتياحه وأنشد (وأورد بيتين) .

فقلت له : أيه : أزادك الله حساناً ، فزاد : (وأورد بيتين) .

فقلت : كل ما يكرر ويطول فإنه مملول ، إلا ما أوردته آنفاً فإنه أنس الحياة ما أن يمل فبالله إلا تفضلت بالإعادة والزيادة ، فأعاد . ثم قال : وهذا حسبك لئلا تكثر المعاني عليك فلا تقوم بحق فهمها وإنصافها . ثم

أنشد إذ ذاك (وأورد بيتين) فقلت : ملأ الله سمعك بكل بشرى . فما زالت المحاسن على من قبلك تترى[1] » .

فابن سعيد يريد أن يأخذ أكبر مادة ممكنة ، والرجل شديد العجب بنفسه فهو يشبع في نفسه هذا الميل بطريقة تدرجية ذكية ، وهو يسجل انفعالاته من « تيه » « رفع أنف » و « زيادة إرتياح » وهو لا يظهر اهتماماً بعبارات الشاعر النامة عن استصغاره لابن سعيد من مثل « اسمع وافتح أذنيك » ومن مثل هذه الإهانة الغبية : « وهذا حسبك لئلا تكثر المعاني عليك فلا تقوم بحق فهمها وإنصافها » .

وابن سعيد يروي الكثير من هذا النمط وخاصة في كتاب القدح الذي ترجم فيه لشخصيات معاصرة التقى بها . . وكل ما يرويه في هذا المضمار تأكيد لظاهرة مرونته ولباقته ومجاملته التي تنضغط وتتمدد بحسب نفسية الشخص الذي يتحدث إليه ، فإن كان شخصاً ثقيلاً أو مغروراً جامله بما يشبهه الهزء وإن كان شخصاً يرى أنه يستحق احترامه وصداقته عامله برقة ولباقة تنم عما يكن له وتقرب من المصارحة القائمة بين الأصدقاء فهذا ابن سهل الإسرائيلي يسمعه قصيدة خمرية خاتمتها الشطر « ولا اشتهى ورداً سواها لدى الحشر » فإذا به يستحسن خطابه أولاً ثم ينكر « عليه منزع بيته الأخير » ويلدغه « من الملام بيسير » فيقول ابن سهل : « أليس في الجنة نهر خمر ، فذلك حسبي لا أبتغي به بدلاً » فينتهز ابن سعيد هذه الفرصة فيسأل صديقه السؤال الذي كان يدور في ذهنه منذ زمن : « بحرمة ما بيننا إلا ما أزلت عني شك الناس فيكم ، وصدقتني هل أنتم على دين أسلافكم أو دين المسلمين ؟ » فيجيبه ابن سهل : « للناس ما ظهر ، والله ما استتر ، وبعد فهذا خلاف ما نحن فيه » ويعلق ابن سعيد على هذه الرواية بقوله : « فاضربت عن مناقشته ولم أقف له على ما أثبته أو أنفيه :

وإني لا أرجو أن تكون وفاته
على ملة الإسلام كيما يسلما

---

(1) القدح 114 ـ 115 .

وألـقــاه في جنــات عــدن مـخـلدا
فليس بــأهــل أن يحــل جهنمــا[1]

ويمكن للمرء أن يستخرج من هذا الخبر أموراً عديدة . منها طريقة ابن سعيد اللبقة في إثارة الموضوع فهو ينتهز فرصة ورود إشارة متطرفة في شعر صديقه فيعلق عليها ويسـأله السؤال الحسـاس لكي يزيـل عن نفسه « شك الناس » في بني سهل ، وهو عندما لا يرى إجابة صريحة يضرب عن المناقشة ولا يثقل على صديقه بمزيد من الإستفسارات حفظاً لحسن العشرة بينهما . ثم أنه أمانة منه في الرواية ينقل شكه للقارىء ولا يبرىء صديقه مما عرف عنه . . وإن كان يسجل أمنيته الشخصية ـ بعد تسجيله الحقيقة ـ في أن يصلح أمر ابن سهل ويتوب الله عنه .

ومن هنا نتبين الى أي مدى كان ابن سعيد لبقاً في علاقاته مع الأباعد والأقارب . . والى أي مدى كان مخلصاً لعلمه وللحقيقة . . والى أي مدى كان وفياً للصديق . . وفاء لا يطغى على أمانة العلم .

2 ـ تقديره لروح الدعابة :

يبدو ابن سعيد مقدراً لروح الدعابة في كل ما يكتب فتراه يحرص على رواية أية دعابة أو نكتة تتوفر لديه عمن يترجم لهم بجانب ما يذكره من أخبار وأشعار .

وتقديره لروح الدعابة أمر غير مستغرب فيه وهو المجالس والمنادم الظريف الذي استطاع أن يجد له مكاناً أينما ذهب وحيثما حل .

ومما لا شك فيه أن جو طلبة أشبيلية المرح . . و « الشلة » التي كان هو وابن سهل وابن الصابوني ـ الذي كانوا يلقبونه بالحمار ـ من رؤسائها لهما أثر في خلق هذا الميل عنده ولا نشك في أن هذه « الشلة » المؤلفة من طلبة أذكياء « أشقياء » كان لها أثرها في « عكننة » مزاج علماء النحو في

---

(1) القدح 74 .

مدارس أشبيلية وفي نشر النكت والأخبار المضحكة عنهم وعن زملائهم من الفقهاء ومقرئي الأدب الذين كانوا يحيون مجالس العلم في المدينة المستنيرة الضاحكة .

ولقد سجل لنا ابن سعيد في ترجمته لزملائه ولشيوخه ذلك الجو الضاحك الذي شهده واشترك فيه ولقد ركز على أساتذته بالذات ـ كعادة الطلبة في كل زمان ومكان ـ وتعقب كل نكاتهم وأمورهم المضحكة من مظهر وخلق وكلام وأخبار وتصرفات :

فاستمع الى هذه « المناظرة النحوية » بين الشلوبيني ـ إمام النحو في المغرب عندئذ ـ وبين الشاعر ابن الصابوني أحد تلامذته :

« واتفق له (الشلوبيني) مع ابن الصابوني الشاعر الحكاية المشهورة . وذلك أن الشاعر المذكور كان يلقب بالحمار ويغتاظ من ذلك فبينما هو ذات يوم يقرأ عليه كتاب (الإيضاح) إذ مرت مسألة « السمن منوان بدرهم » وتشعبت المذاكرة الى أن اغتاظ الأستاذ عليه ، فزحف إليه من صدر مجلسه وقال له : يا حمار يا ابن حمارين وجعل يصعد هكذا شيئاً فشيئاً الى أن قال له : يا مائة ألف حمار ، يا ملء الأرض حميراً ثم جعل أصبعيه في أذنيه ونهق وهو يزحف إليه واجتمعت العامة على باب المسجد وكانت حالة مضحكة[1] فتأمل في منظر هذا النحوي الغاضب الزاحف الناهق .

وابن سعيد يتتبع أساتذته حتى في لفظهم فها هو ذا يروي هذه الحكاية عن أستاذه الشلوبيني « ولما سافر أبو العلاء (المأمون الموحدي) الى مرسية خطب خطبة قال في أولها ثلمك الله ونثرك . وكان يجعل السين والصاد ثا فتطير الناس بذلك . . . »[2] .

ويستمر ابن سعيد في تتبع نوادر شيخه النحوي « وله حكايات

---

(1) القدح 152 ـ 153 .

(2) القدح 153 .

مشهورة في الغفلة منها عنقـود العنب الذي وضعـه في نهر أشبيليـة وهو بالقارب حتى يبرد ثم يمد يده ليأخذه . . . ومنها أنه كان ينسخ والشعير الى جانبه فينشف الورقة بالشعير فتسود جميعها »[1] .

ولكن ابن سعيد لا يسمح لكل هذه الأخبار أن تؤثر على شخصية أستاذه في نظر القارىء بل يختم كل ذلك بقوله : « ومع هذا فإنه كان من ذوي المـروءات . . وأما في درجـة العلم والـدرايـة فـإليـه كـانت قصب الغاية »[2] وكان في مطلع الترجمة قد أعطاه حقه من التنويـه والتقديـر . وهكذا يتضح لنا أن ابن سعيد مع تقديره لروح الدعابة . يفهم مفعولهـا وأثرها ويحسن استخدامها فلا يجعل منها وسيلة للنيل من أحد بل يقصرها على ما يجب أن تقصر عليه من إمتاع ومؤانسة .

وكما فعل مع شيخه الشلوبيني فعل مع شيوخه الآخرين وأصدقائه وكتـاب القدح و « والمقتـطف » حافـلان بـالنـوادر . بـل إنـه في كتـاب المقتـطف خصص فصلاً كـاملاً للحكـايات الـطريفة ، وحتى في كتـاب « المغرب » الذي كان يترجم فيه للشخصيات باختصار ليفسح المجال أمام النصوص الشعرية لم يفته ذكر بعض النوادر خاصة عن بعض أهل المدن وعلى رأسها قلعتهم التي أورد عن أهالي بعض قراها حكايات طريفة[3] .

وابن سعيد الذي أورد ذلك العدد الهائل من الطرائف عن غيره لم يجنب نفسه لمسة الخبر الضاحك فهو يخبرنا أنه عندما أراد الإنتقال من القاهرة الى الفسطاط لم ير بدأ من ركوب الحمار عندما رأى الفقهاء « ذوي الشارات » يركبونه على غير عادة أهل المغرب ، ولكنه لم يحتمل ركض الحمار السريع فوقع على الأرض وتلوث بالغبار فنقد المكاري أجره وطلب منه أن يحسن إليه بتركه يمشي راجلاً . ثم سجل هذه الحكاية في الأبيات الطريفة التالية[4] :

---

(1) المصدر السابق 154 .

(2) المصدر السابق 154 .

(3) المغرب 181/2 ، 186 .

(4) النفح 103/3 .

لقيت بمصر أشد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الريا ... ح، لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي ... الى أن سجدت سجود العثار

وعندما التقى بالملك الناصر في حلب وأخذ في مجالسته وزالت بينهما الكلفة خيره الملك بين أمور ثلاثة : بين لقب « البلبل » الذي أطلقه عليه وبين أنغام القصيدة التي مدحه بها . وبين الخلع والتواقيع التي كان سيحصل عليها خلال مدة ضيافته . فيجيبه ابن سيعد بظرف « يا خوند ، أنا مغربي أكول لا أغص بعشر لقمات فكيف بثلاث » فيسر الملك بالرد وبظرف صاحبنا الأكول[1] .

وابن سعيد يروي هذه النوادر عن نفسه دونما تحرج مما يدل على سماحة روحه وعدم تكلفه .

3 ـ حسن ذوقه وتقديره للجمال :

خلقت عنده بيئة أشبيلية الجميلة طبيعة ، الأنيقة شوارع وعمراناً ، المترفة دوراً وقصوراً ، إحساساً بالجمال وتقديراً له .

1 ـ ينعكس ذلك في شعره المليء بوصف المناظر الطبيعية الطافح بمختلف الألوان والزخارف[2] .

2 ـ ويتضح بين تنبهه للفارق بين نظافة وجمال شوارع أشبيلية ومبانيها المطلية بالبياض المحاطة بالبساتين وبين ما رآه ـ وتضايق منه نفسياً ـ في بعض أحياء القاهرة من مبان يعوزها الترتيب وحسن الهندسة وجمال المنظر[3] .

وابن سعيد ـ عند وصفه لأية مدينة أو قطر ـ يحرص على ذكر

---

(1) المصدر السابق 3/40 .
(2) انظر فصل « شعر ابن سعيد » .
(3) النفح 3/102 .

شكلها وبيئتها الطبيعية مما يدل على اهتمامه بهذه الناحية وشعوره بأهمية الأناقة وجمال النظر بالنسبة لنفسية الإنسان .

3 ـ وحتى عقليته تأثرت بناحية الإهتمام بجمال الشكل وحسن مظهره . فتراه في تخطيط كتابه الضخم « المغرب » يقسمه على هيئة عرائس . . فكل مدينة عروس لها تاجها وبساطها ومنصتها وأهدابها الخ [1] ولا نشك في أن هذه الناحية قد ورثها ابن سعيد من بيئته المنزلية الأرستقراطية العريقة .

4 ـ بين لهوه وتدينه :

وردت في مختصر « القدح » وفي بعض المصادر المتأخرة أوصاف لابن سعيد على أنه من الفقهاء أو من حفظة الحديث مثل « الفقيه » [2] و « الشيخ » و « الحافظ » إلا أن ابن فرحون ـ مؤرخ المذهب المالكي في المغرب ـ كفانا مؤونة التحقيق في هذه الناحية عندما أوضح في ديباجه المذهب ـ وهو كتاب في فقهاء ومحدثي الملكية ـ إن ابن سعيد « لم يكن من نمط من قصد ذكرهم وإن ترجم له لأن « مؤلفاته اشتملت على كثير من الفوائد العلمية » [3] فابن سعيد إذن لم يكن فقيهاً ولا من حفظة الحديث ولنا أن نرجح أن ثقافته الدينية لم تصل الى حد التخصص والتأليف أو درجة التمكن والوثوق وإن كانت متناسبة مع مستواه العلمي والثقافي العام بصفته رجلاً مطلعاً على التاريخ ومتخصص في شؤون الأدب والرواية .

ولكن ذلك لا ينفي عنه التدين أو حتى شدة التدين إلاّ أننا من ناحية أخرى لا نملك من الشواهد ما يثبت تدينه (وعدم ثبوت تدين شخص لا يعني بالطبع أن من أهل الزيغ والضلال ولا يدل على أنه لم يكن يقوم بواجباته الدينية المعتادة . .) بل إن هذه الشواهد تشير إلى أنه كان متسامحا

(1) انظر فصل « علمه ومصنفاته ومنهجه » .

(2) النفح . . . .

(3) ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ص 208 ، ط القاهرة 1931 .

بعض الشيء في أمور دينه وأنه كان يمتع نفسه بأنواع المتعة السائدة في عصره من جلسات لهو ومنادمة . والذي يدفعنا الى ترجيح ذلك الشواهد التالية :

1 ـ إن هدف الحج لم يكن المحرك الأول لرحلته المشرقية . يدل على ذلك كثرة تأجيله ولا يعقل أن هذا التأجيل كان ـ باستمرار ـ لأسباب قاهرة . فقد بقي في مصر ثلاث سنوات وفي حلب ثلاث سنوات أخرى وفي الشام سنة وفي العراق سنة ثم ذهب الى الحج ، ويبدو أن الإهتمام بالإطلاع على المصادر الأدبية كان يحتل الجانب الأكبر من تفكيره ، وهذا ما يشككنا في صدق لهجة قصيدته التي قالها في الإسكندرية عندما تعذر عليه الحج سنة 639 والتي تشوق فيها الى قبر الرسول ومدحه . وهي كسائر شعره لا تعكس شعوراً حاراً .

2 ـ إننا في كل ما وصل إلينا من تصانيفه لا نلمس في كتابته تديناً بارزاً وكثير من الناس يمكن أن ينعكس شعورهم الديني فيما يكتبون ولو كان ما يكتبونه تاريخاً أو أدباً أو شعراً .

3 ـ نجد في شعره الكثير من الخمريات ووصف مجالس المنادمة . . وقد لا يكون ذلك دليلاً . فالشعر الخمري تقليد فني قديم في الشعر العربي . ولكننا نجد مع ذلك في شعره غزلاً غلمانياً بوفرة . . والغزل الغلماني ليس بالتقليد الفني وإن كان شائعاً في عصره . . وبعض هذا الشعر قاله ابن سعيد في مناسبات معينة قد تبعده عن جو التقليد الفني « المجرد » . . من ذلك أبياته التي قالها عندما دخل الى حمام بتونس مع صديقه التيفاشي بعد أن رأى في الحمام غلماناً في الغاية « من نعومة الأبدان »[1] .

والواقع أن كتب ابن سعيد ـ من ناحية أخرى ـ تتضح بأجواء الظاهرة الغلمانية السائدة في عصره . فهو يروي لنا شعراً وفيراً في ذلك . . وهو لا

---

(1) النفح 3/57 .

يقتصر على الشعر بل يروي لنا حكايات وأخباراً عن علاقات واضحة بين شخصيات معروفة وبين غلمان كلفوا بهم . . وهذه الحكايات والأخبار لا تورد في « إطار شعري » حتى يمكن النظر إليها خلال الأطر والتقاليد الراسخة ولكنها تورد كحكايات وأخبار تروى للتاريخ والحقيقة فحسب . . ويبدو أن ابن سعيد كلف بهذا النوع من الروايات والأخبار فهو يوردها بكثرة وهو يتفنن في إيرادها . . ولا شك في أنه شاهدها عن كثب من خلال مرافقته لابن سهل الإسرائيلي ـ علم الشعر الغلماني بعد أبي نواس . .

ويصعب على المرء أن يمر بهذه الناحية دون أن يساوره الظن حول علاقة ابن سعيد بهذه الظاهرة عموماً ودون أن يميل الى شيء من الإعتقاد في أن ابن سعيد قد أصابه رذاذ من هذه الظاهرة بشكل أو بآخر . . .

وابن سعيد ـ من ناحية أخرى ـ لم يتزوج[1] وهو يعلل ذلك في قصيدة حول هذا الموضوع . فهو رجل « رحالة وصاحب أفكار » لا يريد تحمل مسؤولية الزوجة ويريد أن يتمتع بجلساته ولهوه دون تنغيص[2] ولابن سعيد قصيدة أخرى في افتضاض بكر[3] ولا نعلم إن كان ذلك مجرد تفنن في النظم أو إنه أكثر من تفنن . ولنختم حديثنا هذا بعبارة ابن سعيد المعهودة في مثل هذه الأخبار : الله أعلم بالسرائر .

وعلى أي حال فإذا نحن نظرنا الى الموضوع من خلال فهمنا لنفسية ابن سعيد القائمة على التوسط والإعتدال أمكننا أن نقول أنه لا ينتظر منه أن يكون متزمتاً في تدينه ولا مسرفاً في لهوه وإنه على الأرجح استطاع أن يقيم توازناً بين الطرفين . وربما أكدت الحكاية التالية هذا الرأي : « زار (ابن سعيد وصديقه ابن العديم) المشاهد الخارجية عن دمشق وفي خدمتهم المماليك بمناطق الذهب كالولدان في الجنان فأدركته خشية وخرج عن الدنيا ، وألزمه ذلك وعاهده عليه ، ومضى إلى حلب فبلغه أنه عاد إلى ما

---

(1) على الأقل حتى وقت القصيدة المذكورة .

(2) النفح 3/35 ـ 36 .

(3) المصدر السابق 3/32 ـ 33 .

كان عليه من اتخاذ المماليك وذلك شيء لا بد منه لمن يخدم السلطان فكتب إليه :

يا ابن سعيد إليك شوقي
شوقك للغصن والكثيب
نقضت بعد البعاد عهدي
فارجع إلى الله من قريب

فأجابه :

يا ابن الكمال اطرح عتابا
في الشوق للغصن والكثيب
واسأل إلى الله أن يعافي
من مقلة الشادن الربيب
تبنا كلانا ، وسوف ننسى
لكنني عدت عن قريب[1]

فابن سعيد لا يسرف في لهوه ويتذكر الآخرة . . ولكنه لا يستمر في زهده وتقشفه بل هو بين بين في توسط واعتدال .

5 ـ جلده وصبره :

وهي مزية لا تحتاج إلى دلائل خاصة ، بعد أن يقرأ المرء سيرة ابن سعيد ويتأمل قائمة مصنفاته العديدة الضخمة .

وابن سعيد صبور في بحثه عن مصادره ومعلوماته ، وفي تبويب مادته وترتيبها وفي تمسكه الشديد بهدفه الأول الذي وضعه له أبوه رغم كل المصاعب التي اعترضته ولا تغير رأينا في صبره وجلده مقالته للملك الناصر بأنه يضجر ويتضايق عندما يعمل على تصنيف مؤلفاته الكبيرة الشاملة[2]

---

(1) القدح 6 ـ 7

(2) المقتطف : ورقة 3 .

فهذا الضجر قد يعود الى عدم القدرة على تحقيق كل ما يصبو إليه من كمال في التصنيف وليس من العمل في حد ذاته إذ لو كان ضجراً من الجهد التصنيفي لصرفه عن القيام بمهامه العلمية التي ندب نفسه لها .

وما كان لابن سعيد أن يبدي هذا الجلد في التصنيف لو لم يكن متمتعاً بطبعه الهادىء وعاطفته المتزنة . فالصبر والجلد ليسا من صفات الرجل الذي يكون عرضة لسرعة الإنفعال .

6 ـ نزعته الأندلسية المغربية :

فيما يختص بهذه النزعة التي عرفت عن الأندلسيين والمغاربة ، نرى أن ابن سعيد يعتز بوطنه اعتزازاً كبيراً ولكنه اعتزاز قائم على مراعاة الحقيقة لا على الجدل الخطابي والمغالطة . فهذا الإعتزاز يريد إجلاء الحقيقة كاملة عن بلاد الأندلس حتى ينصفها بعدئذ كل محب للحقيقة ، وهو في الوقت ذاته لا يؤدي إلى ظلم بلاد المشرق والتقليل من شأنها . والمبدأ العام عند ابن سعيد عدم تفضيل عصر على عصر أو قطر على قطر فتراه يكرر : « إن المحاسن قسمها الله على البلاد والعباد . . . والمنصف من لم يخص بالفضيلة عصراً من الأعصار ولا مصراً من الأمصار »[1] إلا أن هذا المبدأ لا يمنعه من التصدي للمتحيزين بل إنه يوجب عليه أن يفعل ذلك خاصة إذا مس هذا التحيز بلاده وأقليمه ففي الشام وجد أن المشارقة يقللون من شأن المغرب ويظلمونه من كل جهة فقرر أن يؤلف كتاباً في ذلك لإعادة الأمور إلى نصابها يحدثنا عن ذلك بقوله : « والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتمل كتاباً وقد صنفته بالشام لضرورة دعت إلى ذلك من شدة اتخاذ المشارقة على المغاربة من كل جهة حتى قال ابن دحية في خطبة كتابه في أخبار المغرب يخاطبهم :

وإن كنتم في العد أكثر مفخراً
فلا تظلمونا في القليل الذي لنا

---

(1) عنوان المرقصات 3 .

وسميت الكتاب الذي وضعته في ذلك الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة[1] .

وقد أثار هذا الكتاب ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار الذي أخذ يرد عليه في مصنفه محاولاً التقليل من شأن المغرب . وما وصلنا من كتاب « الشهب الثاقبة » هو الفقرات التي اختارها العمري للرد عليه وهي فقرات مقتضبة اقتصها العمري من سياقها لكي يتخذها وسيلة للرد والهجوم . كما أن المقري في النفح أورد فقرات من مقدمة ابن سعيد لكتاب « المغرب » تتضمن جملاً من « الشهب الثاقبة »[2] .

ونرى ابن سعيد في هذا الكتاب موضوعياً يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والإجتماعية ويتجنب إطلاق الأحكام الذاتية التي لا تستند إلى أساس وهو لا يتردد في ذكر فضائل المشرق وفي تفضيله على المغرب في بعض الأمور فمن ذلك إشارته إلى أن العمران متصل في الأراضي المشرقية من الشام إلى العراق إلى بلاد العجم بعكس المغرب الذي يغطي مساحته البحر « لهذا كان الشرق أعظم عمارة من المغرب وأكثر مدناً . . فوجب التسليم من المغاربة في هذه المزية »[3] وهو عندما يقارن بين الأوضاع السياسية في المشرق والأندلس يرى أن الأنظمة المالكة أكثر احتراماً وثباتاً في المشرق بينما الحكم في الأندلس يعتمد على ثورات قواد الجند مثل ابن الأحمر وابن هود (والمقارنة التي في ذهن ابن سعيد هي طبعاً بين استقرار مصر والشام في ظل الأيوبيين وتمزق الأندلس بين زعمائها قبل سقوط قواعدها الكبرى) ويشير إلى أن سرعة تغير الحكام تؤدي إلى إضاعة الجهد وتغلب العدو ويخلص من ذلك بقوله : « وأهل المشرق أصوب رأياً منهم (المغاربة) في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل

---

(1) مسالك الأبصار 3 ورقة 76 .

(2) النفح 1/196 .

(3) مسالك الأبصار 3 ورقة 76 .

الأوضاع[1] وابن سعيد منصف للمشرق حتى في مفاخره التي لا تعتمد على حقائق مسلم بها ، فنراه يشير إلى تلك المفاخر ويتحفظ إزاها فمن ذلك : « ذكر ابن سعيد أن بعض الحكماء شبه الأرض بجسد آدمي وعدد أعضاءه ، وجعل الصين والهند رأسه والمغرب رجله .. وبهذا التشبيه للمشرق غاية الفخر وأن سلمه إليهم المغاربة[2] فهو هنا يذكر ما قاله الحكماء ويرى فيه فخراً للشرق ولكن لأن التشبيه غير قائم على حقيقة بينة وضع ابن سعيد تحفظه .

وبالمقابل نراه يدافع عن الأندلس معتمداً على المنهج الموضوعي ذاته . فما أثاره من نهج المشارقة قول الجغرافي ابن حوقل : « ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة ... » ويعلق ابن سعيد على ذلك بقوله : « لم أر بداً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه الظلم والتعصب فلا يخفى ، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعري إذ سلب أهل الجزيرة (الأندلس) المعقول والأراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ وإني لأعجب منه إذ كان (ابن حوقل) في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب الى الشام .. حتى أنهم دخلوا مدينة حلب .. فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك .. وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره ، وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره »[3] .

فابن سعيد هنا موضوعي إلى حد بعيد فهو يورد قول ابن حوقل بحرفيته رغم ما فيه من ظلم لبلاده ، ثم يلجأ إلى واقع الحال وليس إلى

---

(1) النفح 1/200 ـ 201 .

(2) مسالك الأبصار 3 ورقة 78 .

(3) النفح 1/196 ـ 197 .

تنميق البلاغة ويرد عليه مستنداً إلى الحقيقة التاريخية في صمود الأندلسيين عدة قرون ، ويذكره أنه في الوقت الذي كانت فيه ديار المشرق عرضة للغزو وملوكها في تفرق وغفلة عنها كانت الأندلس صامدة متحدة ، وابن سعيد يحرص بحكم نزعته العلمية الأمينة على ذكر مصدر يسند إليه أقواله فيشير إلى تاريخ ابن حيان . وهو ـ مع تمسكه بالموضوعية ـ يجد في بلاده أموراً كثيرة تستحق الفخر . فمن حيث جمال الطبيعة وحسن المباني يحدثنا قائلاً : « منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة . . ثم أفريقية . . . ثم دخلت الديار المصرية . . . ثم دخلت الشام ـ لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس ومدينة دمشق الشام ، وفي حماة مسحة أندلسية ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن وبعض أماكن في تونس »[1] .

ويشير معتزاً إلى ثورة الأندلسيين ضد الظلم والإنحراف عن الدين : « . . . وقد يلح السلطان في شيء من ذلك (تعطيل الحدود) ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤون بخيله ورجاله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في أخبارهم وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم . . »[2] .

ثم يتحدث عن اعتزاز الأندلسيين بشرف العمل : « وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروشة التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه »[3] فهو يفخر بحب أهل بلده للعمل ونبذهم للخمول الجالب للضعة غامزاً من قناة المشارقة .

---

(1) المصدر السابق 1/194 .
(2) النفح 3/204 ـ 205 .
(3) المصدر السابق 3/205 .

ويقول : « وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون . . . » ثم يتحدث عن كرم الأندلسيين معللاً سبب نسبة البخل إليهم مشيراً إلى أن لديهم من المروءات ما يدهش حاتم الطائي نفسه وهو فخر العرب في الكرم يقول : وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلك السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه[1] . . . .

فهو لا يخجل من ذكر نسبة البخل إليهم ، وإن كان يعلل ذلك بما يستدعي الفخر من تدبير واحتياط ، ثم يرفع الكرم الأندلسي إلى مصاف الكرم الحاتمي الذي سمع المشارقة يتشدقون به دون شك .

ومن ناحية أخرى نجده معجباً بشعر الأندلس لا يقدم عليه شعر المشارقة لا في القديم ، ولا في الحديث ، ويرى أن الشعر المغربي حق له أن يعلو فوق النجوم لما يتضمنه من معان رقاق ودقاق[2] ونراه في مجلس الملك الناصر يسمع الملك يعلق على شعره « الذوبيتيات » العراقي المشرقي بقوله :

« هذا طراز لا تحسنه المغاربة » فيجيبه ابن سعيد على الفور شعوراً منه بشخصيته الأندلسية المغربية : « يا خوند (يا مولاي) كما أن الموشحات والأزجال طراز لا تحسنه المشارقة ، والمحاسن قد قسمها الله تعالى على البلاد والعباد »[3] جواب صريح يقوله ابن سعيد لملك في مجلسه بالرغم مما عرف عنه من مجاملة خصوصاً في مخاطبته للملوك والأمراء . . . وما ذلك إلا رغبة منه في أن لا ينكر فضل بلاده ويخفى .

ونلاحظ أن تفضيله لأقطار المشرق بعضها على بعض خاضع لنزعته

---

(1) المصدر السابق 1 / 208 .

(2) انظر الفصل الخاص بنقده من هذا البحث .

(3) المقتطف 39 .

المغـربية ، فلقـد أعجب ابن سعيد بـالشام أشـد إعجاب ـ شـأنـه شـأن الأندلسيين رضاع المجد الأموي ـ وتجسد هذا الإعجـاب في شعره وفي كتاباته في حين أنه لا يعجب بمصر من نواح عمرانية وبشرية .

والواقع أن إعجابه بالشام ما هو إلا تعبير عن نزعته تلك كما ذكرت فحمص هي أشبيلية ودمشق هي غرناطة : المدن متشابهة والتقاليد متقاربة والأمجاد الأموية مشتركة . ولكن كون دمشق هي الأصل وغرناطة هي الفرع لا يمنع ابن سعيد من تفضيل مسقط رأسه الأندلس على دمشق رغم إعجابه الشديد بالأخيرة ، إذ نراه يقول : « إنها (أي غرناطة) وإن سميت دمشق الأندلس أحسن من دمشق لأن مدينتها مطلة على بسيطها[1] . . .

وهكذا نجد ابن سعيد يفتخر بأندلسه في توسط واعتدال ـ كما يفعل في كافة مناحي حياته ـ فيعترف بما فيها من نقائص ويشير إلى ما فيها من فضائل ويفعل الشيء ذاته مع المشرق . . . إلا أن شعوره الواضح القوي في هذه الناحية أن الأندلس تقف في شعـرها وتـاريخها ومحـاسن أهلها وعمرانها شامخة متعالية في مصاف أرقى أقطار المشرق وإن لم تفقها في بعض الأمور .

7 ـ هل من نزعة مذهبية خاصة ؟

لاحظنا أن ابن سعيد كان مالكي المذهب ـ كغالبية أهل الأندلس ـ كما أشار إلى ذلك ابن فرحون في ديباجه المذهب ، الذي هو من المصادر الموثوقة في تاريخ المذهب المالكي في المغرب . وليس مـا يدعـو إلى التشكيك في انتمائه للمالكية أصلاً . إلا أن هنالك بعض القضايا التي قد يستدل منها على احتمـال وجود ميـل شيعي أو حب خاص للعلويين في نفسه :

أولاً ـ قضية انتسابه الى عمار بن ياسر الذي كان من كبار المتشيعين لعلي ، والذي قتل على يد بني أمية تحت لوائه وقد سحبت هذه القضية

---

(1) المغرب 2/103 .

ظلالها الدموية على تاريخ الأسرة في الأندلس إذ وقف عبد الله بن سعد بن عمار ، أول من دخل منهم الأندلس ، ضد عبد الرحمن الداخل الأموي رغم أن عبد الله كان قائد جند دمشق الذي عرف بولائه الشديد للأمويين . وأدى هذا الموقف إلى قتل عبد الله على يد الداخل « لما بين بني عمار وبني أمية من الثأر »[1] .

ثانياً ـ ألف ابن سعيد كتاباً خاصاً باسم « كنوزِ المطالب في آل أبي طالب» وهذا الكتاب لم يصل إلينا ولكن لا شبهة في وجوده فقد رآه رحالة مغربي في القرن الثامن هو التجاني، ونقل منه ترجمة أحد الطالبيين وهو الشريف محمد الحسيني التاجوري .

ولا يمكن الحكم على الغرض من الكتاب وعلى الطابع المميز له إلا بعد الإطلاع عليه . إلا أن الملاحظ أن ابن سعيد في ترجمة الطالبي المذكور أظهر مكانته وكرمه وأشار إلى بعض كراماته» وذكر أنه التقى به شخصياً وتحدث معه ثم أورد له أبياتاً من ضمنها :

ألسنا بني بنت النبي وعمه
وفي الذروة العلياء من آل غالب
ليوث ولكن لا تصاد بحيلة
سيوف ولكن لا تدين لضارب[2]

والذي يلفت النظر في أمر هذا الكتاب أنه خارج عن نمط مؤلفات ابن سعيد عامة فهو ليس كتاباً في الشعر أو الأدب . . وليس بكتاب جغرافي فما عساه أن يكون ؟

أهو كتاب في شعر الطالبيين وغرضه أدبي خالص ، أم أن له غرضاً يتعلق بميل مذهبي خاص ؟ إن عنوانه على أي حال لا يشير إلى الإحتمال الأول إذ يبدو أنه كتاب يترجم للطالبيين ويبين أخلاقهم ويذكر أخبارهم وقد يورد بعض أشعارهم إن وجدت كما في المثال السابق .

---

(1) النفح 3/ 96 .

(2) رحلة التجاني ص 308 ـ 309 .

ما عدا ذلك لا توجد إشارات أخرى يمكن أن تلقي الضوء على هذه الناحية ، وهناك إشارة تنفي وجود نزعة تشيع قوية عنده على الأقل : فعندما ترجم لشميم الحلي ، وهو من « أعلام فقهاء الشيعة بالحلة وأهل الفتيا والأقراء عندهم » لم يظهر من حديثه عنه أنه يظهر ميلاً وتقديراً إزاءه بل على العكس من ذلك نراه يقول عنه « جملة أمر هذا الرجل أن ذكره فوق شعره فعلى كثرته لم أقف له على ما فيه إغراب ولا إبداع » ، ثم يجاري ياقوتاً الحموي في وصفه له بأنه « كثير الدعاوي ، خارج عن نمط الإنصاف والإعتراف » ثم يورد « بعض الحكايات المضحكة عنه »[1] .

وأياً كان الأمر ، فليس بمستبعد أن يكن ابن سعيد حباً للعلويين وفاء لذكرى جده الأكبر عمّار ، إلاّ أن نفسية ابن سعيد ليس من طبعها أن تتطرف في ميولها وتتعصب وإن كان ثمة ميل فهو ميل معتدل رزين كميول أبي الحسن الأخرى . وحتى لو وجد ميل كهذا فليس من أدنى احتمال في إمكانية تأثر مصنفاته الأدبية به إذ لا مجال من حيث مادة تلك المصنفات للتأثر بميل كهذا . كما أن الموضوعية التي عرف بها ليس من شأنها أن تسمح بذلك ، ثم إنه لا توجد أية إشارات في تلك المصنفات توحي بشيء من هذا في كثير أو قليل .

***

تلك هي شخصية ابن سعيد في عوامل تكوينها وفي مظاهرها ومزاياها وميولها . وقد اتضح كيف أن الإعتدال والإتزان وهدوء الطبع كان خطاً واضحاً في كل ما تم التعرض له من مظاهر شخصيته . وعلى العموم فإن هذا التركيب النفسي لم يكشف حدة في الذهن أو خصباً في الخيال أو اتقاداً في الشعور وهي خصائص ضرورية ـ منفردة أو مجتمعة ـ لكل عمل خلاق عظيم . وعليه فليس من المتوقع من ابن سعيد ـ على ضوء هذا التحليل لشخصيته ـ أن يأتي بنتاج يتجاوز حد « التوسط » على صعيد الفكر أو الأدب أو التصنيف .

---

(1) الغصون 5 ـ 11 .

الفصل الثالث

علمه ومصنفاته ومنهجه

موسوعية الشاهد الثقافي
بين مغرب ومشرق

1 ـ حدود علمه واتجاهاته
2 ـ أساتذته
3 ـ مؤلفاته
4 ـ منهجه في التأليف : طابعه وخصائصه
5 ـ أهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

1 ـ حدود علمه واتجاهاته

سأل ابن سعيد يوماً أستاذه الأعلم البطليوسي النصيحة العلمية ، فأجابه : « إن كان غرضك إقراء الأدب والإشتهار بكتبه فعليك بأركان الأدب الأربعة « البيان » للجاحظ ، و« الكامل » للمبرد ، و« الأمالي » للقالي و« الزهر » للحصري . وإن كان غرضك أن تكون أديباً محاضراً بملح الآداب فعليك من النثر والنظم والحكاية بما قصر مداه وراق لفظه وأغرب معناه »[1] . ولا ندري بم أجاب ابن سعيد أستاذه في ذلك الوقت ، ولكنه يذكر في مناسبات أخرى أنه قرأ على أستاذه الشلوبيني النحوي كتاب « الكامل » للمبرد ، و« ديوان أبي الطيب »[2] ، كما قرأ على أبي بكر بن هشام كتاب « الذخيرة »[3] .

ويبدو أنه ليس ثمة فصل تام بين الإختيارين اللذين ذكرهما له أستاذه الأعلم ، فالغرض الثاني لا يتحقق دون اهتمام بالغرض الأول والإستفادة من كتب الأصول المذكورة ، كما أن الذي يريد التخصص في إقراء الأدب يحتاج إلى إلمام بشيء مجمل من النثر والنظم والحكاية قبل أن يتمكن من التركيز والتعمق . إلا أن الفارق ـ طبعاً ـ يظل متعلقاً بالميل الشخصي : فهل يركز الدارس اهتمامه على الناحية النحوية واللغوية والبلاغية ليتوسع

---

(1) المقتطف ، ورقة 80 (نسخة مصورة) .

(2) القدح : 152 .

(3) المقتطف ، ورقة 80 .

فيها ثم يدرسها للطلبة ، أم يلتفت إلى الناحية الروائية الشعرية الجميلة ، والخبر التاريخي الطريف ، والعبارة الأدبية الأنيقة والحكاية المشوقة ، وفيما يختص بابن سعيد ، ليس ثمة من شك ـ كما سنرى بعد قليل ـ أنه اطلع على كثير من الأصول الأدبية والتفت إلى اللغة والنحو غير أن صفة « الأديب المحاضر بملح الآداب » تغلبت في خلق شخصيته العلمية وبلورتها على صفة الشيخ النحوي المقرىء لكتب الأدب » ، وإذ لا توجد أية إشارة تدل على أن ابن سعيد كان يقرىء كتب الأدب أو أنه فكر بذلك . كما أنه لم يؤلف ـ طبقاً لجميع مصادري المتوفرة ـ أي كتاب لغوي أو نحوي أو بلاغي أو له صلة بشروح الشعر والبحث في أصوله . . . في حين تجده في كل مجلس يحضره « أديباً محاضراً » بالقطع الشعرية والأخبار والحكايات ، حتى أثناء اجتماعه بالملوك . فها هو يحدثنا عن لقاء له مع السلطان يوسف الناصر الأيوبي صاحب حلب : « . . وجعلت أحاضر بمجلسه بما أنتقيته مما جمعته من ذلك ، وهو مع الساعات يبسطني بارتياحه . . . »[1] . وهو عندما يجتمع بالعلماء لا يسألهم عن أحجية نحوية أو لغوية بل يهتم برواية شعرية غزلية أو بحكاية طريفة ، فتراه عندما يجتمع ـ مع والده ـ بكاتب ووزير من أشبيلية كأبي بكر بن البناء يطلب منه أن ينشده شيئاً من غزله ، حتى أن والده يؤنبه على ذلك[2] وفي مناسبة أخرى تتيح له الفرصة حضور مجلس عالم مرسية عزيز بن خطاب ، فلا تبقى من رغبة في نفسه بعد المقابلة إلا طلب الإستماع إلى شيء من شعره وقد حالت هيبة المجلس دونه ودون التصريح بذلك الطلب[3] .

ويلاحظ أن علاقاته بجميع من ترجم لهم في كتابه « القدح » تدور حول مثل تلك الجلسات الأدبية التي تروى فيها الأشعار والحكايات والروايات الممتعة ، والتي هي أقرب إلى جلسات الأصدقاء والندماء منها

---

(1) المقتطف .

(2) القدح : 119 .

(3) المصدر السابق .

إلى مجالس الجدل والإقراء والشرح .

وهكذا نجد أن صفة الأديب المحاضر بملح الآداب تغلب على ابن سعيد حتى أنه في مصنفيه الأدبيين ـ التاريخيين ـ الجغرافيين الكبيرين « المغرب » و « المشرق » كان يشعر أنه يقوم بمهمة الأديب المجالس والنديم المحاضر . فقد سأله السلطان الناصر يوماً عن منهجه في الكتابين ، فذكر له المنهج ثم أشار إلى الغرض النهائي منه قائلاً : « إنه متى ذكر بلد ابتدى فيه بالحلى البلادية مما هو داخل في علم الجغرافيا ، فترسم صورته ثم يذكر حيوانه ومعدنه وما يتركب من ذلك إلى ما يتعلق بوصف الأنهار والمنتزهات مما تتحلى به المحاضرة . ثم يعقب ذلك بالحلى العبادية فيذكر أول من حل بذلك البلد ، ويؤتى بتاريخه على النسق إلى الوقت الذي صنف فيه الكتاب . ويذكر من أرباب رياسته السيفية والقلمية ومن انضاف إلى ذلك من الأعلام في فنون الجد والهزل ما يمتع الجليس بنكت النثر والنظم والحكايات ويعمر المجلس النبيل »[1] . وليس لنا أن نستنتج أن أسرة بني سعيد تضافرت على تأليف كتاب « المغرب » مدة قرن ونيف لمجرد « إمتاع الجليس » ، فثمة أغراض أبعد من ذلك ، ولكن عبارة ابن سعيد هنا تكشف ميله الشخصي إذ يرى أن تلك المعلومات من جغرافية وتاريخية وأدبية تهدف إلى تحلية المحاضرة وإمتاع الجليس وإحياء الجلسة . والواقع أن هذه العبارة بالذات تتضمن البذور التكوينية لاتجاهات علم ابن سعيد كله . فهو قد أخذ على عاتقه ـ بتوجيه والده ـ إكمال كتابي « المغرب » و « المشرق » حسب الخطة التي أشار إليها في العبارة السابقة . وهذه الخطة تتطلب منه إلماماً بعلوم ثلاثة : الجغرافيا والتاريخ والأدب . وفي هذه المجاري الثلاثة انصبت جهود ابن سعيد التصنيفية على درجات متفاوتة من التركيز والتوسع والإهتمام ، وضمن ميل ابن سعيد الأدبي الذي طبع جهوده بالصبغة الأدبية بصفة عامة . وهكذا فإنه لم يدع ميله لدور الأديب

(1) المقتطف ، ورقة : .

المهتم بملح الآداب يقف به عند حد حفظ أخبار وحكايات من كتب الأدب المعروفة ، بل إنه توسع في مطالعاته ونوع فيها وبحث بنفسه عن كثير من الحقائق الجغرافية والتاريخية والمعلومات الأدبية من خلال مشاهداته واتصالاته حتى استقامت له شخصيته العلمية المتكاملة ،وحتى غدا مرجعاً يستند إليه كبار المصنفين من بعده .

والواقع أنه ليس من المبالغة أن يقال أن كتاب المغرب كان مدرسة ابن سعيد الكبرى ، وأن هذا الكتاب أساساً هو الذي حدد له حدود علمه واتجاهاته . يقول ابن سعيد محدداً علاقته بهذا الكتاب مبيناً دوره فيه وفي توأمه كتاب « المشرق » : « كان والدي قد جمع المغرب في حلى المغرب ، والمشرق في حلى المشرق . وجل جهدي في تكميل هذين الكتابين على ما رسم لي »[1] أما ما رسمه له والده فتبين من حديثه السابق للملك الناصر ، هذا الحديث الذي اتضح منه اتجاه ابن سعيد نحو الجغرافيا والتاريخ باعتبارهما رافدين يصبان في مجرى اهتمامه الأدبي الأوسع .

وعندما يقال كتاب « المغرب » ، فإن التراث العلمي لأسرة بني سعيد معني بذلك . وإذا كان ابن سعيد قد أتم كتاب المغرب وكان خاتمة مؤلفاته ، فإنه أيضاً كان الخاتمة الطبيعية والمصب الجامع لذلك التراث العلمي الخصب المتنوع . فالمتأمل لتراث الأسرة يرى أن تلك الإتجاهات الثلاثة ـ من أدب وتاريخ وجغرافية ـ كانت تبرز منفردة بين حين وآخر : فالحجاري ، كاتب عبد الملك بن سعيد ، وضع جذور الإهتمام بالجغرافيا بطريقة تأليفه لكتاب المسهب[2] ، والشاعر أبو جعفر بن سعيد ، عم والد ابن سعيد ، مثل الإتجاه الأدبي الخالص وحاول أن يطبع كتاب المغرب بطابعه . ثم جاء موسى ، والد ابن سعيد نفسه ، فمثل الإتجاه التاريخي ـ العلمي حتى أن ولده وصفه ـ كما تقدم ـ بأنه أعلم بني سعيد بالتاريخ .

---

(1) المقتطف ، ورقة : .

(2) النفح 4/174 ـ 175 .

وعندما جاء ابن سعيد وناطت به الظروف إخراج الكتاب بصيغته النهائية جمع بين الإتجاهات الثلاثة في شخصيته العلمية الخصبة .

ولقد تنبه ابن سعيد ـ بفضل إرشاد والده ـ إلى مهمته تلك وهو لما يتجاوز العشرين من عمره بعد ، عندما كان يصحب والده لزيارة الخزائن العلمية ومقابلة أهل الأدب والعلم . ولذلك استطاع أن يوجه جهوده منذ الصغر نحو ذلك الهدف الذي حددته خطة كتاب المغرب فجاء كل نشاطه العلمي ـ على تنوعه وتعدده ـ منسجماً مع تلك الخطة مخصباً لها ومغنياً . . حتى أنه ليس من المبالغة أن يقال أن مؤلفاته الأخرى ـ على تنوعها وتعددها أيضاً ـ ما هي إلا فروع لتلك الموسوعة الكبيرة التي يمثلها « المغرب » و « المشرق » .

ويمكن رصد مظاهر تعلمه وبحثه عن مادته العلمية ضمن المراحل والحالات التالية :

1 ـ حضوره الدؤوب لمجالس الأمراء في مساجد أشبيلية ومعاهدها تحت إشراف كبار الأساتذه كالنحوي الكبير الشلوبيني والدباج والأعلم البطليوسي (وسأتحدث عنهم وعن غيرهم من أساتذته بعد قليل) . وكان يداوم على ذلك عندما كان بين سن الخامسة عشرة والعشرين .

2 ـ مرافقته المستمرة لوالده في جلساتهما الخاصة والعامة منذ بلغ الحلم . (فقد رافق والده ـ كما تقدم ـ في رحلة إلى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدي العادل ، وهو حدث لم يتجاوز الرابعة عشرة) . وقد تحدثت عن علاقته بوالده عند الحديث عن شخصيته ، كما سأتوسع في البحث عن علاقاتهما العلمية عندما أتحدث عن والده باعتباره أستاذاً من أساتذته .

3 ـ جلساته مع أصدقائه التي لا تخلو من فوائد أدبية وخصوصاً فيما يتعلق بالرواية الشعرية . وقد استمرت هذه الجلسات منذ أن كان شاباً يافعاً يلتقي بابن سهل والصابوني في أشبيلية حتى غدا رجلاً وكهلاً يجتمع بكبار رجالات العالم الإسلامي في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد . ويندر أن

يذكر ابن سعيد جلسة من هذه الجلسات دون أن يشفع ذكره لها بفائدة أدبية شعرية ، على أن بعض هذه الجلسات يسهم في تفتيح القرائح لإنتاج شعر جديد . فها هو يجتمع بابن العباس أحمد بن بلال في الجزيرة الخضراء ويمر عليهما « يوم أنس سمح به الزمان فكمله . . » فيتبادلان القصائد حول ذكره ووصف ملذاته[1] وفي تونس يدعوه أبو العباس الغساني كاتب الإمارة الحفصية ، إلى جلسة أنس في أحد بساتينه فيشاركان مع ابن يامن الشاطبي في نظم قصيدة مشتركة في وصف الجلسة[2] ثم يعيدون الكرة ثانية ويخرجون بنتاج جديد[3] .

وفي القاهرة يجتمع بشعراء العصر في مصر من أمثال البهاء زهير وأبي الحسين الجزار وابن أبي الأصبع[4] فتكون نتيجة تلك اللقاءات الجانب الشعري الهام من القسم المصري من كتاب « المغرب » . وفي حلب وبغداد والبصرة يحظى ابن سعيد بمثل تلك الجلسات الشخصية المثمرة على الصعيد العلمي شعراً ورواية وتاريخاً[5] . ولعل أفضل ما أفادت به تلك الجلسات الأبحاث العلمية ذلك العدد الجيد من القصائد الذي سجله ابن سعيد عن ابن سهل الإسرائيلي أحد كبار شعراء الأندلس قاطبة ، وتلك الأحاديث والحكايات عنه التي تمثل مادة صالحة لدراسة نفسيته .

4 ـ وإلى جانب الجلسات الشخصية التي غلب عليها طابع اللهو ، استفاد ابن سعيد من اجتماعاته بالملوك والأعيان والأمراء لتحقيق غرضه العلمي وكان الذي يهمه من تلك الإجتماعات أن يتمكن من الإطلاع على الخزائن العلمية والمكتبات النادرة التي تقع في حوزة أولئك . ففي مرسية

---

(1) المغرب 1/326 ، وكذلك القدح : 86 .

(2) المقتطف ، ورقة 56 .

(3) المصدر السابق ورقة 54 .

(4) النفح 3/36 ـ 37 .

(5) انظر بصدد هذه الجلسات : النفح 3/40 ، المقتطف 54 ، 55 ، 56 ، القدم : 72 ـ 85 ـ 186 .

يداوم على حضور مجلس عزيز بن خطاب حتى يصير « فيمن انتفع بكتبه »[1] وفي القاهرة يجتمع بالبهاء زهير اجتماع لهو ومؤانسة ولا يكتفي بذلك بل يواعده على زيارته في بيته ، ويصل « إلى ميعاده » فوجدته بخزانة كتبه ، فكان أول خزانة ملوكية رأيتها لأنها تحتوي على خمسة آلاف سفر ونيف[2] وفي حلب يشرح للسلطان الناصر هدفه العلمي ويطلب مساعدته ، فيجيبه : « نعينك بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد . . وتصنف لنا . . »[3] وسار وزراء الناصر على هدى سلطانهم في مساعدة ابن سعيد فهذا مؤيد الدين بن القبطي يسمح له بالإطلاع ـ قبل توليه الوزارة ـ على خزانة (له) فيها نيف على عشرة آلاف مجلد فكنت أنتفع بها . . . فلما مات أخوه وولى الوزارة جئت مهنئاً له . . . فقال . . الخزانة التي كنت تطالعها لها خزانة أخرى وهي المختصة وقد أبحتها لك فقلت ما هذه الزيادة قال : بقدر ما زادنا الله من نعمه . .[4] .

5 ـ وتعتبر مشاهداته الحية واختباراته العلمية مصدراً أساسياً هاماً من مصادر معلوماته سواء كان ذلك ما يتعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم أو بوصفه للبلدان التي زارها . وكان ابن سعيد حريصاً على تقييد مشاهداته وانطباعاته التي كان يكونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة . وسنأتي إلى ذلك تفصيلاً عند الحديث عن خصائص منهجه .

والخلاصة ، فيما يتعلق بعلم ابن سعيد أنه كان يميل شخصياً إلى صفة الأديب الراوية لملح الآداب وإن الصبغة الأدبية طبعت نتاجه بطابعها إلا أن جو أسرته العلمي ، والمهمة العلمية التي أنيطت به في إكمال « المغرب » و« المشرق » والرحلات العلمية الخصبة التي قام بها ، كل ذلك أسهم في توسيع حدود علمه وتنويعه حتى شمل ـ بالإضافة إلى الأدب ـ الجغرافيا والتاريخ .

---

(1) القدح 146 .

(2) ابن تغري بردى ، المنهل الصافي ، ورقة 104 (مخطوط دار الكتب المصرية) .

(3) النفح 3/40 .   (4) المقتطف .

2 ـ أساتذته

1 ـ والده موسى بن محمد بن سعيد (ـ 640) :

عند الحديث عن أساتذة ابن سعيد لا بد من الابتداء بأبيه موسى . فعلاقته العلمية به لم تقتصر على التوجيه والإرشاد فحسب ، بل إنه كان أستاذاً له بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة . وقد سبق الحديث عنه في القسم الخاص ببيئة ابن سعيد العائلية وسيتركز التعريف هنا على صبغته العلمية الخالصة . وصفه إبنه بأنه أكثر بني سعيد علماً وأدراهم بعلم التاريخ خاصة[1] ويعتبر موسى أحد المؤلفين الرئيسيين لكتاب « المغرب » ولعله هو أول من فكر في تصنيف مماثل مشرقي لذلك الكتاب وهو كتاب « المشرق » بل يبدو أنه باشر في جمع المادة المتعلقة بهذا الكتاب الثاني[2] وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن له جهوداً خاصة في حقل التصنيف إذ نرى ولده ابن سعيد ينقل في كتبه عما يسميه « معجم والدي »[3]والأرجح أنه مصنف في تراجم الأدباء والعلماء .

وثمة كتاب آخر يذكره ابن سعيد « في تذييله على رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس » ، ويدخله ضمن « ما جاء منشوراً من فنون الأدب » وهو كتاب « واجب الأدب : لوالدي موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغني عن المراد به »[4] .

ولموسى نظم يميل إلى الحث على العلم والوعظ الخلقي ، وقد ترك لولده وصية منظومة ومنثورة تتضمن نصائح علمية واجتماعية وخلقية وقد تمت الإشارة إليها . ويمكن إجمال العلاقة العلمية الوطيدة بين ابن سعيد وأبيه موسى فيما يلي :

---

(1) المغرب 2/170 .

(2) المقتطف .

(3) الغصون 68 ، 135 ، 150 .

(4) راجع الفصل الخاص بتاريخ حياته .

1 ـ رسم له إلى حد كبير خطة كتابي المغرب والمشرق وأناط به إكمالها .

2 ـ أطلعه على سائر السجلات العلمية الموجودة لدى أسرة بني سعيد وأورثه إياها سواء كانت من مؤلفاته هو أو تعود لمن سبقه .

3 ـ صحبه في كثير من رحلاته ولقاءاته العلمية وأتاح له فرصة الإستماع لكبار علماء الأندلس[1] .

4 ـ كان مثالاً حياً أمامه لتقدير العلم واحترام الجهد العلمي والتمسك بالهدف .

5 ـ كان ينتهز الفرص والمناسبات لتبصير ابنه بطابع الناس والأشياء[2] .

6 ـ لم يكتف بهذا كله بل سجل له نصائحه في وصية جامعة ليسير على هديها بعد مماته .

2 ـ أبو يحيى أبو بكر بن هشام القرطبي (– 640)[3] :

من أعلام النثر البارزين في عصر ابن سعيد . كتب لولاة قرطبة كأبي العلاء المأمون الموحدي والبياسي الثائر ضد الموحدين بها . وبعد مقتل الأخير هرب إلى أشبيلية وأخذ يطلب العفو من المأمون حتى عفا عنه وأعاده إلى منصب الكتابة . وإلى جانب فنه النثري الذي اشتهر بأنه « سهل الطريقة » له أشعار وموشحات . وقد عرف بأنه حسن المعشر ، لطيف المحاضرة ذكر ابن سعيد أنه انتفع بكتبه وأدبه ومحاضرته ، كما قرأ عليه أصلاً من الأصول الهامة في تاريخ الأدب الأندلسي ألا وهو كتاب « الذخيرة » لابن بسام[4] وسنرى أن هناك شبهاً في الخطوط العامة بين المغرب والذخيرة من حيث التقسيم الجغرافي .

---

(1) راجع الفصل الخاص بشخصيته .

(2) راجع ترجمته في القدح 89 ، المغرب 1/74 ، تحفة القادم 159 .

(3) المقتطف ورقة : 80 .

3 ـ الأعلم البطليوسي (– 642)[1] :

هـو ابن اسحاق إبـراهيم بن قاسم . ولقبـه عائـد إلى مسقط رأسه بطليوس . تخرج في أشبيلية واشتهر بإقراء كتب الأدب وله شروح في كتابي « الكامل » للمبرد ، و « الأمالي » للقالي كما ألف كتاباً في آداب أهل بلده بطليوس .

عرف بصعوبة خلقه وادعائه حتى كان يدعي أن مؤلفاته « لم يخلق الله تعالى مثلها في فنون العرب »[2] .

يخبرنا ابن سعيد أنه أراد أن يقرأ عليه كتاب « الكامل » . ويبدو أنه لم يباشر قراءته عليه (ويشير في مكان آخر أنه قرأ الكتاب المذكور على أستاذ غيره هو الشلوبيني والأعلم هو الذي نصح ابن سعيد أن يختار بين التخصص في إقراء الأدب أو الإهتمام بملح الآداب ليكون أديباً محاضراً مجالساً. وذكر ابن سعيد أنه وقف على « جملة من تصانيفه ». وأنه كان يجلس معه ويتحدث فيما حل بأشبيلية من محن في ذلك الوقت فيبـدي الأعلم بؤساً وتشاؤماً .

4 ـ أبو علي عمر بن محمد الشلوبيني (– 646)[3] :

هو إمام النحو في المغرب عصر ابن سعيد . ينسب إلى شلوبينة من حصون غرناطة ، وهو أشبيلي الموطن . كان والده خبازاً بأشبيلية وتطلع هو نحو العلم وأغرم بالنحو منذ صباه حتى برع فيه وصـار مرجعـاً وألف فيه الكتب . ومن أشهر مؤلفاته « شرح الجزولية » . وله شعر يعده ابن سعيد في « نهاية من التخلف » . وإلى جانب تدريسه للنحو كان من مقرئي كتب

---

(1) انظر ترجمته في المغرب 1/369 ، القدح 157 ، المقتطف 79 ، التكملة 207 .

(2) القدح 157 .

(3) انظر ترجمته في المغرب 2/129 ، القدح 152 ، المقتطف 80 ، الديباج المذهب 185 ، النفح 1/206 .

« الأدب الجليلة ، قائماً بمعرفتها وضبطها وروايتها . . »[1] .

وكان ابن سعيد يشهد مجلسه بأشبيلية وقد ازدحم بالبلديين والغرباء من الآفاق وقد قرأ عليه كتاب الكامل « للمبرد » و « ديوان أبي الطيب » وكان الشاعر ابن سهل الإسرائيلي يحضر مع ابن سعيد مجلسه ، فكان الشلوبيني يناظر بينهما فيما ينظمانه .

ويبدو أن الشلوبيني كان يتصف بالطيبة والظرف وخفة الروح ، كما كان سريع الغضب من ناحية أخرى ، وله حكايات طريفة مع ابن سعيد وأترابه كابن سهل والصابوني وقد سجل ابن سعيد كل ذلك في المغرب والقدح والمقتطف .

5 ـ أبو الحسن علي بن جابر الدباج الأشبيلي (– 646)[2] :

جمع بين إقراء الأدب والإمامة ، فكان إلى جانب « منزلته العالية في الأدب أمتن الناس ديناً »[3] حتى إن أهل أشبيلية اختاروه إماماً لجامع العدبس الذي كان مركزاً مهماً من مراكز الثقافة فيها في ذلك الوقت . وتروى عن الدباج أيضاً بعض الأشعار والموشحات .

ذكر أن بن سعيد أنه قرأ عليه مدة وروى عنه عدة كتب . ويبدو أن للدباج فضلاً في توجيه ابن سعيد نحو الإهتمام بتذوق الشعر أثناء دراسته لمصنفات الأدب . تدل على ذلك الحكاية التالية التي رواها ابن سعيد نفسه : « كنت أقرأ عليه الأدب بجامع العدبس فبلغه أني أقرأ على أبي بكر ابن هشام . . كتاب الذخيرة واحفظ عليه محاسنها . فقال لي أنشدني ما حفظته من محاسن شعرها . فأنشدته . فقال : فأين أنت من قول ابن حصن :

---

(1) القدح 152 .

(2) المقتطف ورقة 80 .

(3) انظر ترجمته في : عنوان الدراية : 188 ، وهناك إشارة عنه في القدح 96 وكذلك النفح 175/4 .

ومــا هــاجني إلا ابن ورقــاء هــاتف
علـى فنـن بيـن الجـزيـرة والـنهـر

(إلى قوله) :

ولـمـا رأى دمـعـي مـراقـاً أرابـه
بكـائي فاستـولى علي الغصن النضر
وحـث جنـاحيـه وصـفـق طـائـراً
وطار بقلبي حيث طار . . . ولا أدري

فصرت أقرأها عليه »[1] .

مما يدل على أنه كان يلفت نظره نحو القطع الشعرية الجميلة ويوجهه نحو تذوقها وحفظها . وسنرى أن لابن سعيد غراماً خاصاً بأمثال هذه القطعة ذات الطابع الغزلي والأسلوب الرقيق والجو الوصفي ، سواء كان ذلك في نقده أم شعره .

6 ـ أبو الحسن علي المشهور بابن عصفور (– 665)[2] :

لم يترجم له ابن سعيد ضمن من ذكرهم من شيوخه في القدح ولكن لا شبهة في أنه تتلمذ عليه إذ تؤكد ذلك مصادرنا المعتمدة كالإحاطة[2] وديباج ابن فرحون[4] كما أن ابن سعيد نفسه عندما يتحدث عن جهود الأندلسيين في النحو في تذييله على رسالة ابن حزم ، يشير إلى شرح ابن عصفور قائلاً : « . . . ومنها شرح شيخنا أبي الحسن بن عصفور[5] » .

وقد تمت الإشارة إلى ابن عصفور عند الحديث عن حركة النحو في

---

(1) المقتطف ورقة : 80 .

(2) انظر ترجمته في : عنوان الدراية 188 ، وهناك إشارة عنه في القدح 96 ، وكذلك في النفح 175/4 .

(3) ابن الخطيب ، الإحاطة : (نسخة مصورة) .

(4) الديباج المذهب 209 .

(5) النفح 175/4 .

عصر ابن سعيد[1] وصفه الغبريني في عنوان الدراية بأنه فقيه ونحوي لغوي وتاريخي . وهو من أهالي أشبيلية ويبدو أنه غادر الأندلس في وقت مبكر حيث مر بالغرب الأقصى ثم استوطن بجاية بأفريقية (تونس) حيث درس بها ثم رحل إلى الحاضرة تونس حيث أصبح من خواص الأمير الحفصي المستنصر (- 675) وقد تتلمذ عليه هذا الأمير قبل توليه الخلافة سنة 647 .

ذكر الغبريني أنه توفي في العقد السابع من القرن السابع ولم يحدد .

ومن تآليفه الشهيرة كتاب « المغرب » في النحو ، الذي ذكر ابن سعيد أنه اطلع عليه[2] . وله أيضاً شروح نحوية على/ « الإيضاح » و « الجمل » . كما فسر بعض أجزاء من القرآن ، ووصف الغبريني منهجه في التصنيف بأنه مسلك « لم سبق إليه من الإيراد والإصدار والاعذار بما يتعلق بالألفاظ ثم بالمعاني ثم بإيراد الأسئلة الأدبية على أنحاء مستحسنة »[3] . وكانت له أيضاً مشاركة في علم المنطق « . . ولأجل ذلك حسن إيراده في (تآليفه النحوية) تقسيماً وحدوداً واستعمال الأدلة » . . « وكلامه في جميع تآليفه سهل منسبك »[4] .

هذا وإذا لم يتتلمذ عليه ابن سعيد في أشبيلية بالذات فثمة احتمال أن يكون قد اتصل به في تونس أو في بجاية . فابن عصفور كان يدرس ولي العهد المستنصر في تونس قبل سنة 647 وقد أقام قبل تلك الفترة في بجاية فالإحتمال قوي أن يكون ابن سعيد قد اجتمع به خلال إقامته في تونس بين سنتي 636 ـ 639 . وكان عمر ابن سعيد يتراوح عندئذ بين السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين ، وهي سن ما زالت مناسبة للدرس والتحصيل .

***

(1) انظر المقدمة ص 40 .

(2) النفح 4/175 .

(3) عنوان الدراية : 190 .

(4) المصدر السابق 189 ـ 190

من هذا العرض لأساتذته واتجاهاتهم العلمية يتبين أنهم كانوا أما نحويين يميلون للأدب أو مقرئي أدب يهتمون بالنحو والتاريخ . وهكذا فإن دراسة ابن سعيد للغة والأدب كانت مستندة إلى أساس متين من حيث التعليم والتوجيه . غير أن الملاحظ أنه لا يوجد أحد من بين أساتذته اشتهر بالتخصص في الجغرافيا أو الإهتمام بها والميل إليها على الأقل . والأرجح أن ابن سعيد اعتمد في تكوين ثقافته الجغرافية على المعلومات الجغرافية الواردة في مسهب الحجاري وما أضافته أسرة بني سعيد إليه ، ثم توسع بمطالعته للكتب الجغرافية الكبرى وعلى رأسها كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي الذي سنرى ـ عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد ـ أن ابن سعيد يمثل امتداداً لمدرسته الجغرافية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

3 ـ مؤلفاته

هناك كتب لابن سعيد أمكن الإطلاع عليها والتعرف عن كثب إلى مادتها ومنهجها والغرض منها . وثمة كتب أخرى ورد ذكرها في مصادر موثوقة ونقلت تلك المصادر عنها نبذاً تختلف في حجمها ومدى دلالتها ولكنها تكفي لإثبات وجود الكتاب ولتبيان موضوعه بصورة عامة وربما أسعفت في توضيح شيء عن منهجه . وأخيراً هنالك كتب لا نعرف شيئاً عنها غير الإسم وقد تثبت نسبتها لابن سعيد وقد لا تثبت . وعلى هذا الأساس فقد قسمت الحديث عن مصنفات ابن سعيد إلى أقسام ثلاثة : أتحدث في القسم الأول عن الكتب التي اطلعت عليها فأصف مادتها ومنهجها وأشير إلى غرضها بشيء من التفصيل . وأحقق في القسم الثاني في الكتب التي وردت نبذ منها أو أشارت إليها المصادر الموثوقة إشارة واضحة . أما في القسم الثالث فسأعدد ما ذكرته المصادر من كتب لابن سعيد بقصد إكمال الصورة واستقصاء البحث .

***

« المغرب » و « المشرق » وما تفرع عنهما :

يميل ابن سعيد إلى اعتبار كتابي « المغرب » و « المشرق » كتاباً واحداً . ففي تذييله على رسالة ابن حزم يذكر ـ في مجال تعداد مآثر الأندلس ـ أنه أكمل « كتاب » فلك الأدب المحيط بحلى لسان العرب « المحتوي على كتابي المشرق في حلى المشرق » و « المغرب في حلى المغرب »[1] ففكرة اعتبار الكتابين كتاباً واحداً عائدة إلى مؤلفهما الأخير ومكملهما علي بن سعيد نفسه . ولكن الدكتور زكي محمد حسن محقق القسم المصري من كتاب « المغرب » يظن أن المستشرق « آنجل بالنثيا » هو صاحب تلك الفكرة حين يقول : « وقد أدى التواشج والصلة الدانية بين « المغرب » و « المشرق » إلى أن عدهما المستشرق الإسباني « آنجل جنذالذ بالنثيا » كتاباً أدبياً واحداً ينقسم إلى قسمين المغرب والمشرق[2] والواقع أن بالنثيا كان ينقل عن ابن سعيد ويعتمد على النص المذكور حتى أنه يورد الإسم الجامع للكتابين كما أورده ابن سعيد[3] وثمة سبب جوهري لاعتبار السفرين كتاباً واحداً فهما يقومان على المنهج ذاته ويهدفان نحو تحقيق غرض واحد ويكملان بعضهما في مجال تقديم إطار موسوعي شامل للعالم الإسلامي مغربه ومشرقه .

ولقد قدم ابن سعيد للكتابين معاً بخطبة واحدة وأشار إلى المنهج الواحد الذي اتبعه في الكتابين ثم قال : « وقد ابتدأت منهما بكتاب المشرق » فلم يحملني التعصب على تأخير ما قدمه الله[4] . . « يقصد أنه بدأ سفره بالحديث عن المشرق لما حباه الله من فضائل تفوق فضائل المغرب . ونرى في هذه المقدمة حديثاً عاماً عن صورة الأرض بأقاليمها السبع وبحارها[5] وكل هذا يدل على أن ابن سعيد يصنف أو يرتب على

---

(1) النفح 4/174 .
(2) المغرب (قسم مصر) م 19 .
(3) تاريخ الفكر الأندلسي 244 .
(4) مقدمة المشرق ورقة 7 (نسخة مصورة) .
(5) المصدر السابق ورقة 9 .

اعتبار أنه يؤلف موسوعة واحدة متكاملة غير أن هذه الوحدة النظرية لا تجعل الكتابين متساويين من حيث قيمة مادتهما وترتيبهما التفصيلي ثم إن فكرة «المغرب» أقدم وطريقة تصنيفه تختلف بعض الشيء عن الدور الذي مر به تصنيف المشرق ولذا يكون من الأفضل التحدث عن كل كتاب على حدة تسهيلاً لخطة البحث .

المغرب :

يرتبط تاريخ كتاب « المغرب » بتاريخ أسرة بني سعيد منذ عهد عبد الملك بن سعيد (496 ـ 562) عندما وفد عليه الحجاري في قلعته بغرناطة وألف له كتاب « المسهب في غرائب المغرب » سنة 530 زمن المرابطين[1] . وقد اهتم عبد الملك بالمسهب وصير مطالعته ديدنا ثم ثار في خاطره أن يضيف إليه ما أغفله الحجاري ، ويختصر ما لم يوافق غرضه وفيه تطويل غير مفيد »[2] .

فكتاب « المسهب » ـ إذن – هو نواة كتاب « المغرب » وإذا كان بنو سعيد منذ أيام جدهم عبد الملك أخذوا يضيفون إليه أو يختصرون منه ، فإن ذلك لا يقلل من أثره باعتباره المنطلق والهيكل العام الذي قام على أساسه الكتاب الموسع الجديد فتأثيره قوي وأكيد سواء كان مباشراً أو غير مباشر . ومن أسف أنّا لا نعلم الكثير عن كتاب « المسهب » فقد انصب في المغرب واندمج به ولم يصل إلينا كتاباً قائماً بذاته . ومن هنا تأتي صعوبة التمييز بين جهد الحجاري في التخطيط والتبويب وبين جهود الأسرة السعيدية : غير أن الإشارات التي ذكرها ابن سعيد عن مسهب الحجاري ومكانته بين المصنفات الأدبية الأندلسية الهامة تكفي لإعطاء صورة شبه واضحة عن دور الحجاري في وضع خطة التصنيف التي بني عليها المغرب وظهر على أساسها في صورته الأخيرة .

---

(1) انظر تاريخ بني سعيد ص 53 ـ 60 من هذا البحث .

(2) مقدمة المشرق ورقة 1 ـ 6 .

ينقــل المقـري عن ابن سعيــد في خـطبــة المغـرب : « وصنف (الحجاري) . . . كتاب « المسهب في غرائب المغرب » في نحـو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة . . »[1] . من هذا النص ـ على اقتضابه ـ يمكن استنتاج أمور هامة هي أن المسهب خاص بالأندلس وأنه يحوي مادة ليست بالقليلة فهو في ستة أسفار (وإن كنا لا نعلم حجم هذه الأسفار) ، ثم أنه يسير حسب التتابع التاريخي منذ فتـح الأندلس حتى سنـة 530 هـ على وجه التحـديـد . وثمـة إشـارة أخـرى لابن سعيـد عن المسهب أكثـر أهميـة ووضوحاً : « . . وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري المسمى بـ « المسهب في فضائل[2] المغرب » صنفه بعد الذخيرة[3] والقلائد[4] من أول ما عمرت الأندلس الى عصره ، **وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر** البـلاد وخواصهـا ممـا يختص بعلم الجغـرافيـا وخلطه بـالتـاريـخ وتفنن الأدب . . . **ولم يصنف في الأندلس مثل كتابه** ، ولذلك فضله المصنف له عبد الملك بن سعيد[5] . . . فهذه الإشارة الهامة تبين موقع المسهب من خط التصنيف عند الأندلسيين وكيف أنه جاء بعد كتاب « الذخيرة » الذي هو كتـاب تراجم ومختـارات أدبية تخضـع لتقسيم مكاني عـام حسب أقاليم الأندلس من غرب وموسطة وشرق وبعد كتاب « القلائد » الذي هو أيضاً كتاب تراجم مسجعة تضم مختارات من الشعر والنثر . وتوحي عبارة ابن سعيد أن المسهب ضم منزع الكتابين في إيراد التـراجم والمختارات ثم خرج عن منهجهما بما أدخله من تبويب جغرافي يتناول « البلاد وضواحيها » فالمسهب إذن كتاب ذو طابع أدبي يخضع لنسق تاريخي ويقوم على تصور

---

(1) النفح 3/95 .

(2) رأينا ابن سعيد في النص السابق يسميه المسهب في غرائب المغرب وفي هذا النص يورد « فضائل » بدل « غرائب » .

(3) هو كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام (542) .

(4) هو كتاب قلائد العقبان لأبي الفتح محمد بن خاكان (ـ 529 هـ) .

(5) النفح : 4/174 .

جغرافي مفصل ، وهذه الخصائص ذاتها أهم ما يميز كتاب « المغـرب » وهكذا فإن المسهب هو النواة الأصلية المهمة التي وسمت « المغـرب » بميسمها ، والخطة المبدئية التي سار عليها المؤلفون الخمسة من أسرة بني سعيد ، تلك الخطة التي استطاعت أن تستوعب مادة أدبية وتاريخية هائلة وتسكبها في قالب موحد متماسك . وهـذا لا يحتم ـ على أي حال ـ أن تكون خطة المغرب التفصيلية الدقيقة من وضـع الحجاري ولكن الثـابت ـ كمـا تبين من إشارات ابن سعيـد نفسـه ـ أن الخـطوط العـامـة لمنهـج « المغرب » كانت موجودة في « المسهب » .

وإكمالاً لتسلسل الأدوار التاريخية في تأليف المغرب نتم ما قاله ابن سعيـد عن إضافـات عبد الملك الى « المسهب » : « وخلفـه (أي عبـد الملك) أبناء أبو جعفر الشاعر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل لهما خزانة أدب يتزايد عمرها إلى أن استبد به موسى بن محمد بن عبد الملك (أي والد ابن سعيد) وكان أعلمهم بهذا الشأن ، وذكره بالمغرب في فنون الآداب لا يحتاج إلى تنبيه عليه ، فاعتنى به أشد اعتناء ، وأضاف إليه ما طالعه في الكتب والتقطه من الأفواه »(1) . ونعلم أن ابن سعيد تولى أمره بعد أبيه وأخرجه بصورته النهائية .

أما فيما يختص بخطة المغرب التي ظهر بها ـ وهي خطة المشرق أيضاً من الناحية النظرية على الأقل ـ فقد أشار إليها ابن سعيد بتفصيل في عـدة مـواضـع من مصنفاتـه ، يقول في مقـدمة « المشـرق » وهـو يقـدم للكتابين : « كل من التصنيفين مرتب على البلاد متى ذكر بلد ذكرت كوره وأتكلم عليه وعلى كل كورة بمكانها من الأقاليم ومن بناها وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة نباتية ومعدنية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التي لا يجب إغفالها . ثم نأخذ في الطبقات واحدة بعد الأخرى ، وهي خمس : طبقة الأمراء وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء وطبقة الشعراء ،

---

(1) النفح 3/95 .

وطبقة اللفيف . (والأربع الأولى) مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة . . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أي صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون مثل الإحماض »[1] .

ويعبر ابن سعيد عن الفكرة ذاتها بطريقة أخرى وبشكل أوجز عندما يصف الكتابين للملك الناصر : « إنه متى ذكر بلد ابتدىء فيه بالحلى البلادية مما هو داخل في علم الجغرافيا فترسم صورته ثم تذكر من حيوانه ونباته ومعدنه وما يتركب من ذلك الى ما يتعلق بوصف الأنهار والمنتزهات مما يتحلى به المحاضرة . ثم يعقب ذلك بالحلى العبادية فيذكر أول من بذلك البلد ويؤتى بتاريخه على النسق إلى الوقت الذي صنف فيه الكتاب . ويذكر من أرباب رياسته السيفية والقلمية ومن انضاف الى ذلك من الأعلام في فنون الجد والهزل ما يمتع الجليس بنكت النثر والنظم والحكايات ويعمر المجلس النبيل »[2] .

فمنهجه إذن دقيق متعدد الحلقات ومترابطها ، فهو يراعي الناحية المكانية فيورد تراجم الرجال وأشعارهم حسب مدنهم وكورهم ، ويراعي الناحية الزمنية فيورد التراجم حسب تسلسل الزمن ، ثم هو يراعي الناحية الإجتماعية فيبدأ بالملوك والأمراء فالأعيان فالعلماء فالشعراء فبعض رجال اشتهروا بناحية جد أو هزل معينة ولم يرد لهم نظم . والواقع أن ذلك مجرد ذكرٍ للخطوط العامة في الكتاب فمنهجه التفصيلي أكثر دقة من ذلك .

ولعل القسم الخاص بالأندلس هو أفضل نموذج يمكن التعرف من خلاله إلى « المغرب » باعتباره أوفى الأقسام التي وصلتنا وأكثرها غنى بالمادة العلمية والشعرية بحكم صلة الكتاب كله بالبيئة الثقافية في الأندلس : يبدأ القسم الأندلسي بالحديث عن الأندلس وصفاتها الجغرافية

---

(1) مقدمة المشرق ورقة : 6 ـ 7 .

(2) المقتطف ، ورقة : 2 ـ 3 .

وفضائلها الثقافية وميزاتها التاريخية وكورها المختلفة باعتبارها إقليماً واحداً ذا شخصية مستقلة بارزة[1] . وبعد هذه المقدمة قسم هذا القسم الأندلسي إلى ثلاثة أقسام جديدة ـ وهو يسمي كل قسم جديد كتاباً ـ باعتبار الأقاليم الجغرافية الرئيسية التي تتكون منها الأندلس من غرب وموسطة وشرق . ثم قسم كل إقليم إلى «ممالكه» الكبرى فقسم منطقة الغرب إلى بطليوس وشلب وباجة وأشبونة ومالقة . وقسم الموسطة إلى أربعة كتب ، تضم على التوالي ممالك طليطلة وجيان والبيرة والمرية . أما المشرق فقسمه إلى ستة كتب جديدة تضم على التوالي ممالك تدمير وبلنسية وطرطوشة والسهلة وجهات الثغر وجزيرة ميورقة .

والكتاب يتناول كل « مملكة » على حدة ويقسمها إلى قاعدتها (العاصمة) وإلى مدنها وقراها الأخرى بادئاً الحديث عن القاعدة باعتبارها « عروساً » لها ما للعروس من زينة . وهكذا يجري الحديث عن القاعدة ـ العروس بادئاً بمنصتها فتاجها فسلكها فحلتها فأهدابها . والمنصة تختص بالوصف الجغرافي للمدينة بينما يختص التاج بذكر الملوك والذين تعاقبوا على حكمها والسلك برجال الوزارة والقضاء والكتابة والشعر وهؤلاء يقسمون حسب فئاتهم ضمن السلك ، أما الحلة فتترجم لأشخاص يدخلون ضمن الطبقة السابقة ولكن ليس لهم نظم أو نثر ، ويلي ذلك أخيراً الأهداب للحديث عن الوشاحين والزجالين وأصحاب النوادر . ويلاحظ أن بعض الممالك لها أكثر من قاعدة واحدة كمملكة قرطبة التي لها ثلاث حواضر هي قرطبة والزهراء والزاهرة وهكذا نجد في هذه المملكة ثلاث عرائس « لكل عروس منصتها وتاجها وسلكها وحلتها وأهدابها[2] ومن الملاحظ أن هذه التقسيمات قد لا تنطبق حرفياً على جميع الحواضر والمدن فقد لا نجد

---

(1) لم ينشر هذا الباب ضمن القسم الأندلسي من كتاب « المغرب » الذي قام بتحقيقه الدكتور شوقي ضيف ولكن المقري يورد نبذاً مطولة وهامة منه في القسم الأول من كتاب « النفح » عند حديثه عن الأندلس ، انظر النفح 1/124 ـ 213 ، وخاصة ما بين 196 ـ 209 .

(2) المغرب 9/37 ، 124 .

الحلة أو قد يجيء السلك ناقصاً[1]. إن المدن التي ليست بحواضر يوضع لها « بساط » بدل المنصة وفي الأغلب ليس لها حلة أو أهداب . وقد يكون هذا عائداً إما لضياع اوراق من الكتاب أو لعدم وجود مادة تملأ تلك الأبواب أصلاً .

وهكذا نجد أن هذا المنهج المتشعب المتنوع يجعل من الصعب تحديد هوية الكتاب على وجه الدقة وإن كان في الوقت ذاته أنه هو سر تفرده وأهميته فهل هذا الكتاب كتاب تراجم ؟ أم كتاب جغرافية وتاريخ ؟ أم كتاب نصوص أدبية مختارة ؟ أم أنه خليط من كل ذلك بحيث لا يمكن تحديد الطابع الغالب عليه أو الهدف الأخير منه ؟ .

الواقع أن كتاب المغرب أبعد ما يكون عن الإستطراد والخروج عن الموضوع مدار البحث والإضافات التي تأتي عفو الخاطر . وعليه فإن وصفنا له بأنه كتاب جغرافية وتاريخ وأدب لا يعني أنه من قبيل الأصول العربية القديمة ككتب الجاحظ مثلاً . ولكن هذا القول لا يحدد لنا بالضبط ما هو كتاب « المغرب » ؟ .

إن من يتصفح الكتاب بتمعن يشعر أن الهدف الأخير منه هو تقديم نماذج رائعة للشعر الأندلسي منذ أقدم عصوره حتى الزمن الذي ألف فيه . وإن ما عدا ذلك من تقسيمات ومعلومات جغرافية وتاريخية منظمة ما هو إلا الإطار المكاني والزماني والبشري ـ أو الحلى البلادية والحلى العبادية على حد تعبير ابن سعيد ـ الذي شاء المؤلفون أن يقدموا من خلاله تلك النماذج الشعرية . والواقع إن هذا الشعور ـ أو بالأحرى الإستنتاج ـ غير قائم على نوع من التخمين والحدس بقدر ما هو قائم على ملاحظة إحصائية لمادة الكتاب . فقد لا يذكر الكتاب وصفاً جغرافياً للمدينة موضع الحديث ، وقد يحتصر ترجمه من يتحدث عنه إلى سطر واحد أو ربما اكتفى باسمه ولكنه حريص ، الحرص كله ، على ذكر الأبيات الشعرية قليلة كانت أم كثيرة وقد

---

(1) المصدر السابق 361/1 ، 381 ـ 387 ، 423 ـ 441 .

يورد اسم شخص ونبذة قصيرة عنه ليقدم لنا بيتاً واحداً أو بيتين له . . وذلك كل ما روي عنه . ولهذا السبب نرى أن المادة الشعرية ـ شعراً وموشحات وزجلاً ـ تفوق في كميتها المواد الجغرافية والتاريخية على الرغم من ضخامة هـذه المواد . إلا أن وصفنا للمُغرب بـأنه ـ في صفتـه الأخيـرة ـ كتـاب مختارات شعرية لا يقلل من الأهمية التاريخية للمواد الأخرى وإنما يضعها في موضعها الصحيح من الكتاب .

وإكمالاً لهذه الصورة الوصفية للمغرب نذكر أن الكتاب اعتمد على ثـلاثة أنـواع من المصادر : المشـاهـدة ، والـروايـة الشفـويـة ، والكتب الجغرافية والتاريخية والأدبية السابقة لتاريخ تأليفه أو المعاصرة له ومعظمها من أمهات المصادر الأندلسية الهامة . وقد بلغ عدد هذه المصادر خمسة وأربعين كتاباً فيما يختص بالقسم الأندلسي وحده[1] الذي تضمن ستمائة وسبعاً وأربعين ترجمة . وسنعود إلى التحدث عن مصادر المغرب ـ وغيره من كتب ابن سعيد ـ عندما نباشر البحث في منهجه التصنيفي .

وقد ضم كتاب المغرب في مجمله خمسة عشر سفراً : الستة الأولى منها عن مصر ، أما السابع والثامن والتاسع فخاصة بأفريقية وبلاد البربر ، على حين اختصت الستة الأخيرة بالأندلس[2] .

ويبدو أن ابن سعيد فرغ نهائياً من كتاب المغرب سنة 647 هـ . يدل على ذلك ما جاء في نهاية السفر الخامس عشر منه : « . . كمل جمع كتاب المغرب في حلى المغرب . . وذلك بخط مكمل تصنيفه على بن سعيد في مدينة حلب . للخزانة الصالحية الكمالية . . . بتاريخ سنـة سبع وأربعين وستماية »[3] كما أن ابن سعيد في ترجمته الخاصة بالمغرب يذكر أنه « عزم

(1) انظر القائمة التي استخرجها الدكتور شوقي ضيف لمصادر القسم الأندلسي ، المغرب 563/2 .

(2) انظر مقدمة الدكتور زكي محمد حسن لكتاب « المغرب » (القسم المصري) ـ ص م 32 .

(3) المغرب (قسم مصر) 32 .

على الحج في هذه السنة ، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة[1] مما يدل على أنه كان على وشك الإنتهاء من الكتاب لكي يتسنى له الرحيل للحج . وبذلك يكون تأليف هذا الكتاب الموسوعي قد استغرق حوالي قرن وخمس قرن (530 ـ 647) بمساهمة ستة مؤلفين لم يتسرع أحد منهم في إخراجه باسمه في صورة غير كاملة حتى سنحت الفرصة لآخرهم وهو علي بن سعيد فأخرجه تاماً كاملاً بعد أن أنهى تجميع أداته الضرورية .

وهذا الكتاب الذي بدأ تأليفه في أقصى المغرب ـ مع توأمه المشرق ـ أُهديَ إلى أمير مشرقي هو الصاحب بن ندى الجزري وإلى الجزيرة وهو من الأمراء الذين أكرموا ابن سعيد وتعلقوا به[2] .

وفيما يختص بطبع أجزاء الكتاب بذلت محاولات منذ أواخر القرن التاسع عشر لطبع أقسام منه[3] حتى قام الدكتور شوقي ضيف بتحقيق القسم الأندلسي والدكتور زكي محمد حسن بتحقيق كتاب من القسم المصري هو كتاب « الإغتباط في حلى مدينة الفسطاط » وهو يضم نقولاً تاريخية هامة عن الدولتين الطولونية والأخشيدية بالإضافة إلى تراجم مصرية عديدة من بينها شعراء مصر المشهورين الذين التقى بهم ابن سعيد .

---

(1) المصدر السابق 2/ 173 .

(2) انظر ترجمة الجزري (ـ 651) في الوافي للصفدي ح 1 ص 172 ـ 175 ، وقد أشار الصفدي إلى اتصال ابن سعيد به وأهدائه الكتابين كما أشار إلى هذا الإهداء حاجي خليفة في كشف الظنون رقم 12468 . هذا وقد أشار ابن سعيد نفسه إلى علاقته بمحي الدين الجزري : انظر المقتطف ورقة 71 .

(3) طبع الكتاب المشتمل على سيرة أحمد بن طولون مع مقدمة بالالمانية لكارل فولرس في ليدن 1889 كما طبع في ليدن الكتاب الخاص بأخبار الفسطاط والدولة الأخشيدية 1899 ، وهذان الكتابان أعيد طبعهما ضمن كتاب « الإغتباط » الذي حققه الدكتور زكي حسن . وبالإضافة إلى ذلك طبقت قطعة من المغرب عن صقلية نشرها الدكتور مورتس ضمن كتاب العيد المئوي لميلاد ميشيل أماري ، وقد صدر الكتاب في بلرم سنة 1910 (انظر تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان 3/ 208 ، وكذلك معجم سركيس 1/ 119) .

المشرق :

القسم الذي وصل إلينا من هذا الكتاب ما زال مخطوطاً ، وقد اطلعت على نسخة مصورة منه عن مخطوطته في المكتبة التيمورية تحت رقم 2532 ـ تاريخ . وبالنظر إلى أن هذا الكتاب غير منشور ومجهول المحتويات فقد آثرت عن أتحدث عن مخطوطاته ومحتوياته بشيء من التفصيل .

إن ما بين أيدينا من هذا الكتاب هو عبارة عن القسم الخاص بجزيرة العرب وبمكة على وجه التحديد . وهذا القسم موزع بين مخطوطتين منفصلتين : الأولى مكتوبة بخط مشرقي كبير واضح وفيها المقدمة العامة والمقدمة الجغرافية والحديث عن فضائل جزيرة العرب وعن السيرة النبوية وسير الصحابة العشر المبشرين بالجنة (باستثناء الخلفاء الراشدين الأربعة الذين يحتم السياق أن تأتي سيرهم بعد سيرة الرسول) وهنا تأتي المخطوطة الثانية ـ وهي مكتوبة بخط مغربي قديم ـ لتسد هذا النقص فتركز الحديث على سير الخلفاء الراشدين وأبنائهم وأحفادهم مهتمة بالشعراء منهم على وجه الخصوص . وهناك ملاحظة مضافة إلى هذه المخطوطة تقول أنها بخط المؤلف وهذه الملاحظة بخط الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر المتوفى سنة (1250 هـ / 1831 م). وليس لي في هذه المقدمة التعريفية أن أبحث في العلاقة بين المخطوطتين وفي سبب إغفال سير الخلفاء الأربعة في المخطوطة الأولى وانفراد المخطوطة الثانية القديمة بها فهذا من شأن من يتصدى لتحقيق دقيق للمشرق وقد جمع أكبر عدد من مخطوطاته .

ويبدأ الكتاب ، الذي ورد اسمه هنا : « المشرق فيما يحاضر به من آداب المشرق » وليس « المشرق في حلى المشرق » كما تعمد ابن سعيد أن يسميه عند الإشارة إليه في كتبه الأخرى[1] ـ يبدأ بخطبة عامة (وهي ناقصة من أولها وبها خرم) تقدم لكتابي « المغرب والمشرق » وتتحدث عن

---

(1) النفح 4/174 المقتطف ورقة 2 ـ 3 .

منهج تأليفهما ، وقد أوردت النص الهام المتعلق بذلك عند الحديث عن « المغرب » .

وبعد ذلك تأتي مقدمة جغرافية تحت عنوان « مقدمة في الكلام على الأرض والبحار والأقاليم »[1] وبها رسم لصورة الأرض حسبما وضعها بطليموس ثم تتحدث عن الأقاليم السبعة إقليماً إقليماً محددة البلدان الواقعة في كل إقليم وبعدئذ تنتقل إلى الحديث عن البحار والأجزاء الواسعة التي تغمرها المياه أو التي لا يعرف عن عمارتها شيء . وابن سعيد يكرر الإشارة هنا إلى أنه يأخذ عن كتاب الأدريسي « نزهة المشتاق » الذي يسميه كتاب « أجار أو رجار »[2] كما نقل مرة عن « رسائل إخوان الصفاء »[3] وبعد المقدمة يبدأ كتاب الجغرافية ، يبدأ كتاب المشرق ذاته بالإشارة إلى التقسيم الذي سيتبعه ابن سعيد في تأليفه . وهذه إشارة مهمة تبين لنا المخطط العام لكتاب المشرق وتثبت أن ما بين أيدينا ما هو إلّا الجزء الأول منه فقط . يقول ابن سعيد أنه سيقسم الكتاب إلى ثمانية أقسام هي[4] :

القسم الأول	جزيرة العرب
القسم الثاني	في العراق وأرض فارس .
القسم الثالث	في كور الموصل والجزيرة وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر .
القسم الرابع	في الشامات .
القسم الخامس	بلاد الروم وأرمينية والخزر .
القسم السادس	بلاد الديلم وأذربيجان وطبرستان وجرجان .
القسم السابع	في سائر العجم .
القسم الثامن	في السند والهند .

(1) المشرق ، الأوراق 9 ـ 26 .

(2) نسبة الى الملك روجر الثاني الذي ألف الادريسي له وفي بلاطه كتاب « نزهة المشتاق » في الجغرافية .

(3) المشرق ورقة 10 .

(4) المصدر السابق ورقة 28 .

ويأتي القسم الأول في « جزيرة العرب وبلدانها وتاريخها »[1] وأهم موضوعاته الكلام عن الأصنام ، وقصة الفيل ، والكلام عن الحجر والملتزم والحطيم ، والمحصب والحجون . ثم تبدأ السيرة النبوية[2] التي تشمل : نسب الرسول وميلاده ونشأته .

ثم يتفرع الحديث إلى ذكر أعمامه وعماته ، وزوجاته ، وأولاده ومواليه ثم إلى التحدث عن غزواته ثم كتابه ورفقائه وسلاحه وأفراسه وعصيه وأثوابه وحليته وأخيراً فرائد من كلامه .

وبانتهاء سيرة الرسول يبدأ الحديث عن سير الصحابة العشرة الأوائل (دون ورود ذكر الخلفاء الأربعة) . ويلي ذلك « تلخيص في أعلام الصحابة » مثل ابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر . وبعد تلك التراجم يعود إلى الحديث عن قبائل عدنان وأساطيرها بإسهاب[3] ثم يأتي بفصل عن الرسل الأول ابتداء بآدم[4] . وهنا تنتهي هذه المخطوطة .

أما المخطوطة الثانية وهي التي بخط المؤلف فتختص بالترجمة للخلفاء الأربعة وذراريهم وتبدأ بعبارة « ما في مكة شرفها الله من الطبقات » وفيها الخمس التي بنى عليها هذا الكتاب الأمراء ، الرؤساء ، العلماء الخ » . ومعنى ذلك أنه يعود إلى منهجه في تنظيم تسلسل التراجم كما فعل في القسم الأندلسي والقسم المصري من « المغرب » . ولكنا لا نرى هنا أي حديث عن منصة مكة أو تاجها كما هي العادة . والمنهج الذي يتبعه هنا هو إيراد ترجمة للخليفة ثم مجموعة من أخباره الهامة وبعض الحكايات التي تروى عنه ثم نماذج من شعره وبعد الخليفة يأتي على ذكر مشاهير أبنائه وأحفاده مستخدماً المنهج ذاته في الحديث عنهم . وهكذا نراه يبدأ الحديث بترجمة قصيرة عن أبي بكر مع حكايات عنه ، ثم يترجم لإبنيه

---

(1) المصدر السابق ورقة 29 .

(2) المصدر السابق ورقة 82 .

(3) المشرق ورقة 193 وما بعدها .

(4) المصدر السابق .

عبد الله وعبد الرحمن ولحفيده عبد الله بن عبد الرحمن . وبعد ذلك يأتي بترجمة أطول لعمر تشغل الروايات عن اسلامه حيزاً كبيراً منها ثم يترجم لأشهر أبنائه وعلى رأسهم عبد الله بن عمر . يلي ذلك تراجم لعثمان ولأبنائه : سعيد ، وأبان ، وعمرو . وتأتي أخبار علي وبنيه لتستأثر بنصيب كبير من التفصيل فهنا يترجم لعلي ويذكر ما دار بينه وبين معاوية من مراسلات وخاصة في حرب صفين ويعرج على ذكر الرافضة والشيعة ويسهب في حادث مقتله ويختم ترجمته بذكر بعض فضائله وإيراد نبذ من كلامه ثم يشير إلى أنه سيواصل الحديث عنه في السفر الثالث دون أن يذكر سبب ذلك .

وبعد الحديث عن علي يأتي ذكر أبنائه وأحفاده حتى يصل إلى محمد النفس الزكية الذي قتل أثناء ثورته ضد أبي جعفر المنصور . وهو يحرص في كل ذلك على ذكر شعر ورسائل كل من يترجم له . وبعد ذلك يأتي ذكر « من دعى له في مكة بالخلافة » حيث نرى حديثاً عن الزبيريين وثورتهم ، وبانتهاء هذا الحديث ينتهي أيضاً هذا السفر ، ونقرأ العبارة التالية : « كمل السفر الثاني من كتاب « المشرق في ما يحاضر به من آداب المشرق » بمدينة الإسكندرية حرسها الله في غرة صفر سنة ثلاث وأربعين وستمائة يتلوه إن شاء الله من ولي مكة من الأمراء وله ترجمة » ومن هنا نعلم أن القسم الخاص بالجزيرة العربية لم ينته بعد ، وأن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون جزئين من ذلك القسم المتعدد الأجزاء .

ويمكن القول بصورة عامة أن ابن سعيد هنا لم يخرج عن منهجه العام . فالسفر الأول حديث عن فضائل جزيرة العرب بصورة عامة وهو يماثل مقدمة المغرب عن فضائل الأندلس . ثم إن إيراده لسير الخلفاء الأربع وذراريهم ولأخبار الزبيريين وإشارته إلى بدء الحديث عن الولاة في السفر الثاني يدل أنه بدأ الحديث عن « تاج » مدينة مكة التي هي الحاضرة الأولى في بلاد العرب ، تماماً كما فعل عند الحديث عن حاضرة قرطبة ومن وليها من الخلفاء والأمراء .

وأهم المصادر التي اعتمد عليها ابن سعيد في هذين السفرين اللذين اطلعت عليهما من « المشرق » الكتب التالية ، وهي مرتبة حسب التسلسل الزمني :

1 ـ كتاب التاج لأبي عبيدة (ـ 212هـ / 825) اعتمد عليه في معلوماته عن أخبار الجزيرة في العصور القديمة .

2 ـ سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام (ـ 220 هـ / 834) اعتمد عليه في نقل رواية إسلام عمر وفي بعض أخبار علي .

3 ـ صحيح مسلم (ـ 261 هـ / 873) نقل منه أخباراً عن عمر .

4 ـ تاريخ الطبري (ـ 310 هـ / 922) نقل عنه عندما ترجم لعثمان .

5 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (ـ 328 هـ / 938) نقل عنه أخباراً عن علي .

6 ـ مروج الذهب للمسعودي (ـ 345 هـ / 956) نقل عنه أخباراً عن علي .

7 ـ الأغاني لأبي الفرج (ـ 356 هـ / 967) نقل عنه عندما ترجم لأبناء الخلفاء الذين تعاطوا نظم الشعر مثل عبد الرحمن بن أبي بكر . وأبناء عثمان : سعيد وأبان وعمرو .

8 ـ رسائل اخوان الصفاء (أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) نقل عنها معلومات جغرافية في المقدمة .

9 ـ كتاب اختصر فيه والده موسى بن سعيد كتاب « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم (ـ 456 هـ / 1064) استعان به في الحديث عن أنساب القبائل .

10 ـ كتاب العمدة لابن رشيق (ـ 456 هـ / 1064) ذكر ابن سعيد أنه راجع فيه أشعار الخلفاء الراشدين التي افتتح بها ابن رشيق كتابه .

11 ـ كتاب الإستيعاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (463 هـ / 1071) هذا كتاب في التراجم ، وكان جل اعتماده عليه في الترجمة للخلفاء وأبنائهم وقد ذكره مراراً ونقل منه مقاطع عديدة وطويلة ويمكن اعتباره المصدر الأساسي لهذا الجزء من « المشرق » .

12 ـ سراج الملوك للطرطوشي (520 هـ / 1126) نقل عنه حكاية عن إسلام عمر .

13 ـ كتاب أجار أو « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسي (- 564 هـ / 1169) هـو مصدره الجغـرافي الأول وقد ذكـره مراراً في المقـدمة الجغرافية .

وإذا علمنا أن ابن سعيد أكمل كتاب المشرق قبل سفره إلى مكة وأن هذا القسم منه بالذات كتب في الإسكندرية سنة 643 كما أشار ابن سعيد نفسـه أدركنا أن ابن سعيـد قد اعتمـد على المصادر كلياً وأن عنصـري المشاهدة والرواية الشفوية لم يعد لهما أثر في هذا القسم وهذا مما يقلل من قيمته الخاصة وإن أغلب المصادر المذكورة وصلت إلينا . فمعلومات ابن سعيد تعد في هذه الحالة ثانوية ولو أنه أجل إكمال الكتاب حتى زيارتـه للحجاز ومشاهدته لمدنها لجاء كتابه أكثر دقة جغرافياً على الأقل كما هو الحال بالنسبة للقسم الأندلسي والقسم المصري من « المغرب » إلّا أن ابن سعيد على ما يظهر وفر مادة مشاهداته لكتاب آخر هو « النفحة المسكية » الذي ستتم الإشارة إليه بعد قليل ، واعتـمد في تـأليف المشرق أو هـذا القسم الذي وصفته على الأقل ـ على المصادر كلياً لينهيه مع « المغرب » سنة 647 أي قبل أن يتوجه إلى الديار الحجازية .

عنوان المرقصات والمطربات :

هو أحد ثمار كتابي « المشرق » و « المغرب » . قال ابن سعيد أنه لما شاع أمر اشتغاله بهذين السفرين أخذ الناس يتعجلونه في شأنهما « وتكرر الطلب والسؤال قبل أن (ينتهيا) إلى غاية الكمال . فجعلت هذا الكتاب كالمقدمة . . . وصنفته ليكـون كالمـدخل . . وسميتـه عنوان المـرقصات والمطربات »[1] .

ويعتبر هذا الكتاب الذي يشمل نماذج من الشعر والنثر لشعراء العربية

---

(1) المرقصات 3 .

وكتابها منذ العصر الجاهلي حتى عصر ابن سعيد ، وثيقة هامة بالنسبة لمقاييس ابن سعيد النقدية[1] .

رايات المبرزين وغايات المميزين :

لما حل ابن سعيد بمصر بين سنتي 639 ـ 643 واشتهر أمر كتابه (المغرب) رغب إليه الأمير موسى بن يغمور أن يختار له مجموعة طيبة من أشعار أهل المغرب يختارها من سفره الكبير الذي لم يكمل . « وسميته برايات المبرزين وغايات المميزين » المنتقاة من كتاب « المغرب في شعراء أهل المغرب » وطرزته باسم من يتلقى راية المجد باليمين . . مستشار الملوك . . موسى بن يغمور »[2] .

وقد اتبع ابن سعيد في تصنيف هذا الكتاب هدى منهجه المعروف في تصنيفه للمغرب . فقسم الكتاب تقسيماً مكانياً حسب الأقاليم وزمانياً حسب القرون واجتماعياً حسب المكانة الإجتماعية إلّا أنه قصره على الثلاثة القرون السابقة لزمنه فقط وكأنه يريد أن يعطي الأمير والمشارقة فكرة عن نهضة الشعر المغربي في عصور ازدهاره لا كما عرف عنه في عصوره الأولى .

ويتكون الكتاب من أربعة أقسام حسب الأقاليم : قسم خاص بالأندلس يتفرع بدوره إلى أربعة أجزاء : غرب الأندلس ووسطها وشرقها وجزيرة يابسة وقسم ثان مختص بالمغرب الأقصى والأوسط ، وثالث عن أفريقية (تونس) ورابع عن جزيرة صقلية وذكر ابن سعيد أنه فرغ من تصنيف هذا الكتاب سنة 641 هـ[3] وهو شامل لثلاثمئة وأربعة عشر نموذجاً من الشعر[4] .

---

(1) الرايات 6 .

(2) المصدر السابق 114 .

(3) طبع الكتاب في بولاق سنة 1286 هـ كما طبع القسم الأندلسي منه مع ترجمة فرنسية سنة 1949 بالجزائر .

(4) قام المستشرق غرسية غومس بتحقيقه ونشره في مدريد سنة 1942 من مقدمة وترجمة بالإسبانية .

المقتطف من أزاهر الطرف :

هذا الكتاب أغنى في مادته من « المرقص » و « الرايات » فهو يشمل أحاديث نبوية وحكماً ورسائل وحكايات وأشعاراً من المربعات والمخمسات والمتسعات الخ ، وموشحات وأزجالاً . والكتاب مقسم بحسب الموضوع لا بحسب منهج ابن سعيد السابق ومما لا شك فيه أن هذه المادة المتجمعة لديه هي جزء مما جمعه في تنقيبه وبحثه لكتابي المغرب والمشرق .

وقد نشأت فكرة هذا الكتاب من جلسة لابن سعيد مع الملك الأيوبي الناصر أبي المظفر يوسف صاحب حلب . فبينما كانا يتحدثان عن كتابي المشرق والمغرب سأله الملك إن كان سيطول فيهما أم سيختصر . فأجاب « يا خوند ، هكذا يجري لي دائماً . كلما شرعت في مصنف لم تسمح نفسي بأن أجعله صغيراً وآخذ في استيفاء ما أجتمع لي من مواده وأبخل أن أسقط منها إلى أن أضجر وتقع السآمة في بعض مسافاته »[1] .

فنصحه الملك بالإختيار والإختصار تعميماً للفائدة فقال : « قد وقع لي بهذا المجلس المبارك ما رفع عني حجاب الحيرة فكم خبطت عشواء لا أهتدي إلى صباح »[2] .

وحدد له الناصر أن يكون الكتاب في 12 كراسة من الرسم الناصري المستخدم في خزائن الناصر العلمية بحلب .

والظاهر أن ابن سعيد أنهى كتابه عندما عاد إلى تونس بعد رحلته الأولى إذ نراه في المقدمة يمدح المستنصر صاحب تونس قبل أن يمضي في سرد حكايته مع الناصر . في حين أنه لم يفعل ذلك في مقدمتي « الرايات » و « المرقصات » .

---

(1) المقتطف ورقة : 2 ـ 3 .

(2) المصدر السابق ورقة : 2 ـ3 .

(3) المصدر السابق ورقة : 1 .

وقد قسم ابن سعيد كتابه تقسيماً دقيقاً على النحو التالي حسب فصول السنة وشهورها[1] :

الفصل الأول : في أزاهر النثر .
الخميلة الأولى : الكلمات القصيرة على أربع طبقات
الخميلة الثانية : الكلمات المتوسطة على أربع طبقات
الخميلة الثالثة : الكلمات الممتعة على أربع طبقات .

بوبت هذه النصوص حسب أطوالها وعدد كلماتها .

الفصل الثاني : في أزاهر النظم .
الخميلة الأولى : في الأبيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة .
الخميلة الثانية : في الأبيات المخمسة والمسدسة والمسبعة والمثمنة .
الخميلة الثالثة : في الأبيات المتسعة والمعشرة والمكونة من إحدى عشر وإثني عشر بيتاً .

الفصل الثالث : في أزاهر الحكايات .
ويتألف من ثلاث خمائل أيضاً في الحكايات المختصرة والمتوسطة والممتعة .

الفصل الرابع : أزاهر الأوزان المولدة من موشحات وأزجال .
وهو يتألف أيضاً من ثلاث خمائل .

على هذا النسق وضع ابن سعيد منهج كتاب المقتطف ، ولكن النسخة[2] التي بين أيدينا لا تتقيد بالترتيب المذكور . فبعد انتهاء فصل أزاهر النثر مثلاً بخمائله الثلاث لا نرى ذكراً للفصل الثاني بل نصادف هذا العنوان : الخميلة الرابعة المشتملة على الأبيات المفردة والمزدوجة والمثلثة

---

(1) المقتطف ورقة : 5 .
(2) مصورة عن مخطوطة سوهاج ـ 303 أدب .

والمربعة[1] . وهناك المفروض حسب مخطط الكتاب أن تكـون الخميلة الأولى من الفصل الثاني . . وبجانب ذلك نرى أن هذه الخميلة تبتر عند انتهاء الأبيات المزدوجة ونصادف هذا البـاب الذي كـان يجب أن يكون ضمن الفصل الثالث : الطبقة الرابعة من الحكايات الممتعـة[2] . وهناك اختلافات أخرى كثيرة من هذا القبيل .

ومن الجدير بالذكـر أن هذه النسخـة التي يظن أنهـا بخط المؤلف ناقصة من الآخر . ونظراً للإضطراب الحاصل في ترتيب فصول الكتاب لا يعلم بالضبط مدى ما فيها من النقص .

وفي مجال اختيار الأشعار الواردة في هـذا الكتاب يلاحظ أن ابن سعيد يطبق مقياسه النقدي فلا يورد « إلا ما كان هزازاً من طبقة الرقص التي هي أعلى الطبقات وهي التي لا تخلو من غرض تخيل ولطف تحيل »[3] ويكثر من إيراد شعر الغراميات الذي هو من نتاج عصره .

وبالرغم من أن ابن سعيد قسم كتابه على أساس الموضوع لا على أساس المكان والمنزلة كما فعل في « المغرب » فإنه يتأثـر بعض الشيء بمنهجه الأول فنراه في فصل النظم يورد أشعار الخلفـاء أولاً ثم الحسباء والفضلاء . . . الخ وهو التقسيم المتبع في « المغرب » .

ولعل أهم ما في هذا الكتاب الفصل الأخير المتعلق بالموشحـات والأزجال إلّا أن هذا الفصل في النسخة المـذكورة مضـطرب وناقص من آخره .

كتب التواريخ والتراجم

اشتهر ابن سعيد ـ أكثر ما اشتهر ـ بكتابي « المشرق » و « المغرب » بالرغم من أنه مؤلف مشارك فيهما ومكمل لهما وليس مؤلفهما الـوحيد .

---

(1) المقتطف ورقة : 28 .

(2) المصدر السابق ، ورقة 32 .

(3) المقتطف ، ورقة : 28 .

وعمله فيهما قد خضع بلا شك للخطة المرسومة من قبل ولطبيعة المادة التي جمعها أسلافه . وهذا لا يعني أن أثره فيهما أثر ضئيل فهو الذي أخرجهما بصورتهما النهائية وقد يكون أدخل عليهما بعض التعديل والتهذيب . إلاّ أننا إذا أردنا أن نتعرف إلى جهد ابن سعيد الشخصي الخالص فعلينا أن نلتفت إلى كتب كالقدح والغصون فهنا يظهر طابعه الخاص بوضوح أكثر .

القدح المعلى

اطلعت على جزئين من هذا الكتاب بينهما تباين كبير من حيث طبيعة المادة والأهمية . هما « كتاب نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » ، وهو نسخة مصورة[1] وكتاب « اختصار القدح المعلى » في تراجم أعلام أندلسيين من معاصري ابن سعيد ، وهو مطبوع[2] .

ويبدو أن ابن سعيد في هذا الكتاب كان يحاول تصنيف موسوعة تاريخية ـ أدبية جديدة تتناول تاريخ الأمم والرجال منذ العصر الجاهلي ـ أو ربما ـ أقدم من ذلك حتى عصره هو في القرن السابع الهجري . وما الجزءان اللذان أشرت إليهما إلاّ حلقتان في سلسلة موسوعة « القدح » الشاملة . وثمة إشارات واضحة تؤكد ذلك . ففي الصفحة الأولى من كتاب « نشوة الطرب » نقرأ ما يلي : « فهذا القسم الثاني ، وهو القسم الأعظم مما اشتمل عليه كتاب القدح المعلى في التاريخ المحلى : تاريخ الأمة العربية ، وهذا التاريخ مشتمل على كتابين : « كتاب نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » و « كتاب مصابيح الظلام في تاريخ ملة الإسلام » .

وهذا النص يشير أولاً إلى أن هناك قسماً أول من كتاب القدح سبق تاريخ الأمة العربية في جاهليتها وفي إسلامها ، ولعل هذا القسم الأول عن تاريخ بدء الخليقة أو لعله في تاريخ الأمم غير العربية ، إذ أن تسمية القسم الثاني الذي يشمل كتابي « نشوة الطرب » و « مصابيح الظلام »

(1) صورها معهد المخطوطات للجامعة العربية في القاهرة عن مخطوطة بمكتبة توبنجي بالمانيا .
(2) بتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري .

بتاريخ الأمة العربية قد يشير إلى أن القسم الأول هو عن تاريخ الأمم الأعجمية . وثمة كتاب نسبه حاجي خليفة إلى ابن سعيد وقال إنه يقع في مجلدين وهو كتاب « لذة الأحلام في تاريخ الأعجام »[1] ، فهل هذا الكتاب هو القسم الأول من القدح الذي سبق كتاب « نشوة الطرب » ؟ . . أياً كان الأمر ، فالنص المذكور يؤكد وجود قسم أول .
وبالإضافة إلى ذلك فإن النص يخبرنا بوجود كتاب تالٍ لنشوة الطرب وهو « مصابيح الظلام في تاريخ ملة الإسلام » . وكل ذلك يكفي لإعطاء فكرة عامة عن حدود كتاب « القدح » وغرضه .

هذا وتعود الإشارة في نهاية الكتاب إلى أنه المجلد الثاني من كتاب « القدح المعلى » ، وإلى أن الكتاب التالي هو « مصابيح الظلام في تاريخ ملة الإسلام » . كما توجد إشارة أخرى إلى أن كتاب « نشوة الطرب » الذي تحدثنا عنه مكتوب بخط المؤلف نفسه .

وإذا وصفنا كتاب « نشوة الطرب » بأنه كتاب ثانوي في أهميته التاريخية ، فإن القسم الأندلسي من كتاب « القدح المعلى » ، وهو الذي وصلنا باسم « إختصار القدح المعلى » يعتبر من أهم المصادر الأولية عن الثقافة الأندلسية في أواخر عصر الموحدين ، وعن جو أشبيلية العربية خلال الخمسين سنة الأخيرة من تاريخها .

يشتمل هذا الكتاب ـ أو اختصاره الذي اختاره شخص يدعى محمد ابن عبد الله بن خليل ـ تراجم الإثنين وسبعين علماً من أعلام الأندلس المبرزين في ميادين الشعر والأدب والفقه والسياسة ممن عاشوا في عصر ابن سعيد . والغالبية العظمى من هؤلاء التقى بهم ابن سعيد شخصياً وتعرف إليهم عن كثب وربما عاش مع بعض منهم مدة طويلة من الزمن . فمعلومات الكتاب ـ إذن ـ معلومات مباشرة استقيت من أصحابها الأصليين ومن انطباعات المصنف الحي عنهم .

---

(1) حاجي خليفة ، كشف الظنون : 309/5 .

ومنهج ابن سعيد في هذا الكتاب أن يورد اسم المترجم بـه وبلده وشهرته ومكانته وأهميته في صدر الترجمة لإعطاء فكرة عامة تعريفية عنه . ثم يمضي في رواية نتف من أخباره وأشعاره ذاكراً مكان اجتماعه به وكيفيته وزمانه . كما أنه لا يخفي في الأغلب انطباعه الشخصي تجاه المترجم به فتراه يذكر شيئاً عما تراءى له من أخلاقه وطباعه .

وقد أثار محقق هذا الكتاب في مقدمته سؤالين مهمين عنه وهما :

1 ـ هل ما بين أيدينا كتاب مستقل بذاته أم أنه جزء من مصنف تـاريخي كبير ؟

2 ـ هل ما بين أيدينا هو حقاً اختصار عن كتاب أصلي لابن سعيد ، أم أن هذا هو الكتاب الأصلي وأن القول باختصاره مجرد وهم ؟ .

وفيما يختص بالسؤال الأول يبـدو أنه من الأصـوب القول أن هـذا الكتاب ـ رغم طابعه المستقل ـ كان يشكل في تصور ابن سعيد سلسلة في حلقة موسوعية كبيرة ـ كالمشرق والمغرب ـ باسم كتاب « القدح المعلى في التاريخ المحلى » ، الذي تثبت مخطوطة « نشوة الطرب » وجوده وتشير الى بعض أجزائه . ولعل ما اشتهر بأنه « اختصار القـدح المعلى » هو القسم الأندلسي من الكتاب الكبير أو ربما كان فرعاً من قسم أندلسي يشمل كافة العصور ولا يختص بزمن ابن سعيد فحسب كما هو الحال بـالنسبة لهـذا « الإختصار » .

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فإن المحقق يرجح أن ما بين أيدينا هو كتاب أصلي بقلم ابن سعيد نفسه . وأن وجود ترجمة ذاتية لابن سعيد في بدايته مع ورود عبارة في المقدمة تقول : « فهذه نبـذة خاقـانية . . . انتخبتها بقصد الإختصار » هما سبب الوهم وسبب تصور النساخ أن الكتاب مختصر من قبل هذا الشخص الذي لا نعرف شيئاً عنه ، والذي ربما كان من مالكي إحدى النسخ ليس غير .

وبالنسبة لهذه الترجمات أرى ما يلي :

1 ـ إن جميع ما لدينا من معلومات وتصورات عن شخصية ابن سعيد

وعن منهجه في التصنيف تشير إلى أنه لا يمكن أن يترجم لنفسه بالطريقة التي ترجم بها في « اختصار القدح » . فهذه الترجمة كلها تعظيم وتفخيم بشكل لا يمكن أن يصدر عن ابن سعيد الذي ترجم لنفسه بغاية التواضع في مصنفه الضخم « المغرب » عندما جاء الحديث عن أسرة بني سعيد ، والذي أشار إلى نفسه وأورد نماذج من شعره في ختام كتابي « المرقصات » و « الرايات » بإيجاز وتواضع (بينما نجد ترجمته هنا تتصدر الكتاب، فهي أول ترجمة فيه) . والواقع أن إلقاء نظرة على ترجمته في المغرب وترجمته في القدح كافية لإقناع المرء أن ابن سعيد لا يمكن أن يكتب عن نفسه الكلام المذكور في « القدح » :

فهذه خلاصة ترجمة ابن سعيد في المغرب : « هو مكمل تصنيف هذا الكتاب ، ولد بغرناطة . . . ورحل عنها وجال مع أبيه بر الأندلس . . ورحل إلى القاهرة . . ثم عزم على الحج في هذه السنة . . يسر الله ذلك بمنه . . ومن قوله . . »[1] فكيف يتفق هذا الأسلوب الموضوعي الدقيق مع الكلام المذكور في القدح على أساس أنه ترجمة ابن سعيد : « بحر لا يمتطى ثبجه . . علامة الأعلام وراوية الجاهلية والإسلام ، مالك عنان البيان ومصرفه ومسند حديث العلم ومصنفه . إن ذكر التفسير نسي الزمخشري أو التاريخ فمن الطبري ؟ أو التصوف فأين الجنيد والسرى ؟ . . ذلك الذي جاب الأقطار . . در له حلب ، وبالموصل وصل إلى ما طلب . وزار الزوراء فازدراها : . »[2] .

حقاً إن أمثال هذه المبالغات موجودة في كتب التراجم العربية القديمة عندما يتحدث المصنف عن علماء يجلهم ، إما أن يكتب مصنف ـ وكابن سعيد ـ عن نفسه ذلك فما يصعب تصديقه للغاية .

2 ـ إن بقية التراجم يبدو عليها أثر قوي من نهج ابن سعيد وروحه وجميع ما فيها من تفاصيل يدل على أن كاتبها هو ابن سعيد نفسه .

---

(1) المغرب : 172/2 .

(2) القدح : 2 .

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الترجمة الأولى في الكتاب - وهي عن ابن سعيد - ليست بأسلوب ابن سعيد وربما كانت من إضافة المختصر، أما التراجم الأخرى فقد تناولها يد الإختصار والحذف ولكن ما بقي منها يمثل أسلوب ابن سعيد، وقد تكون ناقصة بعض الشيء ولكن لا يظهر عليها آثار للتحريف. وعليه يمكن اعتبار ما يسمى « اختصار القدح » بأنه كتاب أساسي لابن سعيد يمثل منهجه وروحه.

الغصون

هو كتاب تراجم الشعراء والعلماء من المغرب والمشرق الذين شهدوا القرن السابع وتوفوا فيه. اسمه الكامل: « الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة » انتهى ابن سعيد من كتابته سنة 657 عهد إقامته بتونس على ما يذكر في المقدمة.

والقسم الذي وصلنا من الكتاب[1] جميع من ذكروا فيه لا تتجاوز سني وفاتهم سنة 605. وهذا معناه أن ما وصلنا إليه ما هو إلّا جزء من كتاب كبير. وابن سعيد يذكر أن هذا القسم هو الكتاب الثامن من الكتب التي اشتمل عليها جامع طبقات الشعراء الموسوم بـ« الحلة السيراء »[2]. ويظهر أن ما بين أيدينا ليس جزءاً من « الحلة السيراء » فحسب بل هو جزء من هذا الجزء الثامن الذي سمي « الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة »، إذ نرى المصنف يذكر أحد الشعراء عرضاً في ترجمة أبيه المتوفى سنة 601 ثم يقول عنه: « وهو شاعر تقف على ترجمته في سنة اثنتين وخمسين وستمائة »[3] مما يدل أن كتاب الغصون مصنف ضخم لا يساوي القسم الذي بين أيدينا إلّا جزءاً يسيراً منه.

وقد وردت في هذا القسم تراجم لستة وعشرين شاعراً وعالماً من

---

(1) حققه الأستاذ إبراهيم الأبياري، سنة 1945.

(2) الغصون: 1.

(3) المصدر السابق: 34.

المشارقة والمغاربة . ومنهج الكتاب يشبه منهج كتاب القدح . فعند البدء بالترجمة تعطى فكرة عامة عن المترجم به ، ثم تذكر نتف من أشعاره وأخباره . ومصادر الكتاب شفوية وخطية فقد جمع ما سمعه في رحلاته عن أولئك الرجال بالإضافة إلى اعتماده على تقاليد والده وعلى كتب مشرقية ومغربية كمعجم الشقندي (– 627) ومعجم الأدباء لياقوت (– 626) ، وتاريخ حلب لابن العديم (– 660) ، وتاريخ بغداد لابن الساعي (– 674) وتاج المعاجم للشهاب القوصي (– 653) . وقد لجأ ابن سعيد في هذا الكتاب إلى الأسلوب المسجع ـ كما فعل في القدح ـ ولكنه لم يتكلف السجع ولم يتقيد به على الدوام فنراه يبدأ الترجمة بمقدمة مسجوعة حافلة بالمعلومات ثم يقص الأخبار والروايات ـ في الأغلب ـ بأسلوب موجز بريء من السجع .

كتب الجغرافيا

سأتحدث عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافية في الفصل الخاص بذلك ، وأكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه الجغرافي الأوحد الذي اطلعت عليه ، وهو :

بسط الأرض في الطول والعرض[1]

كتاب جغرافي شامل مكثف في مادته يهدف إلى إعطاء صورة كاملة عن البلدان بما فيها من خواص معدنية ونباتية مع تحديد مواقع مدنها وقراها بالدرجة والدقيقة ضمن خطوط الطول والعرض . كما أنه يذكر صفات سكان كل إقليم عند بدء الحديث عنه ويشير أحياناً إلى العادات والتقاليد خاصة إذا كانت غريبة كما يهتم بذكر الغرائب وتقوم خطة الكتاب على تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم تقع كلها إلى الشمال من خط الإستواء . كما تضيف إلى ذلك إقليمين آخرين هما « المعمور خلف خط الإستواء إلى

(1) حققه الدكتور خوان قرنيط خينيست من جامعة برشلونة ، ونشر بالمغرب سنة 1958 .

الجنوب » و « المعمور في شمالي الأقاليم السبعة » . وكل إقليم من هذه الأقاليم ينقسم إلى عشرة أجزاء . ويعتمد ابن سعيد في هذا الكتاب على رحالة يدعوه « ابن فاطمة » خاصة فيما يتعلق بمعلوماته عن غرب أفريقيا ووسطها وشرقها .

كتب لابن سعيد وردت نقول منها

1 ـ **ديوان ابن سعيد** : ذكر المقري أنه رآه وكان مرتباً على حروف المعجم[1] وقد نقلَ في ترجمة ابن سعيد في « النفح » عدداً لا بأس به من قصائده ومقطعاته .

2 ـ **الغراميات** : ذكره ابن تغري بردى[2] ونقل من أوله حكاية مهمة جرت بين ابن سعيد والبهاء زهير حول المقارنة بين الشعر المشرقي والمغربي ، وتكشف هذه الحكاية عن آراء البهاء زهير في شعر ابن خفاجة وابن زيدون كما تكشف إعجاب ابن سعيد الشديد بشعر البهاء . ويبدو أن كتاب الغراميات هذا ـ استنتاجاً من تلك الرواية ومن اسم الكتاب ـ متعلق بالشعر الغزلي .

3 ـ **عدة المستنجز وعقله المستوفز** : ذكره المقري وقال إنه في أخبار رحلته الثانية إلى المشرق . ثم أورد فيه أخباراً عما أنزله التتر بأصدقائه الحلبيين كالناصر الأيوبي وبني العديم ، وفيه ذكر مقتل الناصر على يد هولاكو . وصفه المقري بأنه كتاب « غرائب وبدائع »[3] .

4 ـ **الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد** : ذكره ابن الخطيب والمقري [4] والسيوطي [5] وهو في تاريخ أهله وبلده ونقل عنه المقري رواية

---

(1) النفح : 3/69 .

(2) المنهل الصافي ح 2 ، ورقة 104 ، وقد ذكر حاجي خليفة محرفا باسم الغرائبات ، انظر كشف الظنون : 5/127 .

(3) النفح 3/ .

(4) المصدر السابق 3/ .

(5) حسن المحاضرة 1/266 .

عن اجتماع ابن قزمان الزجال بنزهون القلاعية الأديبة في غـرناطـة بجنته بقرية الزاوية [1] ويبدو أن ابن سعيد لما أرخ في هذا الكتاب لرجالات بني سعيد اتبع ذكرهم بذكـر من مر بقلعتهم من الشعـراء والأدباء وأصحـاب النوادر . وهو قد فعل ذلك في المغرب عندما تحدث عن قلعتهم ورجالاتها بعنوان : « كتاب الطالع السعيد في حلى قلعة بني سعيد »[2] . والظاهر أن هذا الفصل في المغرب هو اختصار للكتاب المستقل السابق الذكر .

5 ـ **كتـاب كنوز المـطالب في آل أبي طالب** : ذكـره التجـاني في رحلته[3] ونقل عنه خبراً عن اجتماع ابن سعيد بـالشريف التـاجوري في حصن الخليل ومصر والشام كما أورد قسماً من ترجمة الشريف ونتفاً من أشعاره التي أوردها ابن سعيد في الكتاب . وقد سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب عند الحديث عن نزعة ابن سعيد المذهبية . هذا وقد أكد وجود الكتاب ابن تغري بردى في المنهل [4] .

6 ـ **كتـاب الزهـرات** : ذكره ابن هـذيـل في كتـابـه « عين الأدب والسياسة » ونقل عنه ثلاث روايات من ملح الأخبار المتعلقة بسلوك الكبراء والرؤساء[5] الرواية الأولى عن الخليفة العباسي المقتدر عندما تباحث مع خاصته في مسألة اضطراب دخل الدولة وطلب منهم تحديد المسؤول عن ذلك ، وكيـف أن أحد مرافقيه وهو أبو عيسى ، ألقى اللوم على الـوزراء الذين يتلاعبون بأموال الرعية ولا يخافون سلطة الخليفة مبيناً له الشـروط الواجب توفرها في الوزير الصالح مما جعل المقتدر يطلب منه تولي الوزارة بنفسه . أما الرواية الثانية فهي عبارة عن بضعة أبيات لأبي دلف العجلي

---

(1) النفح 6/32 .
(2) المغرب 2/159 ـ 186 .
(3) رحلة التجاني 308 .
(4) المنهل الصافي ح 2 ورقة 453 .
(5) ابن هذيل ، عين الأدب والسياسة ، (على هـامش « غرر الخصـائص » للوطواط) ص : 163 ، 185 ، 186 .

حول موضوع الكرم والبذل وعدم الإهتمام بتقلبات الدنيا ، ومن ضمنها البيت المشهور :

فـلا الجود يفنيهـا إذا هي أقبلت
ولا البخـل يبقيهـا إذا هـي ولـت

أما الرواية الثالثة فيرويها ابن سعيد عن صديقه كمال الدين بن العديم الذي يرويها بدوره عن قاضي حلب بهاء الدين بن شداد . وفحواها أن ابن العديم في صغره زار هذا القاضي وهو مريض . . مع بعض أترابه الصغار ـ فقام لهم القاضي من فراش المرض وأظهر لهم الإحترام ولم يمنعه وهو القاضي الشيخ المريض أن يبالغ في الترحيب بزواره الصغار .

ويبدو من هذه الحكايات الثلاث ـ إذا أمكن اعتبارها نماذج معبرة صالحة ـ أن كتاب الزهرات يتناول آداب السلوك وسياسة الملك وبليغ الحكم عن طريق إيراد روايات تدور حول تلك الموضوعات وتتعلق بسير الامراء والمشاهير ومما يقوي هذا الإستنتاج أن ابن هذيل ينقل عن كتاب « الزهرات » في كتابه الموسوم بـ « عين الأدب والسياسة » وهو كتاب يدور حول الموضوع ذاته .

كتب أخرى منسوبة لابن سعيد :

إكمالاً لخطة البحث أورد هنا قائمة بأسماء الكتب التي نسبتها المصادر لابن سعيد ، أو التي وردت عنها إشارات عابرة في كتبه السابقة .

1 ـ **ملوك الشعر** : نقل المقري عن ابن سعيد قوله : « ولما جمعت للملك الناصر كتاب « ملوك الشعر » جعلت ملك شعر الشهاب التلعفري البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة » ـ وكان المقري قد أورد قصيدة هذا بيتها الرابع :

وتفـردت بـالجمـال الـذي خـلاك
مـسـتـوحـشـاً بـغـيـر رفيـق[1]

---

(1) النفح 3/62 ـ 63 .

وقد ذكر كتاب « ملوك الشعر » أيضاً ابن شاكر في الفوات[1] . ويتضح من العبارة المتقدمة أن المقصود بملوك الشعر أبيات معينة يرى ابن سعيد أنها تستحق أن تكون بمثابة الملوك في دنيا الشعر . وإذا صح ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر وثيقة مهمة بالنسبة لآراء ابن سعيد النقدية ـ إلى جانب كتاب « المرقصات » .

2 ـ **الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة** : بعد أن أشار ابن سعيد الى « ملوك الشعر » وأبيات الشهاب التلعفري قال : « والتشفي من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب « الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة »[2] ويبدو أن هذا الكتاب يشبه إلى حد كبير كتاب « الغصون » وربما كان الإسمان لكتاب واحد فالشهاب التلعفري يمكن أن يترجم له في الغصون كشاعر من القرن السابع .

3 ـ **كتاب العنوان** « في تسمية من لقيته من الأعلام وطالعته من الكتاب ودخلته من البلدان »[3] .

4 ـ **كتاب الماشطة** « التي تجلى بها عرائس الأشعار في منصة المفاخر وتحلى بتزيينها في الأسماع والخواطر » . والماشطة كتاب يتحدث عما « يقع على الأشعار المرقصة والمطربة والمقبولة » من الكلام[4] . وظاهر أن هذا الموضوع يكاد يتطابق مع موضوع كتاب « المرقصات » .

5 ـ **النفحة المسكية في الرحلة المكية** : كتاب عن رحلة حجة[5] .

6 ـ **المرزمة** : كتاب « يشتمل على وفر بعيد من رزم الكراريس لا

---

(1) فوات الوفيات 2/112 .
(2) النفح 3/63 .
(3) المقتطف ، ورقة 6 .
(4) المقتطف ورقة 6 .
(5) النفح 3/40 .

يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والإخبارية إلاّ الله . . . »[1] . وذكر ابن رشيد في رحلته الكتب التالية لابن سعيد[2] .

7 ـ الخدود الموردة في محاسن الأوزان المولدة .

8 ـ تفريج الظلام وترصيع العالم بالأعلام .

9 ـ رقم الحلل في معرفة الملوك والدول .

10 ـ السحر المذاب في طبقات الخطباء والكتاب . . .

11 ـ الشجرة المثمرة بالأعلام المشتهرة .

12 ـ المهاد في أوضاع البلاد .

13 ـ جنى النحل .

14 ـ ريحانة الأدب .

15 ـ غنج المحاضرة .

16 ـ اللمحة البرقية .

17 ـ ملوك الكلام .

ونسب إليه حاجي خليفة ما يلي :

18 ـ تاريخ ابن سعيد « وهو كتاب كبير مرتب على السنوات »[3] .

19 ـ وله كتاب « تاريخ صغير أيضاً ذكر فيه من لقيه من المتأخرين »[4] .

20 ـ كتاب « المغرب عن سيرة ملوك أهل المغرب »[5] .

---

(1) المصدر السابق 3/38 ، الديباج المذهب 209 .
(2) انظر لوحة رقم 4 بمقدمة « الغصون » والمقدمة ذاتها .
(3) كشف الظنون : 2/30 .
(4) كشف الظنون : 9/10 .
(5) المصدر السابق 2/151 .

21 ـ ريحانة الأدب في المحاضرات : « جمع فيه عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار »[1] .

22 ـ الملتقط من السلك من حلى العروس الأندلسية[2] ، ويقرب هذا العنوان من جو كتاب « المغرب » .

23 ـ « نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح »[3] .

***

وقبل اختتام الحديث عن مصنفات ابن سعيد ، لا بد من كلمة تحفظ وحذر إزاء هذا العدد الهائل من الكتب التي تنسب له . وربما أمكننا تعليل هذه الظاهرة بملاحظة الأمور التالية :

1 ـ إن ابن سعيد يفكر في وضع كتاب كبير ويرسم له مخططاً واسعاً ، ثم ينشغل ويتطاول الزمن فإذا لم تسعفه الظروف العملية على تنفيذ الخطة تقاعس عن إتمامها ، بعد أن يكون قد أشار إلى اسم الكتاب وفكرته في مصنف سابق مما يؤدي إلى إدخاله ضمن مؤلفاته الجاهزة .

2 ـ وهو أحياناً يختصر فكرته إلى كتيب صغير إذا كانت الظروف ملحة كما فعل عندما أخرج « المرقصات » و « الرايات » لينوبا مؤقتاً عن « المغرب » و « المشرق » فربما كانت معظم تلك الأسماء الواردة إشارة إلى كتيبات من هذا النوع لم تتبع بالكتب الكبيرة الأصيلة .

3 ـ نرى أن ابن سعيد يسمي كل فصل في مؤلفاته « كتاباً » وهذا من شأنه أن يؤدي إلى إيهام النساخ والوراقين ـ في حالة تبعثر الكتاب الشامل ـ بأن كل فصل يمثل كتاباً قائماً بذاته .

4 ـ منهجه في التأليف : طابعه وخصائصه :

يبدو ابن سعيد في القرن السابع وكأنه نقطة التقاء وتوفيق بين عدة

---

(1) المصدر السابق 3/524 .
(2) كشف الظنون 6/108 .
(3) المصدر السابق 6/296 .

مذاهب في التصنيف بل بين عدة فروع من المعرفة . ففيه التقى تيار التاريخ الأدبي الأندلسي المتمثل في الفتح بن خاقان وابن بسام وابن اليسع وابن الإمام ، بتيار التصنيف الجغرافي الذي كان مستقلاً في مجراه ومتمثلاً في عبد الله بن عبد العزيز البكري والشريف الادريسي وابن جبير . وهكذا نرى ربما لأول مرة في تاريخ الثقافة الأندلسية عالماً يجمع بعمق وشمول بين الجهود الأدبية وجهود الجغرافية والرحلات فيؤلف كتباً معتمدة في الأدب ، وكتب معتمدة اخرى في الجغرافية ، بل ويستطيع أن يوفق بين التيارين بدقة كما أظهر في حسن تطبيقه لخطة المغرب وحسن إدراكه لمراميها وأهدافها تلك الخطة التي قامت على دمج متين بين التاريخ الأدبي والتصنيف الجغرافي ـ لا لغرض التنويع والإستطراد ـ ولكن بقصد خلق منهج دقيق يضع الشعر والشاعر في بيئته الجغرافية المحددة وفي زمانه الخاص وفي طبقته الإجتماعية المحددة. ولعل ابن سعيد في الأندلس يمثل من حيث هذا الدمج ـ الظاهرة التي يمثلها ياقوت الحموي في المشرق . فقد جمع هو الآخر بين الأدب والجغرافية بشكل موسوعي ـ وإن كان بطريقته الخاصة التي تختلف عن طريقة ابن سعيد ، خصوصاً فيما يتعلق بكتاب « معجم البلدان » ومن الطريف أن الإثنين كانا يعيشان في القرن السابع (وإن كان ياقوت شهد جزءاً من القرن السابق) وكأن ظاهرة الإلتقاء بين التصنيف الأدبي والتصنيف الجغرافي من المميزات الثقافية لهذا العصر بحيث أبرزت نفسها بشكل قوي واضح عند علمين من كبار مصنفيه ، وفي المشرق والمغرب على حد سواء .

وفي حقل التصنيف الأدبي نرى ابن سعيد أيضاً يمثل مذهبين في التصنيف ، ففي المغرب سار على خطة التقسيم المكاني كما فعل ابن بسام في الذخيرة ، ولكنه لم يسمح للسجع أن يضيع المادة العلمية الدقيقة الهائلة المتجمعة عنده فصب معلوماته في أسلوب موجز دقيق لا يتكلف سجعاً ولا تحلية لفظية ، والواقع أن ذلك من فضائل المغرب الكبرى فبالرغم من ظهوره في القرن السابع لم يسمح مكملة ابن سعيد لتلك الظاهرة الشكلية أن تسيطر عليه فهو بريء تماماً من السجع عدا مقدمته .

غير أن ابن سعيد وفر براعته اللغوية وفنه النثري لكتب أخرى فنراه في « القدح » و« الغصون » يفتتح التراجم بمقدمة سجعية ذاكراً فيها محاسن المترجم به وأفضاله كما فعل من قبله الفتح في « المطمح » و« القلائد » وابن بسام في « الذخيرة » وابن الإمام في « سمط الجمان » وحتى في كتابي « القدح » و« الغصون » لم يؤثر السجع كثيراً في غزارة المادة العلمية فنرى العبارات المسجوعة ذاتها مليئة بالمعلومات المكثفة من مثل :

« شاعر مجيد ، وحبيب مريد ، بيته في قرطاجنة من عمل مرسية مشهور ، وشعره يطوي الأقطار وذكره منشور ، وهو في نظمه طويل النفس منير القبس مقتدر على حوك الكلام مديد الباع في ميدان النظام ، لا يخلو من الألفاظ المبتدعة ، والمعاني المولدة المخترعة ، رحل إلى المغرب فاشتهرت له به قصائد ، لم يخل نظمها من فرائد ، ثم قصد هذه الحضرة العلية ، في الدولة الأميرية ، فكانت له أمداح ، كطلوع أنوار الصباح . . . »[1] .

فمن هذه المقدمة السجعية نستطيع أن نستخرج معلومات كثيرة عن المترجم به وموطنه ومذهبه في الشعر ورحلاته ومدائحه واتصالاته ، وذلك أمر نادر في المقدمات السجعية الفارغة التي تحفل بها المصنفات القديمة ذات الصبغة الأدبية عامة ، التي تمتاز بمبالغاتها وتضخيمها للمترجم بهم دون أن تقدم مادة تستحق الذكر . وهذه الصفة في مؤلفات ابن سعيد تستحق إعجاب الباحث الحديث بلا شك ، وإذا جاز لنا أن نفسر عدم إسراف ابن سعيد في السجع المتكلف الفارغ رددنا ذلك إلى تمكن الدقة العلمية ـ الجغرافية منه فهي تدعه يترك العنان لذوقه الأدبي ولكنها لا تتركه يضحي بالمادة العلمية في سبيل عبارات منمقة .

هذا وقد لاحظنا أن ابن سعيد يعتمد على ثلاثة مصادر أساسية لمعلوماته : الكتب والرواية الشفوية ، والمشاهدة . وهذه المصادر الثلاثة

---

(1) القدح 20 .

مجتمعة تعطي مصنفات ابن سعيد أهمية بالغة . فبأخذه من المصنفات القديمة يحفظ نبذاً مهمة من مصادر أولية قد تتعرض للضياع ، وباعتماده على الرواية الشفوية يقدم المعلومات موثوقة مباشرة من أفواه الذين تتعلق بهم وهذا ما يمتاز به « المغرب » و « القدح » على وجه العموم أما المشاهدة فإن لها أهمية في الجغرافية من حيث وصف الطبيعة والعمران وأزياء الناس وعاداتهم وهذا ما فعله ابن سعيد في وصفه الأندلس بمقدمة « المغرب » ووصفه لمدينة مراكش والقاهرة والفسطاط .

ويتصف منهج ابن سعيد على العموم بالخصائص التالية :

1 ـ تحديده لخطته وغرضه بوضوح : عودنا ابن سعيد في كل كتبه التي وردت إلينا كاملة أن يحدد غرضه من تصنيف الكتاب وخطته في التصنيف . فهو يفعل ذلك في « الرايات » و « المقتطف » و « المرقصات » و « المغرب » وهو في الأغلب يتبع ما يخطط بدقة .

2 ـ دقته في التقسيم والتبويب : وهذه ميزة بارزة في مصنفات ابن سعيد . فهو يقسم كتابه إلى أجزاء رئيسية ثم يقسم تلك الأجزاء إلى فصول وأبواب حسبما يتطلبه الموضوع . ففي كتاب المغرب الخاص بالأندلس نراه يقسم الكتاب إلى أقسامها الجغرافية الرئيسية . ثم يعود فيقسم تلك الأقسام إلى ممالك والممالك إلى مدن ، ويعتبر الحواضر عرائس لها منصتها وتيجانها وحليها وأسلاكها وأهدابها . وفي « المقتطف » نراه يقسم الكتاب حسب فصول السنة ثم يقسم الفصول إلى خمائل بعد الشهور ، وفي « الغصون » نراه يقسم الكتاب حسب تواريخ الوفاة ، وفي المرقصات يتبع الترتيب المكاني والزماني ، وفي « الرايات » يخضع لنهجه العام في « المغرب ». وهذه الدقة في التقسيم والتبويب تعكس ذهنيته المنظمة ، الميالة إلى الدقة التفصيلية ، كما تعكس تأثره باتجاه الميل نحو التبويب الدقيق الذي كان سائداً في حقل التصنيف عندئذ ، وهي من ناحية أخرى تظهر غرامه بالزخرف والتنميق كما فعل في « أزاهر » المقتطف و « عرائس » المغرب .

3 ـ حرصه على الإحاطة والشمـول : يحرص ابن سعيـد على أن تكون مصنفاته محيطة شاملة حتى المختصرة منها وهو بهذه النزعـة يمثل الإتجاه السائد في عصره أيضاً ، فلقد كان أمام المؤلفين عندئذ مادة ضخمة تتوزع في عالم واسع يمتد خلال تاريخ طويـل حافـل ، وكان لا بـد من الإحاطة والشمول لإعطاء الصورة كاملة . ويعبر ابن سعيد عن هذه النزعة في نفسه حين يقول : « كلما شرعت في مصنف لم تسمح نفسي بأن أجعله صغيـراً وآخـذ في استيفـاء مـا اجتمـع لي من مـوادّه وأبخـل أن أسقط منها . . . »[1] .

4 ـ حرصه على ذكر مصادره : هذه ظاهـرة بارزة في مؤلفـات ابن سعيد الكبرى الهامة خاصة كالمغرب والقدح والغصون . فابن سعيد إما أن يذكر اسم الكتاب الذي ينقل منه أو اسم الشخص الـذي يروي عنـه أو يقول : شاهدت كذا . . . أو وقـع لي كذا . . وينـدر أن تجد خبـراً في مصنفات ابن سعيد الهامة غير مسند .

5 ـ أمانته وحياده : تتضح أمانة ابن سعيد في ذكره للوقائع مجردة حتى ولو لم تكن في صالح بلده أو أسرته أو أصدقائه المقربين أو أساتذته . فنـراه يورد قـول ابن حوقـل عن ضعة نفـوس الأندلسيين وصغـر عقولهم بالتفصيل ، وقبل أن يرد عليه يقول : « لم أر بداً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى . . »[2] وهو عندما يترجم للأعمى المخزومي يورد له هجاء مقذعاً في أسرة بني سعيد دون أن يعلق عليه[2] وعندما يترجم لابن سهل الإسرائيلي نراه يسجل شكوكه حول عقيدته وإن كان هو يرغب ألّا تكون هذه الشكوك صحيحة[3] . ويحاول قدر جهده أن ينصف من يترجم لهم فتراه يذكر ما يشتهرون به من علم أو كـرم

---

(1) النفح 1/197 .
(2) المغرب 1/226 .
(3) القدح 74 .

أخلاق بجانب ما عرف عنهم من غفلة ، أو بـلاهة ، أو قبـح منظر ، أو نقائص أخلاقية ودينية . ويروي ابن سعيد أن الملك الناصر سأله : « كيف يكون لسانك فيمن تذكر من الماضين والمعاصرين ؟ فأجابه : « عهد إليّ (والدي) ألاّ أنقل فيما اضيفه ذم أحد بنثر ولا بنظم ولا أصنع مثل ذلك لحنق على أحد أو لفضول لسان »[1] .

ويبدو أحياناً أن ذكر الواقع مجرداً فيه إساءة لمن يخصهم الأمر غير أن أكثر الوقائع التي ذكرها ابن سعيد من هذا القبيل مكّنتنا من فهم طبائع القوم ونفسياتهم . وإذا كان ثمة مأخذ على ابن سعيد في هذا المجال فهو إسرافه أحياناً في ذكر الفضائح الغلمانية لغرض الإمتاع ليس غير، يتضح هذا المأخذ بشكله الضخم في ترجمة ابن الياسمين في « الغصون »[2] إذ أورد أخباراً تنضح بالفحش ويأباها الذوق وإذا كانت تلك الأخبار مادة مفيدة لنا الآن فإن نشرها عندئذ في كتاب ليس بأقل من تشهير علني في شخص لم يمر على وفاته أكثر من ثلث قرن . ولا ندري إن كانت تلك الأخبار مرغوبة لـدى الناس إلى هذه الدرجة عندئذ أو أن « حس الرواية » سيطر على ابن سعيد بسبب ضخامة مروياته فاصبح لا يقاوم الرغبة في تسجيل كل ما حصل عليه من مادة . وأيّاً كان الأمر فإن ابن سعيد عادة لا يتعمد التشهير أو الإساءة وربما كان ما يذكره حقائق معروفة في زمنه .

6 ـ ميله إلى التقييم والحكم : ولا يتبادر إلى أذهاننا أن ذلك مناقض لما أوردناه عن أمانته وحياده فإن ابن سعيد يروي لنا كل شيء خيراً أو شراً . ولكنه في الوقت ذاته يحرص على أن ينقل لنا رأيه وانطباعه أو تقييمه للشعر أو الشخص أو الخبر فهو مثلاً يعلق على شعر أستاذه الشلوبيني بقولـه : « وشعره على تقدمه في العربية في نهاية التخلف »[3] ويصف خلق أستاذه

---

(1) المقتطف ورقة 3 .

(2) الغصون 42 ـ 50 .

(3) المغرب 2/129 .

البطليوس بقوله : ولم أر في أشياخ الأدب أصعب خلقاً منه »[1] . ويصف خلق أبي الحجاج بن عتبة الوشاح قائلاً : كان ظاهر الهرج ، وافر الإنزعاج . . وكان مشاركاً في الطب والأدب حائزاً بأسبابها فتراه هنا يذكر رأيه في الرجل ولكنه ينصفه بذكر مواهبه مما يدل على أن أحكامه وتقييماته لا تمنعه من ذكر الحقيقة .

5 ـ أهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

نوجز أهمية مصنفات ابن سعيد بالنسبة للدراسات الحديثة ، فيما يلي :

1 ـ يعتبر كتابه المغرب أهم مصدر للأدب الأندلسي عبر عصوره وخاصة في عهد الموحدين ، فالمادة الشعرية الكبيرة التي يوردها والأخبار التاريخية والثقافية والعمرانية التي يذكرها تمثل مستنداً أولياً هاماً لأي دراسة للثقافة الأندلسية أو الشعر الأندلسي أو الموشحات والزجل في الأندلس .

2 ـ إن كتابه « القدح » بما يعتمد عليه من رواية شفوية مباشرة يعتبر وثيقة هامة لدراسة الحركة الثقافية في اشبيلية خاصة والأندلس عامة .

3 ـ يمكن اعتبار كتابه « الغصون » في طليعة المصادر التي يرجع إليها في دراسة الشعراء والعلماء الذين أورد تراجمهم بسبب اعتماده على عدة أصول أقدم منه بالإضافة إلى الإستعانة بالرواية الشفوية .

4 ـ نلاحظ أن ما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن الموشحات ـ وهو من المراجع الهامة لدراسة الموشح الأندلسي ـ نقله ابن خلدون بدوره عن « المقتطف من أزاهر الطرف » لابن سعيد الذي استقاه من مسهب الحجاري ، وهو لم يصل إلينا .

---

(1) المصدر السابق 1/169 .　　(2) القدح 161 .

5 ـ حفظ لنا ابن سعيد في مصنفاته الجغرافية أقوالاً لجغرافيين لم يصل أي شيء عنهم كابن فاطمة الذي تعتبر مصادر ابن سعيد المستند الأوحد لدراسته .

6 ـ يمكن استخدام كتب ابن سعيد وخاصة المغرب (القسم الأندلسي والقسم المصري) في تحقيق المصادر القديمة التي أخذ منها كالإستيعاب والذخيرة وتاريخ ابن حيان ، وفي الوقت ذاته يمكن الإستفادة منها في تحقيق المصادر التي ألفت من بعده كصبح الأعشى ونفح الطيب .

وإذا كانت مؤلفات ابن سعيد تمثل هذه الأهمية بالنسبة للباحث الحديث ، فإن المصنفين القدامى لم يجدوها أقل فائدة أو أهمية . وفي طليعة هؤلاء أبو الفداء والعمري وابن دقماق والمقريزي والقلقشندي والمقري . فقد اعتمد كل واحد من هؤلاء في أعماله العلمية على مصنفات ابن سعيد ، فاعتمد أبو الفداء اعتماداً كبيراً في كتابه « تقويم البلدان » على ما خلفه ابن سعيد من معلومات عن بلاد المغرب ، وإذا كان أبو الفداء قد شك في بعض ما نقله عنه فإن ذلك لا يقلل من أهمية المادة التي استقاها منه .

أما القلقشندي فإنه اعتمد على ابن سعيد في مؤلفاته الثلاثة : قلائد الجمان ونهاية الأرب ، وموسوعته : صبح الأعشى ، خاصة فيما يتعلق بأنساب الشعوب والقبائل وفيما يختص بمواقع المدن[1] . وإذا قلنا أن المغرب هو المصدر الأول والأوسع للنفح فإنا لا نتجاوز الحقيقة فالمواضع

---

(1) انظر : القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان ، ص : 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 32 ، 47 ، 51 ، 72 ، 118 ، 120 ، 122 ، وكذلك نهاية الارب ص : 27 ، 28 ، 401 ، وكذلك صبح الأعشى ، ح 3 ، 235 ، 240 ، 242 ، 245 ، 246 ، 248 ، 290 ، 330 ، 348 ، 392 ، 395 ، 401 ، 406 ، ح 4 ، 98 ، 107 ، 111 ، 117 ، 124 ، 127 ، 131 ، 249 ، 320 ، ح 5 ، 13 ، 215 ، 40 ، 70 ـ 72 ، 80 ، 100 ، 153 ، 168 ، 220 ، 282 ، 326 ، 406 .

التي ينقل فيها المقري عن ابن سعيد ويذكره كثيرة[1]، أما المواضع التي يغفل ذكره فيها فهي أكثر . ويشير الدكتور شوقي ضيف إلى هذه المسألة قائلاً : « وبمجرد أن يخرج هذا النص (أي المغرب) للباحثين سيرون رأى العين أن « نفح الطيب » إذا استثنينا مقدمة المقري عن رحلته إلى المشرق وبعض من ترجم لهم ممن حجوا البيت الحرام وما كتبه عن إخراج المسلمين من الأندلس ليس إلاّ نقولاً عن «المغرب » . . . ونحن إنما نلفت النظر إلى ذلك ليتضح أن هذا النص يحمل بين دفتيهٔ الأصل الحقيقي لما في « نفح الطيب من أشعار الشعراء وأخبارهم حتى ينتفع به في إخراج نشرة جديدة « للنفح » تخلو من الأغلاط والأخطاء »[2] .

وقد اكتسب ابن سعيد شهرة كبيرة بسبب مصنفاته الهامّة ، فاحتفل به جميع من صنفوا له من القدماء فوصفه ابن الخطيب بأنه « واسطة عقد بيته ، وعلم أهله ، المصنف والأديب الرحال ، الإخباري ، العجيب الشأن في التجول في الأقطار ومداخله الأعيان للتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية »[3] . وقال عنه المقري : « أديب زمانه غير مدافع من اعترف له أهل المشرق بالسبق وأهل المغرب بالإبداع . . . »[4] وأورد ابن فرحون في ديباجه الخاص بعلماء المالكية ترجمته إجلالاً لمكانته العلمية[5] . ووصفه ابن فضل الله العمري بأنه « أديب مبدع ، ولبيب ممتع . . . وكان أجم من البحر إمداداً . . . وله الكلام الصافي البرود . . . »[6] .

---

(1) انظر نفح الطيب : ح 1 ، 126 ، 147 ، 166 ، 168 ، 196 ، 267 ، ح 3 ، 30 ـ 75 ، ح 4 ، 105 ، 171 ، 282 ، ح 5 ، ترجمة ابي جعفر ابن سعيد كلها ، ح 6 ، 31 ، 32 ، 371 .

(2) مقدمة المغرب ص 19 .

(3) النفح 3/39 .

(4) المصدر السابق 35 .

(5) الديباج المذهب 208 ـ 209 .

(6) مسالك الأبصار ح 8 ، ورقة 382 .

وشارك الباحثون المحدثون القدماء في تقديرهم لابن سعيد فهذا الدكتور زكي محمد حسن يشير إلى أن ابن سعيد يعتبر أدق مؤرخي القرون الوسطى من حيث إسناد رواياته فيقول : « ابن سعيد مثال يحتذى به في هذه الناحية . . . وإذا تذكرنا أن ذكر المصادر كان نادراً بين المؤرخين الإغريق والرومان . . . قدرنا هذا الفضل للمؤرخين المسلمين ، ولا سيما لمن كان منهم مثالاً طيباً في هذا الميدان كعلي بن موسى بن سعيد »[1] .

ويعتبر المستشرق هاملتون جب ابن سعيد مثالاً للمؤرخين المغاربة الذين امتازوا بحيادهم ودقتهم : « . . . وأشد التواريخ العامة المتأخرة بالعربية أهمية لتدوين التاريخ كتبت في الأندلس والمغرب ، وإذا قارنا بما كتب في زمنها في المشرق نجد لدى كتاب المغرب مفهوماً أوسع للتاريخ وتصوراً أقل تحيزاً . ولم يبق من الكتب التاريخية الكثيرة التي ألفها ابن سعيد المغربي . . . إلاّ أجزاءً متفرقة ، ولكنها تكفي لأنْ تبين لنا أنه اعتمد في كتابتها نسخاً دقيقة عديدة عن كثير من الكتب السابقة »[2] .

ويتحدث المستشرق كراتشكوفسكي عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافية ، ثم يقول : « وكل هذه الإعتبارات . . . تقف دليلاً على أن جغرافيا ابن سعيد تستحق اهتمام البحاثة المعاصرين . . . » إذ لم يكن ابن سعيد « مؤلفاً مغموراً سواء عند العرب أو العلماء الأوروبيين . . . »[3] .

والواقع أننا إذا لاحظنا أن ابن سعيد لا يتمتع بالشهرة التي يستحقها في الوقت الحاضر فإن ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى أن أهم مصنفاته طبعت في فترة متأخرة مما لم يتح المجال الكافي لرواج ذكره في أوساط دارسي الأدب ومحبيه .

***

---

(1) مقدمة المغرب (قسم مصر) : م 37 .
(2) هاملتون جب ، دارسات في حضارة الإسلام ، ص 167 .
(3) كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافي العربي ، ص 359 .

الفصل الرابع

ابن سعيد الرحالة الجغرافي :

تصوّرات مغربية لجغرافية المشرق

1 ـ مصادر دراسة جغرافيته

2 ـ جهوده الجغرافية وأنواعها

- الجغرافيا الأدبية عند ابن سعيد
- أدب الرحلة عند ابن سعيد
- التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد

1 ـ مصادر دراسة جغرافيته

إن أي دراسة شاملة ومستعصية لجغرافية ابن سَعيد لا بد وأن تستند إلى المصادر الأساسية التالية :

1 ـ المقدمات الجغرافية التي صدّر بها «المغرب» و«المشرق»، فقد قدّم للقسم الأندلسي من « المغرب » بمقدمة جغرافية مسهبة تعد وثيقة هامة للتعرف إلى أحوال الأندلس الطبيعية والعمرانية والبشرية والإجتماعية والثقافية ، وهذه المقدمة احتفظ لنا المقري بأجزاء منها في الباب الأول من النفح وكان جل اعتماده عليها في تبيان فضائل الأندلس[1] .

أما مقدمته « للمشرق » فقد تضمنت نبذة جغرافية في صورة الأرض وأقاليمها السبع ، كما مهّد للقسم الخاص بجزيرة العرب من الكتاب بوصف جغرافي لها[2] . يضاف إلى ذلك النبذ الأدبية ـ الجغرافية القصيرة التي كان يعرّف بها كل مدينة يبدأ التحدث عنها في المغرب وذلك تحت عنوان « المنصة » إذا كانت حاضرة كبرى أو بعنوان « البساط » إذا كانت مدينة عادية .

2 ـ مذكرات رحلته إلى الفسطاط والقاهرة[3] . وهذه المذكرات

---

(1) النفح 1/124 ـ 213 .

(2) المشرق ، الأوراق 9 ـ 26 ، 28 ـ 56 (نسخة مصورة) .

(3) المغرب (قسم مصر) 5 ـ 11 ، وكذلك النفح 3/103 ـ 114 .

تندرج من الناحية الشكلية تحت « منصة » مدينتي الفسطاط والقاهرة وكان من الممكن اعتبارها من ضمن تعريفاته الجغرافية ـ الأدبية للمـدن ولكن حجم هـذه المذكـرات وأهميتها يجعـلان منهـا أكثـر من مجـرد تعـريف جغرافي ـ أدبي موجز .

3 ـ كتبه الجغرافية الخالصة : وقد وردت أسمـاء ثلاثـة منها وهي كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبع ، وكتاب وصف الكون ، وكتاب بسط الأرض في الطول والعرض . والكتاب الأول ـ ويبدو أنه الأصلي ـ لا نعرف عنه شيئاً . أما الثاني ـ وهو المعروف بوصف الكون ـ فتوجد منه مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطاني . وهذا الكتاب اختصار عن الأول ، وهو يضم خريطة دقيقة وغنية بالأسماء الجغرافية[1] وأما الثـالث ـ وهو بسط الأرض في الطول والعرض ـ فهو مطبوع[2] ، ويعتقد أنه من مختصرات الكتاب الأول أيضاً إلاّ أنه أقل جودة من « وصف الكون »[3] وهكذا فنحن أمام كتاب جغرافي كبير ومختصرات متفـرعة عنـه ، ويشير المستشرق الروسي كراتشكوفسكي إلى أن « المشكلة المتعلقة بمسودات هـذا الكتاب ومختصـراته لا يمكن القـول بـأنهـا قـد حلت تمـامـاً . . . (و) . . . عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا يقف حجر عثرة في سبيل دراستـه دراسة صحيحـة »[4] والواقـع أن هذا الكتـاب ومختصـراتـه هي المصادر الأولى لدراسة المنحى الجغرافي الخالص عند ابن سعيد ، الذي استقل عن منحاه الأدبي وأصبح جهداً قائماً بذاته .

هذا ولم أتمكن من الإطلاع إلاّ على الكتاب الأخير المطبوع وهو كتاب « بسط الأرض في الطول والعرض » . وعليه فلهذا السبب ، ونظراً لأن الدراسة الجغرافية العلمية خارج مقدور دراستي هذه ، فإن هذا الفصل

---

(1) A. kammerer: La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie Etc. & I.P. 48 et p1. XII.

(2) حققه الدكتور خ . ف . خينيس ونشر في تطوان سنة 1958 .

(3) تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1/358 ، وكذلك مقدمة « المغرب ـ قسم مصر » ص م 21 .

(4) تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1/357 ـ 358 .

عن جغرافية ابن سعيد سيهتم بالتعريف بجهود ابن سعيد الجغرافية والتنبيه على مكانته ، دون أن يلتزم بنقد أو تقويم فيما يتعلق بأعماله الجغرافية العلمية الخالصة .

أما ما اندرج من كتاباته الجغرافية ضمن « الوصف العام » أو « أدب الرحلة » فسأعالجه بشيء من التحليل قدر المستطاع .

2 ـ جهوده الجغرافية وأنواعها

لاحظنا أن المصادر لدراسة جغرافيته تنقسم إلى ثلاث فئات : ما يندرج تحت الوصف الأدبي المطعّم بإشارات جغرافية ، وما يدخل ضمن أدب الرحلة ، وما يعتبر تصنيفاً علمياً في نطاق الجغرافية الخالصة ، والواقع أن انقسام تلك المصادر إلى هذه الفئات الثلاث مرده إلى هذا التنوع الثلاثي في جهوده الجغرافية : فهو حيناً أديب يصف مظهراً جغرافياً ، وهو حيناً آخر رحالة يسجل لنا انطباعاته المختلفة عما يراه في رحلاته ، وهو تارة أخرى عالم جغرافي مدقق يرسم لنا صورة الأرض وأقاليمها وأجزاء هذه الأقاليم بدقة علمية لا تتأثر بتعبير أدبي وصفي غائم ولا بانطباعاته الشخصية . وسنتناول فيما يلي كل فئة من هذه الفئات على حدة .

1 ـ الجغرافيا الأدبية عند ابن سعيد

رأينا كيف أن التصور الجغرافي كان داخلاً في صلب خطة كتاب « المغرب » ، الذي وصفناه بأنه المدرسة الكبرى لابن سعيد ، وقد مر بنا كيف أن هذا التصور الجغرافي جاء إلى المغرب عن طريق كتاب الحجاري ، « المسهب » ، الذي وصفه ابن سعيد بأنه أول مصنف من نوعه في تاريخ الأدب الأندلسي . وسنرى هنا أن ابن سعيد سيعتمد إعتماداً كبيراً على ما كتبه الحجاري عن أوصاف المدن الأندلسية مما يؤكد وجود ميل جغرافي قوي في الكتاب المذكور .

وأهم أثر لابن سعيد في نطاق الجغرافيا الأدبية هو مقدمته للقسم

الأندلسي من كتاب « المغرب » . فهذه المقدمة لو أعيد ترتيب أجزائها حسب قواعد البحث العلمي الحديث لما كان من المبالغة وصفها بأنها « مقالة حضارية شاملة » عن الأندلس .

حقاً إن ابن سعيد نقل عن غيره من المؤرخين والجغرافيين ولكن الملاحظات الشخصية التي أبداها على جانب عظيم من الأهمية ، وقد تجاوزت هذه الملاحظات نطاق الوصف الجغرافي لتعطينا صورة عن طباع الأندلسيين وأزيائهم وعاداتهم وحالتهم الثقافية وأوضاعهم الإجتماعية مما يجعلها تقارب حدود النظرات الداخلة في « علم الإجتماع » . وأرى أن أي بحث عن جغرافية ابن سعيد لا يعرض لهذه المقدمة يتسم بالنقص والتقصير .

تبدأ هذه المقدمة بتحديد موقع الأندلس ومساحتها وحدودها ومظاهر مناخها . وابن سعيد في معلوماته عن ذلك ينقل عن الأدريسي الذي يسميه « الشريف » وعن أحمد بن محمد بن موسى الرازي كما يورد روايات شفوية عن « جماعة من علماء هذا الشأن »[1] . وبعد ذلك يعرض للتاريخ البشري والسياسي والحربي والعمراني للأندلس فيذكر أول من سكن الأندلس والدول التي حكمتها ماراً بحروب الفتح شافعاً كل ذلك بإشارات إلى المظاهر العمرانية في الأندلس ما تم منها قبل الفتح وما أنشأه العرب بعد ذلك . وبعد هذا التعميم يأخذ في الحديث عن المدن الأندلسية مدينة مدينة ـ ضمن هذه المقدمة ، أي قبل المباشرة في فصول الكتاب الأخرى ـ بقصد إعطاء صورة موجزة عن أهمية كل واحدة منها . ثم يعود إلى الحديث العام فيذكر الجوانب الإقتصادية من ثروة زراعية ومعدنية ويأتي بتفصيلات دقيقة عن الصناعات الاندلسية مشيراً إلى مراكزها الصناعية وأنواع تخصصها : « وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفصيل . . . فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً . . . نتتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالي

---

(1) النفح 1/126 ـ 127 .

في ثمنها بالمشرق ، ويصنع في غرناطة وبسطه من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد أفريقية وغيرها[1] ويواصل ذكر أنواع الصناعات الأخرى من زجاج عجيب وفخّار مزجج مذهّب وفسيفساء وآلات حرب شافعاً ذلك بإشارات مهمة إلى العلاقات التجارية بين أفريقيا والأندلس العربية والإمارات الاسبانية . وغني عن البيان أن هذه المعلومات الإقتصادية والتجارية هي مادة نادرة لأي بحث تاريخي - اقتصادي عن هذه المنطقة من العالم في ذلك العصر .

هذا ومن الملاحظ أن المقري لم يورد مقدمة ابن سعيد في نسق واحد كما رتبها المؤلف نفسه ، إذ يبدو أنه قدم فيها وأخّر وأدخل ضمنها نقولاً عن كتاب سابقين ولاحقين مما أخل بمظهرها بعض الشيء وإن لم يؤثر ذلك في قيمة الآراء والمعلومات التي تضمنتها . ومن الأمور التي نقلها المقري كاملة تقريباً رد ابن سعيد على أقوال ابن حوقل عن الأندلس . فقد أبدى ابن حوقل ، الذي زار الأندلس في القرن الرابع عندما كانت في ظل الأمويين ، استغرابه لاحتفاظ هذه البلاد باستقلالها رغم ما لاحظه في أهلها من « صغر أحلام وضعة نفوس ، ونقص عقول ، وبعد عن البأس والشجاعة . . . »[2] وهنا يرد ابن سعيد مستنداً إلى تاريخ الأندلس الطويل الذي حفل بحركات مقاومة مستمرة ضد « أعدائها المجاورين » . وينتقل من ذلك إلى عرض متمعن لمراحل التاريخ الأندلسي - لتحليل أسباب النكبة - فيذكر عهد الأموية الموحدة وعظمته وكيف جاءت « الفتنة » لتقضي

---

(1) النفح 1/187 - 188 .

(2) يرى الباحثون أن ابن حوقل كان من عيون الفاطميين وأن قوله هذا لا يخلو من مغزى سياسي . (غير أن هذا الرأي الذي جاء به دوزي تعرض لشيء من التشكيك في نظر ليفي بروفنسال ، انظر : تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1/204) .

عليه وتؤدي إلى نشوء « الممالك المتفرقة »[1] . ثم يتحدث عن عصر الموحدين بفهم عميق فيشير إلى أنه كان عصر هدوء في مظهره أما في الباطن فقد كانت النفوس قلقة ثائرة : « . . . فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة ، والثوار في المعاقل تثور ، وتروم الكرّة . . . » . ويصف عهد ابن هود بشعور أندلسي مشفق وبألم ظاهر لا تخفيه الحقائق التاريخية التي يوردها : « إلى أن ثار ابن هود ، وتلقب بالمتوكل ، ووحد القلوب المنحرفة عن بر العودة ، مهيأة للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأي ، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة ، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادر بالسؤال ، وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء . . . فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة . . . »[2] وواضح أن هذا العرض التاريخي يتعدى السرد السطحي للأحداث لينفذ إلى تبيان الأسباب ويقدم التفسيرات ، إلى جانب ما يكشفه من شعور مصنّف اشتهر بنزاهته إزاء دولة ابن هود . ويختم ابن سعيد ذلك بإشارة بارعة إلى نفسية الأندلسيين السياسية عندما يذكر قلقهم السياسي وعدم القدرة على الإنضباط وجريهم خلف كل من يظهر شجاعة وحماسة من الجند ويقارن هذه الناحية بالوضع في المشرق حيث أنظمة الحكم مستقرة ويخلص من هذه المقارنة بأن « أهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي بإختلال القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع »[3] .

وبعد الحديث عن التاريخ السياسي يعرض ابن سعيد لمظاهر الحكم

---

(1) يقصد « بالفتنة » الفتنة البربرية التي وقعت سنة 400 هـ ، أما الممالك المتفرقة فالمراد بها دول ملوك الطوائف .

(2) النفح 1/200 .

(3) النفح 1/201 .

المختلفة في الأندلس من وزارة وكتابة وأعمال خراج وقضاء وخطة شرطة وخطة احتساب وخطة طواف بالليل في إيجاز لا يخلو من إشارات تاريخية حية لها دلالتها الهامة عند الدراس الحديث . فها هو يتحدث عن خطة الإحتساب بقوله : « وأما خطة الإحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن ، وكأن صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان : للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره . . . »[1] .

ثم يحدثنا عن ظاهرة الجريمة في الأندلس وكيف أن « شطارها » ماهرون في أمور التلصص وفتح الأقفال وكيف أنهم ميالون إلى العنف والقتل لتيسير أعمال سرقاتهم، وكيف أن العقاب الصارم لم يجد نفعاً في الحد من انتشار الجريمة حتى « آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقة شخص من كرم وما أشبه ذلك ، ولم ينته اللصوص »[2] .

وبعدها يأتي الحديث عن الظاهرة الدينية في الأندلس فيشير ابن سعيد إلى تمسك الأندلسيين بالدين ومحافظتهم عليه وتشددهم في ذلك حتى مع ملوكهم وقضاتهم ، ويغمز المشارقة من طرف خفي عندما يقول أن تدين الأندلسيين لم يدفعهم إلى الدروشة المقعدة عن الكد كما حدث في المشرق . ونلاحظ أن حس المقارنة عند ابن سعيد حي يقظ فهو يقارن بين الإختلافات في الدين والأخلاق والسياسة بنظر ثاقب .

وفي ختام المقدمة يأتي إلى الحديث عن مظاهر الثقافة الأندلسية حيث يظهر كثيراً من النظرات الصائبة التي يشاركه فيها كثير من الباحثين المحدثين . فمن الأمور التي يشير إليها احترام الأندلسيين لكل صاحب

---

(1) المصدر السابق 1/203 .

(2) النفح 1/204 .

علم ولو كان علمه إلماماً بحرفة بسيطة « فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح . . » . ويتحدث عن مسألة التعليم المأجور الذي تميز به الأندلسيون عن المشارقة وعن حبهم للعلم بذاته لا توسلاً به لوظيفة : « . . ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً (أي راتباً أو معاشاً) . . » ، وينبه إلى وضع الفلسفة الحرج في المجتمع الأندلسي : « . . وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة ، أطلقت عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه . . »[1] ويتبع ذلك بإشارة إلى المكانة الرفيعة التي تمتاز بها الدراسات الدينية : « وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة . . » ويواصل إشاراته إلى خصائص الثقافة الأندلسية : « والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة . . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال . . .والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه . . . وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم[2] ، وبه يتقرب من . . ملوكهم . . ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل . . والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة . . »[3] .

ويربط ابن سعيد بين بعض فروع الثقافة ومظاهر نفسية معينة في

---

(1) المصدر السابق 1/ 205 .

(2) أشرت إلى أن ابن سعيد اعتنى بهذا النوع من الثقافة اعتناء خاصاً عند الحديث عن حدود علمه واتجاهاته . ولعل في هذه الإشارة والعبارة التي تليها ما يفسر لنا أحد الأسباب التي دفعته إلى ذلك .

(3) النفح 1/ 206 ـ 207 .

إشارة بارعة يندر وجودها في مصنفات الأدب القديمة : « وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب ، عادة قد جبلوا عليها . . » وإذا علمنا أن ابن سعيد يورد هذا القول في مجال تعداد محاسن الأندلس أدركنا مدى التزام هذا المصنف بالحياد والأمانة .

ويختم ابن سعيد حديثه بذكر أزياء الأندلسيين وبعض عاداتهم الإجتماعية . تراه يعقد مقارنة هنا في اختلاف التقاليد بين غرب الأندلس وشرقها : « وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك . . »[1] وترى هذه الإشارة الهامة ضمن الحديث عن الزي : « . . وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأحفادهم بزي النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم . . . كأقبيتهم . وكذلك أعلامهم وسروجهم . . »[2] ، وهو تنبيه دقيق إلى التأثر والتأثير في ناحية لا يلتفت إليها كثير من المؤرخين القدامى . ثم انظر إليه يحدد بتفصيل طريف مظاهر الأناقة واختلاف الطبقات الإجتماعية والفئات الدينية في ذلك ، ثم الفرق بين الأناقة الأندلسية والأناقة المشرقية : « ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان ، إلاّ أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون ، وعمائم الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودي أن يتعمم ، وإنما يسدلونها تحت الأذن اليسرى ، وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والإستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها ، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا أوضاع غيرهم . . » فتأمل أولاً في هذه التفاصيل الدقيقة عن

---

(1) المصدر السابق 1/207 .
(2) النفح 1/207 .

الزي ، ثم انظر ثانياً لباقة ابن سعيد في التعبير عن نظرة الأندلسيين إلى زي المشارقة ـ وهذه المقدمة سيقرأها المشارقة قبل غيرهم ـ فهو يعبر عن شعور مواطنيه إزاء ما يخالف تقاليدهم في اللبس بأنه « تعجب واستظراف.» مما يدل على اللياقة وسعة الأفق ، ولو أن مؤلفاً تنقصه لباقة ابن سعيد ويتملكه الهوى الإقليمي غير المتزن لوجد في هذه المناسبة فرصة للتشنيع على المشارقة[1] . ولا تفوتنك أخيراً ملاحظة التعبير الواعي عن الإحساس بالشخصية الأندلسية المستقلة التي تستظرف ما عند الغير ولكنها لم تعتد ولا تستحسن إلا أوضاعها الخاصة !

وأنا لست بصدد الزعم هنا أن كل هذه الآراء والأحكام من عند ابن سعيد فمما لا شك فيه أنه يورد آراء لغيره . . . ولكن صياغته لهذه المقدمة بالأسلوب الرصين الذي لمسناه والتركيز على القضايا المهمة في الظواهر الحضارية وعرضها بعمق ودقة يدل على أصالة في تفكيره وعلى حسن إدراكه لجوهر الأمور وعدم تشتت بحثه بين ركام الأمور التفصيلية للروايات الهزيلة التي تشغل عادة قدامى المصنفين . ومن نافلة القول الإشارة هنا إلى أن أي بحث مسؤول عن الحضارة الأندلسية لا يمكنه أن يتجاهل أو يغفل هذه المقدمة على إيجازها . وأرى لو أن ابن سعيد استفاد من منهجه هذا في تأليف بحث مطول عن الأندلس ـ وأظن أنه كان بمقدوره أن يفعل ذلك ـ إذن لأغنى الجهد الجغرافي ـ التاريخي في التراث الأندلسي ولحقق لنفسه مكانة أرفع من مكانته الحالية . ولا أدري إن كان الدكتور زكي محمد حسن قد أدخل في اعتباره هذه المقدمة عندما أثار هذه التساؤلات حول قيمة المغرب وأجاب عليها كلها بالنفي : هل خلا « المغرب » من العيب الأساسي الذي نلمسه في معظم تصانيف التاريخ التي كتبها المسلمون من حيث أنها سرد أو اختصار لنصوص أو كتب ألفها أسلافهم ؟ هل امتاز أصحاب المغرب عن غيرهم . . بالبعد عن تصديق كل الروايات التي تصل

(1) كما فعل العبدري مثلا في « رحلته » ، انظر : الدكتور صلاح الدين المنجد ، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ، ص 70 ـ 83 .

إليهم . . .؟ هل خالف أصحاب المغرب غيرهم من المؤرخين في الإقبال على نسج الخيوط من القصص بغير ترتيب تاريخي أو منهج علمي ؟ هل يستوي « المغرب » ومؤرخ كالبلاذري في البحث عن الحقائق التاريخية الدقيقة . .؟ هل يضارع أصحاب المغرب مؤرخاً كابن مسكوية في معرفة أساليب الإدارة الإسلامية ، وفي الحصول على الروايات التاريخية من المصادر العلمية ، وفي ربط الأسباب والنتائج وفي العناية بالأحوال الإقتصادية والإجتماعية ، وفي البعد عن التعصب وفي الميل عن الهوى ؟ . . . هل بلغ أصحاب « المغرب » إلى ما انفرد به البيروني من اكتساب ثقافة جديدة على الثقافة العربية ؟ . . . هل يمكن أن يعدوا نظراء لمؤرخ كابن خلدون ؟[1]

والواقع أننا برجوعنا إلى ما لاحظناه من منهج ابن سعيد وتأملنا في تلك المقدمة ، نرى أن الإجابة على كل هذه الأسئلة بالنفي يعوزها الإنصاف . . وأظن أن الدكتور زكي محمد حسن كان يضع في ذهنه القسم التاريخي المصري من « المغرب » وهو الذي نقله ابن سعيد نصاً عن مؤرخين مصريين سابقين لزمنه . أما مغرب الأندلس ومقدمته بالذات فلهما ـ كما رأينا ـ مكانة أفضل .

أما المقدمة الجغرافية لكتاب المشرق فهي أقل قيمة بلا شك من مقدمة « المغرب » ، وقد قسم فيها العالم المعمور إلى سبعة أقاليم وتحدث عما يوجد من أقطار في كل إقليم وكان ينقل عن بطليموس من خلال كتاب الإدريسي الذي يسميه كتاب « أجار » أو « رجار » ـ وقد أوردت الإشارة عنها هنا لأنها جاءت في إطار كتاب المشرق ، المصنف الأدبي الشعري ، وهي في الحقيقة امتداد لتصوراته الجغرافية التي تندرج ضمن علم الجغرافيا المحض .

ومما يمثل امتزاج الأدب والجغرافيا عنده أفضل تمثيل تلك النبذ التي أوردها في « منصات » أو « بسط » المدائن الأندلسية . ولربما مثلت هذه

---

(1) انظر مقدمة « المغرب » ـ قسم مصر ـ ص م 41 ـ 42 .

النبذ النماذج الأولى من تدرج الحس الجغرافي عنده حيث كان مولوداً نامياً في ظل ثقافته الأدبية الشعرية . فهو في هذه القطع لا يحدد في الأغلب موقع المدينة حسب خطوط الطول والعرض أو حسب المسافات ولا يلتفت كثيراً إلى الخواص المعدنية والنباتية ، بل أكثر ما يهمه ما يمكن تسميته بالإنطباعات « السياحية » إن صح التعبير كمنظر المدينة العمراني العام وما يوجد فيها من منازه وفرج . وهو يسهب أحياناً في وصف المدن التي يحب وقد يستشهد بقصيدة أو موشح لشاعر من شعرائها في التغني بجمالها ، وأكثر نقول ابن سعيد في هذا المجال عن مسهب الحجاري وعن كتابات أحمد بن محمد بن موسى الرازي (274 ـ 324) .

فمن نماذج وصفه الجغرافي الأدبي للمدن إيراده ما يلي عن مدينة بسطة : « بسطة مما آتاه الله في الحسن بسطة . لها خارج يأخذ بالأعين والأنفس وفيها يقول شعبان الغزي واليها :

سقى الله صوب الغيث أكتاف بسطة
ففيها انبساط النفس والعين والقلب »[1]

إلّا أنه يظهر دقة أكثر في بعض الأحيان ، فها هو يصف مدينة برجة من مملكة المرية وصفاً أدبياً ولكنه يمر مروراً خاطفاً بخاصية جغرافية : « كان والدي متولعاً بالفرجة فيها ، لما خصها الله به من حسن المنظر ، أخبرني أن الجنات محدقة بها ، وهي على نهر بهيج ، يعرف بوادي عذراء ، وفيها الفواكه الجليلة ، ولها معدن الرصاص »[2] وقد يصل وصفه إلى تعريف جغرافي على قدر لا بأس به من الدقة ولكنه في هذه الحالات يكون ناقلاً عن مسهب الحجاري ، يقول في وصف طليطلة : « إنها إحدى المدن الأربع التي بنيت في مدة قيصر اكتبيان (اكتافيوس) وهي في الإقليم الخامس موسطة ، منها إلى الحاجز الذي هو درب الأندلس نحو نصف شهر ، وكذلك إلى البحر المحيط . . . وفيها من ضروب التركيب والفلاحة

---

(1) المغرب 2/77 .
(2) المصدر السابق 2/228 .

ما تفضل به غيرها ، وابن بصال صاحب الفلاحة فيها . . . ويصنع فيها من آلات الحرب العجائب . . »[1] . ومن المدن التي وصفها وصفاً شاملاً حوى الخواص الجغرافية وذكر المنازه والاستشهاد بالشعر غرناطة[2] وبلنسية[3] ويبدو أنه يتأثر بالمادة التي بين يديه كما أن شهرة المدينة لها أثر في تقرير حجم التعريف ونوعه .

ومن أعماله الجغرافية ـ الأدبية كتابه « الشهب الثاقبة في الأنصاف بين المشارقة والمغاربة » وهو مقارنة تقوم على الإستفادة من المعلومات الجغرافية في إقامة مناظرة بين المغرب والمشرق . وقد استغل ابن سعيد في هذا الكتاب مادته الجغرافية ليقارن بين عمارة المشرق والمغرب وامتدادهما ، وأهم ما يلفت النظر في المقاطع التي أوردها العمري في « المسالك » ـ وهو يرد على ابن سعيد ـ مقارنة ابن سعيد بين أخلاق المغاربة القائمة على المصارحة والمكاشفة وعدم الخضوع للمظاهر الشكلية في الحياة الإجتماعية وبين أخلاق المشارقة الذين يميلون إلى نوع من الرياء والملق في المعاملة وإلى اهتمام بالمظهر دون المخبر في مواكبهم ولباسهم ومساكنهم[4] .

3 ـ أدب الرحلة عند ابن سعيد

إن النموذج الوحيد الذي وصلنا في هذا المجال هو وصف ابن سعيد للفسطاط والقاهرة ، وربما كان في « الرحلة المكية » و « عدة المستنجز » نماذج أخرى ولكن هذين الكتابين لم يصلانا .

وقد أورد ابن سعيد مذكراته تلك عن الفسطاط والقاهرة[5] في باب

---

(1) المصدر السابق 2/8 ـ 9 .
(2) المصدر السابق 2/102 ـ 105 .
(3) المصدر السابق 2/297 .
(4) مسالك الأبصار / ورقة وما بعدها ، وكذلك النفح 1/196 .
(5) المغرب (قسم مصر) : 5 ـ 11 ، النفح 3/103 ـ 114 .

« المنصة » على عادته في كتاب المغرب . إلّا أن ما أورده عن المدينتين المصريتين تجاوز حد التعريف الجغرافي ، الأدبي ، الوصفي الذي مررنا بنماذج منه قبل قليل ليدخل في نطاق المذكرات السياحية المسهبة التي يمكن اعتبارها مظهراً من مظاهر أدب الرحلة . والواقع أن ابن سعيد في هذه المذكرات كان مراقباً بصيراً أكثر منه سائحاً عابراً وإن كان قد جمع بين ما يهتم به الأول وما يلفت انتباه الثاني . وأول ما يلفت انتباه القارىء في هذه المذكرات البساطة والصراحة والواقعية ووضوح التعبير عن الإنطباعات الذاتية : يخبرنا ابن سعيد ـ فيما يختص بالفسطاط ـ أنه كان قبل زيارتها في حيرة من أمرها فما يسمعه عنها من الرحالين والحجاج يتصف بقلة « اتفاق الأغراض وتشتت الأهواء » ، وعندما أراد التوجه إليها من القاهرة رأى الناس ـ ومن بينهم الفقهاء ذوو الشارات ـ يركبون إليها الحمير. وهنا يسجل ابن سعيد ازوراره أولاً عن هذه الطريقة التي لم يعهدها في المغرب ، واقتناعه ثانياً باللجوء إليها وسقوطه ثالثاً عن ظهر الحمار « الطيار » واتساخ ملابسه . وباعتباره سائحاً مهذباً ، نراه ينقد المكاري ـ الذي لم يرفق به ـ أجره ويطلب منه أن « يحسن » إليه بتركه ماشياً !

ويبدو أنه بينما كان يقطع مسافة الميلين بين القاهرة والفسطاط ألّف أربعة أبيات في وصف الحادثة (وسجلها لنا في مذكراته) ، ثم واصل سيره لدخول المدينة . وبذوق إشبيلي مرهف أخذ يحدق في الأسوار الكريهة السوداء والطرقات القذرة والجامع الذي أصبح ممراً للعامة وسوقاً لبيع الكعك والمكسرات . فانقبضت نفسه من منظر الأسوار والطرقات وحركة الإزدحام ، ولكن تدينه المغربي لم يدعه يزور عن منظر الجامع الذي نسج العنكبوت على أركانه وحيطانه وخط العامة على جدرانه كتابات قبيحة بالفحم ، فإذا به يشعر فيه بانبساط وارتياح لا لشيء إلّا لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد وقفوا في صدر الإسلام بساحته .

ويواصل ابن سعيد سيره فلا يرى على النيل سوراً أبيض كما هو الحال في اشبيلية ولكن ماءه ينال إعجابه إذ لم يذق مثله قط . وفي الليل

ينام في « طيارة » ـ أي قارب كبير في النيل ـ ويصفو الجو فينظم أبياتاً في وصفه .

بعد هذه « الإنطباعات الأولية » يتدرج بنا ابن سعيد إلى دائرة أعمق وإذا بالسائح الذي ينقل لنا مشاعره الذاتية يحدثنا حديث المتأمل في طبائع الناس وإذا به يستخرج الخاصية الرئيسية لأهل تلك البلاد الصديقة المرحة : وجملة الحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة ولين الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة الممازجة والإلفة ما يطول ذكره »[1] وبعد أن يحدثنا عن كرم بعض من تعرف إليهم ورعايتهم ، ينتقل بنا مرة أخرى إلى دائرة ثالثة ، فإذا به الجغرافي الذي يعتني بظواهر التجارة والإقتصاد : « وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني (أي المتوسط) والبحر الحجازي (الأحمر) فإنه فوق ما يوصف . . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون » ويقارن ابن سعيد في هذا المجال ويعطي التفسيرات : « والخراب في الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر ، وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها ، وسكنى الاجناد فيها »[2] .

وهذا الأسلوب الذي اتبعه في الحديث عن الفسطاط ، يتبعه في الحديث عن القاهرة فهو أولاً يقارن بين انطباعه السابق الذي كونه سماعاً وبين ما يراه الآن والخلاصة أن « اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته . . »[3] . وكما اتحفنا بحكايته مع الحمار قبيل دخولنا معه الفسطاط ، يتحفنا هنا بحكاية العجلة التي سدت على الوزير طريقه مستشهداً بالحكاية على ضيق أزقة القاهرة : « . . ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي

(1) المغرب (قسم مصر) 9 .
(2) المغرب (قسم مصر) 11 .
(3) النفح 3/108 .

الدكاكين ووقف الوزير وعظم الإزدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم . . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال » . . . فتأمل هذا الوزير الجليل وقد استقبل بعجلة ودخان ! وابن سعيد لا ينسي حسه الأدبي فتراه ينظم فيما يثير ضجره وما يثير إعجابه فهو يتأفف شعراً من الغبار والتراب ويبدي إعجابه في الوقت ذاته بجمال بركة الفيل. وبعد انطباعاته هذه ينتقل أيضاً إلى الحديث عن بعض نواحي الحياة في المدينة « فالقاهرة أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجل مدارس ، وأضخم حانات ، وأعظم دياراً لسكن الأمراء فيها . . » و« هي مستحسنة للفقير الذي لا يخاف طلب زياة ولا ترسيماً ولا عذاباً . . والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج في ظواهرها ودواخلها وقلة الإعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة ، أو صحبة مردان وما أشبه ذلك ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب . . . . ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولا تبرج النساء العواهر . . . وربما وقع قتل بسبب السكر . . »[1] .

وإلى جانب هذا الوصف للحياة الإجتماعية يلتفت ـ بحكم ذهنيته الجغرافية ـ إلى النواحي الإقتصادية والزراعية فيحدثنا عما « فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز ، وأما التفاح والإجاص فقليل غال وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والنرجس والنسرين . . . وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء ، وعامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من الحنطة ، حتى أن الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك »[2] . ويذكر نوع العملة المتداولة وتأثيرها في الحركة التجارية : « ومعاملة

(1) النفح 3/111 ـ 112 .
(2) المصدر السابق 3/112 .

الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء ، كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية ، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ومخاصمة بين الفريقين » . ويضيف إلى المعلومات الجغرافية إشارة عن موقعها ومناخها « وهي في الإقليم الثالث ، وهواؤها رديء ولا سيما إذا هب المريسي من جهة القبلة ، وأيضاً فرمد العين فيها كثير »[1] وهكذا نرى أن منهج ابن سعيد في كتابه مذكرات رحلته منهج مزدوج متعدد الألوان : فهو أولاً يكشف عن انطباعاته الذاتية ويمزج ذلك بحكايات طريفة .. ثم يلتفت إلى الناحية الإجتماعية فيتحدث عن طباع الناس ومظاهر جدهم ولهوهم . . . وأخيراً يضمن مذكراته مادة جغرافية يقدمها معللة مفسرة في الأغلب وهو يغلف كل ذلك بأسلوب أدبي فيذكر ما نظمه في هذا المنظر أو ذاك ، وأسلوبه بريء من السجع والتكلف يتصف ببساطة وواقعية وإيجاز معبّر . وتراه في هذه المذكرات يكوّن إنطباعاته ويجمع معلوماته عن طريق المشاهدة الحية ولا يقول لنا انه أخذ هذه الرواية أو تلك من مرافق أو صديق والأرجح أنه يستخرج كل شيء من ملاحظاته ، وربما استفسر عن شيء ولكن لا نراه يعتمد على قول معين . ومما لا شك فيه أن كتاباته هذه عن الفسطاط والقاهرة تعتبر وثيقة هامة عن تاريخ المدينتين في العهد الأيوبي . ومن أسف أننا لا نعثر على غير هذه المذكرات مع أنه رحل إلى الشام والعراق والحجاز وفارس ولو سجل في كل تلك البلدان انطباعاته ومشاهداته كما فعل في مصر وبالمنهج الممتع المفيد ذاته ، لكان لدينا اليوم كتاب باسم « رحلة ابن سعيد » قد لا يقل قيمة عن رحلة ابن جبير . ولعلنا نجد في المخطوطات التي قد تكتشف له في المستقبل ما يحقق هذا الأمل .

3 ـ التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد[2]

تمت الإشارة إلى كتابه الكبير في هذا المجال وهو « الجغرافيا في

---

(1) النفح 3/113 .

(2) اعتمدت في هذا القسم على المقال المركز القيم الذي كتبه المستشرق السوفييتي

الأقاليم السبعة » وإلى المختصرين المتفرعين عنه وهما « وصف الكون » و « بسط الأرض في الطول والعرض » .

والكتاب الأخير مادة جغرافية مكثفة جافة تتناول وصف أقطار العالم كلها بشرياً وطبيعياً واقتصادياً . ويقسم هذا الكتاب العالم إلى تسعة أقاليم هي على التوالي من منطقة خط الإستواء ، « المعمور خلف خط الإستواء ، الأقاليم السبعة ، المعمور من الأرض في شمالي الأقاليم السبعة » وينقسم كل إقليم بدوره إلى عشرة أجزاء . ومنهج هذا الكتاب أن يقدم بكلمة عامة عن الأقاليم في البداية تصف سكانه وتحدد موقعه ، مثل : « الإقليم الخامس : بياض أهله ممتزج بالحمرة وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال ولا سيما فيما يلي السادس . والعرض عند آخره من خط الإستواء 41 درجة و31 دقيقة ووسعه 5 درجات »[1] . ثم يبدأ الحديث عن أجزاء الإقليم العشرة جزءاً جزءاً ابتداء من الغرب فيذكر المدن ومواقعها حسب خطوط الطول والعرض بالدرجات والدقائق وينوه بما فيها من خصائص معدنية ونباتية وأحياناً تتم الإشارة إلى بعض أحداث تاريخها الهامة ولكن بإيجاز شديد .

ويختلف هذا الكتاب عن المؤلفات الكلاسيكية الجغرافية القديمة في أنه يهتم بالعالم غير الإسلامي اهتمامه بالعالم الإسلامي فيتحدث عن الهند والشرق الأقصى وعن بعض مناطق روسيا وبريطانيا وبلاد الغال . ويلاحظ أن البلاد الواحدة حسب منهج هذا الكتاب تتوزع بين عدة أقاليم أو أجزاء ولا توصف كلها دفعة واحدة . ويذكر ابن سعيد مصدرين أوحدين في هذا الكتاب وهو ما يسميه كتاب « أجار » ـ أي كتاب الإدريسي « نزهة المشتاق » وكتابات ابن فاطمة الذي يبدو أنه ملاّح مكتشف توغل في غرب

كراتشكوفسكي عن جغرافية ابن سعيد في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » ، ص 356 ـ 359 . وأهمية هذا المقال ـ الى جانب مقدرة كاتبه الخاصة ـ في أنه يستند الى الأبحاث الالمانية والفرنسية في تاريخ الجغرافيا العربية ، تلك الأبحاث التي خصت ابن سعيد باهتمامها .

(1) بسط الأرض 99 .

أفريقيا ووسطها ومسجل مادة جغرافية قيمة . ويتجنب ابن سعيد أية استطرادات أدبية كما أن انطباعاته الشخصية تكاد تنعدم خلف صرامة المنهج المتبع . ويبدو ابن سعيد هنا وقد استقل ميله الجغرافي تماماً عن ثقافته الأدبية وغدا مجرى مستقلا عنها بعد أن نشأ في الأساس رافداً من روافدها .

وتشير الأبحاث الجغرافية إلى أن الدراسة العلمية لجغرافية ابن سعيد تكشف النتائج ـ أو تثير القضايا ـ التالية :

1 ـ إن نشاط ابن سعيد في محيط الجغرافيا يتصل بالإتجاه الذي يمثله الإدريسي (564)[1] وهو الإتجاه الذي يذهب إلى تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم كما فعل بطليموس في « المجسطي » . ومدرسة الإدريسي تعرف بطابعها المستقل نوعاً عن المدرسة الكلاسيكية في المشرق ، « وهي التي سماها ميلر K. Miller المدرسة العربية النورمانية»[2] بسبب نشوئها في بلاط روجر الثاني ملك صقلية وإطلالها على آفاق العالمين العربي والأوروبي معاً .

2 ـ إن ابن سعيد زاد على الإدريسي في أنه قام بتبيان عروض وأطوال جميع المواضع المأهولة بطريقة دقيقة يمكن معها إلى حد كبير تخطيط مصور جغرافي كامل .

3 ـ إن مادة ابن سعيد عن الأقطار الأوروبية ـ وخاصة فرنسا وهنغاريا ـ غنية وحافلة ولا تخلو من طرافة .

4 ـ إن شك المؤرخ الشرقي الأيوبي عماد الدين أبي الفداء في معلومات ابن سعيد عن جغرافية المغرب أمر لم يقره عليه البحث الجغرافي الحديث بصفة دائمة ، فأماري AMARI وهو من خيرة الباحثين والعارفين

---

(1) تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1/357 ، وكذلك مادة « جغرافيا » في الموسوعة الإسلامية .
(2) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص 14 .

بالمصادر في هذا الميدان قد أماط اللثام عن معرفة ابن سعيد الجيدة بجنوبي أوربا وبإيطاليا بوجه خاص .

5 ـ ينفرد ابن سعيد ـ دون المؤلفين العرب قاطبة ـ بإيراد رواية هامة ـ ربما نقلاً عن ابن فاطمة ـ تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر .

6 ـ بالرغم من أنه نقل عن الإدريسي ونقل عنه أبو الفداء فإن مصنفاته «لدى مقارنتها بالإدريسي وأبي الفداء تمثل مادة قائمة بذاتها . . ولم يستطع أبو الفداء أو المترجمون والناشرون أن يستغرقوا جميع مادته» . . . ولذا فإنها ما زالت في حاجة إلى بحث خاص وعندئذ يمكن توضيح الجوانب الغامضة توضيحاً كافياً . . . [1] .

وهكذا نرى أن جغرافية ابن سعيد لم يسلط عليها الضوء الكافي بعد . والرجاء في أن تحظى جغرافيته باهتمام خاص من قبل الباحثين الجغرافيين العرب لما لها من أهمية ظاهرة .

---

(1) تاريخ الأدب الجغرافي العربي 359 .

الفصل الخامس

اراؤه النقدية

نزعة متحررة من قديم المشرق

1 ـ الجو النقدي العام
2 ـ مصادر دراسة نقده
3 ـ آراؤه النقدية :
- موقف عام
- درجات الشعر
- مقياس الجودة الشعرية
- مقياس الجودة النثرية

1 ـ الجو النقدي العام :

أثبتت الدراسة التي قام بها الدكتور إحسان عباس لتطور المذهب الأدبي العام في الأندلس أن المنافسة اشتدت « بين ما سماه الأندلسيون طريقة المحدثين وما سموه طريقة « العرب »[1] خصوصاً بعد أن كثر تلامذة القالي واتسع نطاق تأثير مدرسته التي اهتمت بتدريس كتب تعتمد على شروح هي من صميم طريقة العرب في الشعر .

وما إن جاء عصر الطوائف والمرابطين حتى أدى ذلك التنافس ـ متأثراً بمدرسة القالي ـ إلى انتصار ظاهر لطريقة العرب ضد طريقة المحدثين من حيث المبنى والموضوع ، وبدا ذلك واضحاً في شعر ابن هانىء وابن عبدون وابن وهبون وابن حصن وابن بقي من خلال أسلوب جزل متدفق وأجواء بدوية ومعان عربية تقليدية قديمة ، وعن طريق التأثر بأكبر شاعرين عادا للطريقة البدوية وهما المتنبي وأبو العلاء .

وهذا لا يعني أن طريقة المحدثين المعتمدة على الإستعارة البعيدة وأنواع البديع والرقة والتأنق في الاسلوب قد تلاشت . . فابن خفاجة ـ أحد الشعراء البارزين في ذلك العصر ـ تمكن من المزج بين التدفق الجزل والصورة البعيدة إلّا أن الطابع العام للشعر في تلك الفترة ظل مصطبغاً بلون مذهب القدماء القائم على الجزالة وشدة التدفق من حيث مبناه وموسيقاه العامة[2] .

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) 108 .
(2) المصدر السابق 108 ـ 117 .

أما في عصر الموحدين ـ عصر ابن سعيد ـ فأرى أن طريقة العرب عادت إلى التقهقر والإنزواء وأن طريقة المحدثين عادت إلى احتلال مكانتها بوصفها النمط الفني السائد في الشعر والنثر .

والواقع أن طريقة العرب كانت شيئاً طارئاً على البيئة الأندلسية الميالة إلى الرقة البعيدة عن جو الصحراء وخشونته المغرقة في الحضارة والترف . . . وأنها ما لبثت أن ضعفت بزوال العوامل التي سببت قوتها :

أ ـ فأثر المتنبي والمعري تضاءل بمرور الزمن وباتجاه المشرق ذاته نحو مذهب أبي تمام بعد أن جرد من تعقيده الفكري وبولغ في ميله للإستعارات والبديعيات والأسلوب الرقيق وشدد فيه على مسألة كد القريحة و « الغوص » مقابل عمل البديهة .

ب ـ إن ردة بعض الشعراء في الأندلس ضد الإغراق في الحضارة[1] كانت مظهراً نفسياً عابراً فالترف الأندلسي كان حقيقة واقعة لا بد من الإستسلام لها في النهاية . وبإمكان المرء أن يلمس بوضوح آثار انتصار طريقة المحدثين في هذا العصر في الأعمال النقدية وفي كثير من مظاهر النتاج الشعري على حد سواء ، وإن كان ذلك بالمقابل لا ينفي وجود حالات فردية وظواهر متفرقة تعكس ميلاً أو حنيناً لطريقة القدماء أو للأجواء البدوية .

فعلى صعيد النقد لدينا عملان نقديان بارزان في هذا القرن (القرن السابع) ، أحدهما من المشرق والثاني من المغرب ، يؤكدان ويبلوران كثيراً من المواقف التي تعتبر في صميم طريقة المحدثين ، وأعني بهما كتاب « المثل السائر » لابن الأثير وكتاب « الوافي في نظم القوافي » لأبي البقاء الرندي .

فابن الأثير يرفض الرأي القائل باقتصار الإبداع على القدماء ويرى أن باب الإبداع مفتوح إلى آخر الدهر ويعتني عناية خاصة بناحية الصور البيانية

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 109 .

من تشابيه واستعارات ويعطي اهتماماً كبيراً لرقة الأسلوب ويقدم أبا. تمام علي غيره من الشعراء حتى أنه يفضله على المتنبي[1] ويجعل دراسة شعره طريق التفوق في البلاغة والفصاحة لأنه « رب معان ، وصيقل لباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر لن يمشي فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب . . . وقد مارست من الشعر كل أول وأخير . . . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام . . . »[2] .

ويسير أبو البقاء الرندي ، الذي يمثل كتابه « الوافي » أحد معالم النقد الرئيسية في عصر الموحدين ، في خط التيار الذي يمثله ابن الأثير ومناصرو مذهب المحدثين عامة ، فيهتم بالتأكيد منذ البدء على حق المتأخرين في التجديد والإختراع محاولاً الرد على الرأي القديم : « هذا وإن كان من سلف قد سبق في هذا المضمار . . . فأنت ترى كيف أتى السابق بما أدرك ثم جاء اللاحق فنقض واستدرك ، وفي كل شجر نار . . وربما بلغ المتأخر بشرف الإطلاع ما لم يبلغ المتقدم بفضل الإختراع . ولا شك أن للقول باباً لا يسد وللإختيار شأواً لا يحد ولولا ذلك لسد الباب واكتفى في كل علم بكتاب »[3] .

والرندي إلى جانب دفاعه عن المتأخرين ونصيبهم من الإبداع ، يؤكد على كد القريحة وأعمال الذهن مقابل البديهة والعفوية وينصح الشاعر بأنه « ينبغي ألّا يقبل كل ما يبعثه هاجسه وينفث به وساوسه ، بل ينقح ويختار ولا يذهب إلى الإستكثار وإذا فرغ من شعره تثبت في أمره ، فيتأمله مرتين ويرجع البصر فيه كرتين[4] وغني عن البيان أن هذا المبدأ أساس مذهب المحدثين .

---

(1) ابن الأثر ، المثل السائر 2/394 .

(2) المصدر السابق 369 .

(3) الوافي في نظم القوافي (نسخة مصورة) .

(4) المصدر السابق .

وقد اهتم الرندي في كتابه هذا بالبلاغة ـ وخاصة البديع ـ فأفرد لها في كتابه جزءاً كبيراً باسم « محاسن الشعر وبديعه » تحدث فيه عن أربعين باباً بلاغياً بين بيان وبديع .

وفي مجال الشعر سار أبو البقاء الرندي طبقاً لميوله النقدية ، فجاء شعره على حد قول ابن الخطيب « سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » كما أنه عكس ميلاً واضحاً نحو الصنعة والبديع .

وعلى وجه العموم فإن هذه الخصائص المميزة لطريقة المحدثين يمكن تبينها في القسم الأعظم من النتاج الشعري لهذه الحقبة ، وعند الغالبية العظمى من الشعراء . وليس من الصعب وضع شعراء من مثل أبي بكر بن زهر وابن حيون وابن الهيثم وابن الصابوني وابن سهل ـ فضلاً عن الرندي ـ في إطار تلك الطريقة هذا إذا أردنا الإقتصار على الأندلس . وسوف نرى في هذا الفصل والفصل التالي إلى أي مدى تفاعل ابن سعيد مع هذا التيار نقداً وشعراً .

مصادر دارسة نقده :

لم يكتب ابن سعيد مؤلفاً مستقلاً في النقد ، ولكنه صنف كتابي « عنوان المرقصات » و« رايات المبرزين » وهما عبارة عن مختارات من الشعر انتخبها ابن سعيد طبقاً لمقاييس الجودة الفنية عنده . وقد قدم للكتاب الأول بمقدمة موجزة مهمة تكشف الكثير من آرائه النقدية . وبالإضافة إلى ذلك فإن ابن سعيد نثر بعض أحكامه النقدية عند ترجمته لشعراء عصره في القدح و« الغصون » .

آراؤه النقدية :

يبدو ابن سعيد للدارس في كتابي « عنوان المرقصات » و« الرايات » وكأنه أحد هؤلاء المشرفين على سلسلة كتب المختارات الشعرية التي تصدر اليوم في العالم بقصد تعميم الثقافة الشعرية بين الناس عن طريق

نماذج من الشعر الرائع لشعراء ممتازين .

ومهمة اختيار قطع من الشعر الممتاز، وامتيازها نسبي من حيث صلاحيتها لعصرها ولذوق من يختارها، ليست مهمة سهلة. فأمام القائم بالعمل آلاف النصوص الأدبية لمئات الشعراء وعليه أن يختار من بينها القليل القليل الذي يكاد يفي بالغرض ، ومن هنا تنشأ الأهمية القصوى لوجود مقياس نقدي يقوم على أساسه الإختيار .

وهذا ما أحس به ابن سعيد عندما أقدم على تصنيف كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » الذي قرر أن يضمنه ألف بيت فقط[1] تمثل الإبداع في شعر العرب كله من العصر الجاهلي حتى منتصف القرن السابع للهجرة ، بالإضافة إلى مجموعة من النصوص النثرية القليلة التي تمثل بدورها إبداع ما كتبه العرب في مجال النثر الفني .

ومما لا ريب فيه أن المقياس النقدي الذي اعتمده المؤلف في هذا الكتاب وأشار إليه بصراحة قد اعتمده ضمناً في اختياره لأشعار « المغرب » و « المشرق » و « الرايات » وفيما اختاره من شعر المترجم لهم في « القدح » و « الغصون » فما هو هذا المقياس النقدي وما هي تلك الآراء المتنوعة منه ؟ .

1 ـ موقف عام :

نرى ابن سعيد في مقدمة كتابه « المرقص » وفي مقدمة « الرايات » يشدد على الرأي القائل أنه لا فرق بين القديم والجديد وأن فرص الإجادة مفتوحة أمام المحدثين كما كانت متاحة للقدماء وأنه لا مجال لتفضيل عصر على عصر ولا مصر على مصر . « فالله جل وعلا . . . حباها (البلاغة) في كل عصر بأكرم ولي وأعز ناصر ، ولم يقصر الفضل على من تقدم ، وإبان لنا مطارح القصور بمن جعل جنته :

هل غادر الشعراء من متردم

---

(1) المرقصات 4 .

وأجرى الحقيقة على لسان القائل :

فلو كان يفنى الشعر أفنته ما قرت
حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب[1]

ثم إن لكل عصر مهمته المعينة التي قام بها فـ « لله در القائل أن المتقدمين بنوا فأوثقوا وأن المتأخرين زينوا ونمقوا »[2] . وهكذا إن المتقدمين وضعوا أساس البلاغة قوياً وثيقاً تاركين للمتأخرين فضل زركشة البناء وزخرفته . وليس من الجائز أن نفرض على كل العصور نمطاً معيناً من الذوق الفني إذ أنه « لكل زمان ما يليق به من البيان . . . والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم »[3] فظروف الزمن الحاضر تفصل الإنسان عن تقاليد ومنازع كانت لآبائه وتضطره للتلاؤم معها بشيء جديد من عنده . . وخلاصة الأمر أن البلاغة لم تزل « في كل عصر بالمشارق والمغارب تطلع ما يزين سماءها من شمس وبدور وكواكب . والمنصف من أطال عنان الإختبار دون اقتصار ولم يخص بالفضيلة عصراً من الأعصار ولا مصراً من الأمصار »[4] .

ويشعر المرء وهو يلاحظ الطريقة التي يصوغ ابن سعيد بها مقدمته أنه يرد على آراء معينة وأنه يسعى لنقض مذهب مضاد :

1 ـ فباب الإبداع مفتوح ، وإن الأمر ليس كما قال عنترة ـ وجاراه أنصار الطريقة القديمة .

2 ـ كما لا يفضل عصر على عصر كذلك لا يفضل قطر على قطر .

3 ـ للأوائل فضل البناء وللأواخر فضل التزيين . وكأنه يريد أن يقول أن الأوائل وضعوا قواعد اللغة وركبوا الأساليب وأنشأوا العروض

---

(1) المرقصات 3 .
(2) المصدر السابق 3 .
(3) المصدر السابق 3 .
(4) المصدر السابق 3 .

وأصطلحوا المفردات وإن دور المحدثين في إدخال التشابيه البديعة والمحسنات اللفظية والرقة والسهولة على ذلك البناء الوثيق .

ومن الواضح أن ابن سعيد يتخذ هذه المواقف النقدية انسجاماً مع مذهبه النقدي العام ـ ألا وهو مذهب المحدثين ـ وانسجاماً مع نزعته المغربية الأندلسية ، فإيقاف الفضل على المتقدمين معناه التقليل من كل ما قاله وسيقوله المحدثون . وتفضيل قطر على قطر ـ من ناحية أخرى ـ لن يكون في صالح المغرب والأندلس فعند المقارنة الجدية سيكون من الصعب تخطي العراق والشام والجزيرة .

والواقع أن المرء عندما يتابع ابن سعيد في اختياراته وإشاراته وتقييماته يشعر أن الرجل يفضل طريقة المحدثين على طريقة القدماء وأنه يميل إلى تفضيل بلده أو على الأقل إلى التذكير بأن لبلده مزايا ليست لغيرها في مجال الشعر بالذات .

فهذه بعض آرائه مثلاً في نتاج القدماء :

1 ـ «وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وما تحتها»[2] ودرجة المقبول هي الدرجة الثالثة بعد درجة المرقص ودرجة المطرب . . ومعنى ذلك أن نثر المحدثين متفوق بوضوح على نثر القدماء . . . فمنه المرقص ومنه المطرب .

2 ـ ويبدو أن نثر القدماء لا يعجب ابن سعيد حتى زمن ابن العميد . فرسالة هذا الكاتب الشهيرة التي كتبها باسم ركن الدولة إلى الثائر بلكا « وإن أطنبوا فيها وجعلها الثعالبي واسطة لعقد ترسل ابن العميد فإنها من طبقة المقبول . . . وفيها أيضاً من إهمال التقيد بالسجع ما هو خارج عن شرط هذا الكتاب »[3] أما الذين سيستحوذ نثرهم على إعجابه فهم

(1) المرقصات 5 .

(2) المصدر السابق 7 .

(3) المصدر السابق 9 .

الهمداني الذي عده « من سابقي هذه الحلبة ومن جاز في مراتبهم أعلى رتبة »[1] والقاضي الفاضل الذي لا يعلم (ابن سعيد) « بالمشرق والمغرب مثله »[2] وضياء الدين بن الأثير « إمام كتاب المائة السابعة في فن هذا الكتاب » .

3 ـ يخالف المتقدمين في تأخيرهم عنترة ويعتبره متقدماً « بالنظر إلى معاني الغموض »[3] ويستدل بأبياته :

جادت عليه كل عين ثرة
فتركن كل حديقة كالدرهم
وخلا الذباب بها فليس ببارح
غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه
قدح المكب على الزناد الأجذم

وبيته :

فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

والذي جعله يقدم عنترة من خلال هذه الأبيات هو هذه التشابيه التي يسميها « معاني الغوص » . . وهي نزعة أساسية في طريقة المحدثين وخاصة خلال القرن السابع .

4 ـ يصف أوصاف الأعشى الخمرية بأنها « إعرابية جافية يخرجها جفاء نمطها عن المرقص »[4] .

---

(1) المصدر السابق 10 .
(2) المصدر السابق 15 .
(3) المرقصات 17 .
(4) لم يدخل ابن سعيد مصر في هذا الكتاب ضمن المغرب كما فعل في « المغرب » و « عنوان المرقصات » فالأمير الذي يؤلفه في مصر ويريد الإطلاع على شعر الأندلس ومُراكش والمغرب الأوسط .

عندما صنف كتابه « رايات المبرزين » للأمير المشرقي ابن يغمور تعمد أن يقصره على أفضل ما قاله شعراء المغرب خلال الثلاثمئة سنة الأخيرة . وقدم له بمقدمة دلت على اعتزازه الشديد بهذا الشعر (والكتاب سيطلع عليه شعراء المشرق وخاصة الذين قابلهم في مصر من البهاء زهير إلى ابن مطروح إلى سيف الدين سابق إلى ابن العديم) . قال ابن سعيد في تلك المقدمة : « فهذا مجمع أوردت فيه من غرائب شعر المغرب[1] ما كان معناه أرق من النسيم ولفظه أحسن من الوجه الوسيم . . . إذ هو كما قال أحد شعرائهم :

شعر على الشعرى علا قدره
عنه ثناء الصدق لا يثني
ينقلب القلب له جودة
ويدخل القلب بلا إذن

« وحق له ذلك إذ قص ألفاظه مفصلة على قدود معانيه وزخرف اتقانه من حسن مبانيه ، واشترطت مع هذا أن لا أورد منه إلّا ما لم يسبقوا إلى فضاه أو استحقوه بزيادة أو حسن عبارة أبرزته بعد تجديده في حلاه »[2] .

فإذن يحق لشعر المغرب (الذي هو الأندلسي في غالبيته العظمى كما ورد في الكتب) أن يعلو على النجوم . . . ثم إن هذا الشعر المختار كله معان مخترعة أو مزاده لم يصل إليها شعراء المشرق .

6 ـ في ترجمته للشاعر الدمشقي ابن الساعاتي في كتاب « الغصون » يصف شعره بأنه « يجمع بين ألفاظ المشارقة الرقيقة ومعاني المغاربة الدقيقة فلا يخلو من صقل الكلام وغوص الفكر »[3] فإذا كان للمشارقة ألفاظهم الرقاق فللمغاربة معانيهم الدقاق وإن امتاز أولئك بصقل كلام فإن هؤلاء

---

(1) المصدر السابق .
(2) الرايات 5 .
(3) الغصون 12 .

يمتازون بغوص فكر . وغوص الفكر في عرف ابن سعيد إشارة على قدرة الإتيان بتشابيه بعيدة الغور دقيقة التفاصيل . . تفـاجىء . . وتدهش . . . وهذه القدرة على ما يبدو ينسبها هنا للمغاربة .

هذا فيما يختص بموقف ابن سعيد النقدي بصورة عامة . ولعله من الخير في ختام هذا الـكلام أن نذكر أن ابن الأثير والرندي في كتابيهما النقديين اتخذا الموقف العام ذاته تقريباً بالنسبة للقضايا التي تناولها ابن سعيد .

وقبل الإنتقال إلى النقد « الفني » عند ابن سعيد ، لا بد من وقفة عند تقسيماته « المكانية » و« الزمانية » للنتـاج الأدبي . ففي كتابي المغـرب والمشرق نلحظ « حساً جغرافياً » واضحاً يسايره « حس تاريخي زماني » فهو يقسم القطر إلى أقسامه الرئيسية ثم يقسم كل قسم إلى مدنه الهامة . ويبدأ بالحديث عن المدينة حديثاً جغرافياً محدداً يتنـاول جوهـا وطبيعتها وأحياناً مزاج أهلها وشهرتهم ثم يأخذ في الترجمة للشخصيات حسب التتابع الـزمني وقد تمت الإشـارة إلى منهجـه هـذا تفصيـلاً عنـد الحـديث عن مصنفاته .

السؤال الذي أود أن أطرحه هنا يتعلق بإمكانية وجود صلة بين نظراته النقدية وبين هذا المنهج في التقسيم والتبويب : إلى أي مدى استطاع ابن سعيد ـ إن كان الإحتمال وارداً ـ التنبه إلى العلاقة بين النتاج الأدبي وبين البيئة المكانية والظروف الزمانية ؟ وهل يمكن تفسيـر منهجه في التقسيم على أنه شعور بتلك العلاقة ؟

الواقع أن ابن سعيد لم يشر صراحة إلى هذه الناحيـة . وليس من سبيل إلى تحميله ما لم يقله أو يشير إليه من قريب أو بعيد . إلاّ أن التساؤل يظل قائماً وليس الجواب عنه بالإيجاب أمراً مستحيـلاً وإن لم يكن قوي الإحتمال . فابن سعيد في بعض الأحيان يورد شعراً لشعراء مدينـة معينة تنعكس فيه خاصية واضحة من الخصائص التي وصف بها أهل تلك المدينة أو جوها (وإن كان ذلك الشعر يحمل خصائص أخرى أيضاً) ، كما أنه أشار في مقدمة المغرب إلى علاقة الأدب بفروع المعرفة الأخرى ـ وكان

يقصد التاريخ والجغرافيا على وجه الخصوص ـ ملمحاً إلى أن النقد يحتاج إلى ثقافة تتعدى مجال الأدب الخالص : « إذ هذا الفن الأدبي متطفل على سواه متوشح بغيره من الفنون توشح البلابل بالدوح من أسفله إلى أعلاه ، ولذلك احتجنا مع الإستضلاع من صميم فنه إلى مطالعة غيره من الفنون التي مزجناه بها مزج الصهباء بالماء . .[1] فهل يمكن تفسير هذا القول على ضوء ذلك الإهتمام ؟ وربط كل ذلك بإشارته السابقة من أن الناس أقرب إلى عصورهم وأزمانهم منهم إلى آبائهم ؟

قد يكون الإحتمال وارداً ، ولكن ابن سعيد في نقده التطبيقي يبدو أبعد ما يكون عن تصورات كهذه .

2 ـ درجات الشعر :

في مقدمة كتاب « المرقصات » قسم ابن سعيد الشعر إلى خمس درجات :

أ ـ مرقص : وهو « ما كان مخترعاً أو مولداً يكاد يحلق بطبقة الإختراع »[2] مثل :

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالاً على حال

و . . . .

فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى

. . . .

والشمس لا تشرب خمر الندى
في الروض إلا بكؤوس الشقيق

ويتضح من تعريف ابن سعيد للمرقص ومن هذه الأمثلة وكافة الأمثلة

---

(1) مسالك الأبصار (نسخة مصورة) ، الجزء 8 ، ورقة 382 .
(2) المرقصات 4 .

الواردة في أنه يقصد بالشعر المرقص ـ شعر الدرجة الأولى ـ ذلك الشعر الذي يتضمن تشابيه بعيدة ودقيقة . . . من ذلك النوع الذي يسمى في البلاغة بتشبيه التمثيل « أو تشبيه حاله بحاله » . . . وهو التشبيه بين حالتين في إطارها العام ثم التوفيق بين دقائقهما التفصيلية . . . .

ففي البيت الأخير مثلاً :

الشمس لا تشرب خمر الندى
في الروض إلّا بكؤوس الشقيق

لدينا تشبيه حالة تبخير حرارة الشمس لقطرات الندى من على أزهار الشقيق بحالة شارب الخمرة الذي يحتسي شرابه من الكأس .

ثم لدينا مقابلة الدقائق بالدقائق :

الشمس تشبه الشارب ، والندى هو الخمر ، وربما كانت هناك ثمة إشارة بأن الروض هو الحانة ، وأما أزهار الشقيق فهي الكؤوس .

ويكاد هذا القياس ينطبق على كل ما أورده ابن سعيد في باب المرقص . وهذه بعض نماذج وشواهد على ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

1 ـ للمجنون :

بعاد وهجر واشتياق ولوعة
ولا أنت تدنيني ولا أنا أقرب
كعصفورة في كف طفل يضمها
تذوق حياض الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لما بها
ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب[1]

فحالة الشاعر هنا بوقوعه في أسر الحب تشبه حالة العصفور الواقع في

(1) المرقصات 24 .

يد طفل يعذبه . . . ثم تأتي التفاصيل لتحدد :

الشاعر المحب كالطائر الفاقد جناحيه ، والمحبة الغريرة كذلك الطفل الغرير اللاهي . وحالة التعذيب القاتل غير المتعمد مشتركة بين الحالتين .

2 ـ أبو نواس :

فتمشت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم

وقوله :

كأن يواقيتاً بصحن إنائها
وزرق سنانير تدير عيونها[1]

3 ـ أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف فضل طيب العود

وليس من الضروري أن تأتي الصورة البيانية على هيئة تشبيه صريح . . . فالمهم هي فكرة الغوص « والمعنى الدقيق البعيد . . . جاء تشبيهاً أم إستعارة . فمن المرقصات مثلاً هذه الإستعارات (والإستعارة كما هو معروف في البلاغة تشبيه حذف أحد طرفيه) الواردة في بيت « مرقص» لأبي تمام :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دماً، ضحكت عنه الأحاديث والذكر[2]

---

(1) المصدر السابق 31 .

(2) المصدر السابق 33 .

4 ـ إبن الرومي في تفضيله النرجس على الورد :

أين العيـون من الـخـدود نفـاسـة
ورئـاسـة لـولا القياس الفـاسـد ؟

5 ـ إبن المعتز في وصفه للهلال :

ولاح ضـوء هـلال كـاد يفضـحنـا
مثـل القـلامـة قـد قـدت من الـظفـر

وقوله :

وانـظر إليـه كـزورق مـن فـضـة
قـد أثقلتـه حمـولـة من عـنبـر[1]

6 ـ إبن خفاجة :

وقـد خلعت ليـلاً علينـا يـد الهـوى
رداء عـنـاق مـزقتـه يـد الـفـجـر

7 ـ وقول ابن سعيد في غلام أحاط الشعر النابت بخال على خده :

كـأنّ خـالاً لاح مـن خـده
لـلعيـن في سـلسـلة مـن عـذار
أسـيـود يـخـدم فـي جـنـة
قـيـده مـولاه خـوف الـفـرار

فالمقياس باستمرار هو وجود الصورة البيانية البعيدة ، الدقيقة ، التي يتم التلاؤم بين تفصيلاتها .

ب ـ مطرب : وهو « ما نقص فيه الغوص عن درجة الإختراع إلاّ أن فيه مسحة من الإبتداع »[2] وهو على ما يبدو من خلال الأمثلة التي اختارها صورة بيانية تقل عن درجة المرقص غرابة وبعداً وإغراقاً في التفاصيل . كقول زهير :

(1) المرقصات 39 .
(2) المصدر السابق 4 .

تـراه إذا مـا جئتـه متـهـللاً
كـأنـك تعـطيـه الـذي أنت سـائله

ج ـ مقبول : وهو « ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل »[1] . . . وهذا هو الشعر السهل ، العذب في لفظه ، العادي في معناه ، الخالي من التشابيه والإستعارات والبديع . كقول طرفة :

ستبـدي لك الأيـام مـا كنت جـاهـلاً
ويـأتيـك بـالأخبـار مـن لم تـزود

د ـ مسموع : وهو : « ما عليه أكثر الشعراء مما به أكثر القافية والوزن دون أن يمجه الطبع ويستثقله السمع »[2] ويبـدو أن ابن سعيد يقصـد به الكلام المنظوم ذا الأسلوب العادي والمعنى العادي الخالي من كلمة نابية أو معنى ملتو كقول امرىء القيس :

وقـوفـاً بهـا صحبي علي مـطيهـم
يـقـولـون لا تهـلك أسى وتـجمـل

والظاهر أن الأسلوب الجاهلي القوي الجزل لا يرفع من منزلة الشعر عنـد ابن سعيـد فهـذا البيت من معلقـة امـرىء القيس يعـد من درجـة المسموع .

ويبدو من المثل الثاني الذي يورده هنا من شعر ابن المعتز :

سقى الجـزيـرة ذات الـظل والشجـر
وديـر عـبـدون هـطال مـن الـمـطر

يبدو من هذا المثل والمثل الذي سبقه أن المسموع عند ابن سعيد هو المعنى المكرر الذي يردده كل الشعراء كمعنى الوقوف على الأطلال وطلب الغيث .

---

(1) المصدر السابق 5 .

(2) المصدر السابق 5 .

هـ ـ المتروك : « ما كان كلاً على السمع والطبع كقول المتنبي :

فقلقلت بـالهم الـذي قلقـل الحشـا
قـلاقـل عـيس كـلهـن قـلاقـل[1]

وظاهر أن المتروك ما استكدر نـظمـه والتوى معناه أو استغلق . ومن الملاحظ أن ابن سعيد لم يـورد في الطبقـات الأربع السـابقـة أي بيت للمتنبي . واستخـدم في أدنى درجة بيتـاً من شعره لـلإشـارة إلى الشعـر المتروك . وهو أمر قد يكون وليد المصادفة إلاّ أنه يمكن أن يتخذ دليلاً على مدى تقدير النقد في القرن السابع لشعر أبي الطيب وللمدرسة التي يمثلها .

3 ـ مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد :

أ ـ رأينا أن مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد هو أن يكون الشعر من درجة المرقص الحافل بالصور البيانية من استعارات وتشابيـه بعيدة ، دقيقة ، حافلة بالتفاصيل ، مفاجئة ومدهشة تشغل العقـل وتملأ النـظر . ويبدو أنه كان يقدم الشعراء على هذا الأساس ولا يعـد الشاعـر في نظره شاعراً إذا لم يكثر من التشابيه و« معاني الغوص » على حد تعبيره . فقد رأيناه كيـف قدم عنترة بسبب مجموعـة من التشابيـه الواردة في معلقتـه . وسنعمل الآن على النظر في تعليقاته على مختارات بعض الشعراء الذين قدمهم في كتاب « المرقصات » : فها هوذا يقدم أبا نواس بقوله : « هو من أئمة أصحاب الغوص ولا سيما في أوصاف الخمر[2] ثم يورد تسع نماذج من شعره حافلة كلها بالصور البيانية .

ويظهر إعجاب ابن سعيد بشعر أبي تمام من خلال كثرة النماذج التي يوردها له . فقد أورد له خمسة عشر نموذجاً حافلة بالبديـع والإستعارات والتشابيه من مثل[3] :

---

(1) المرقصات 5 .
(2) المرقصات 31 .
(3) المصدر السابق 33 ـ 34 .

كـواكـب زارت فـي لـيـال قـصـيـرة
يـخيـلن لـي مـن حسـنهـن كـواكـبـا
وجـوه .. لو أن الأرض فيهـا كواكب
تـوقـد للسـاري .. لكـانت كـواكبـا

ومن مثل :
تـردى ثيـاب المـوت حمـراً فمـا أتى
لهـا الليل إلاّ وهي من سنـدس خضر

ومن مثل :
يخفى الـزجاجـة لـونهـا فكـأنهـا
فـي الـكـف قـائـمـة بـغـيـر إنـاء

وأبو تمام يعتبر رأس طريقة المحدثين وإمامها فهو الذي جعلها اتجاهاً شعرياً واضحاً بعد أن كانت ظواهر متناثرة في شعر القدماء . وقد تعصب الكثيرون لأبي تمام ضد المتنبي والبحتري انتصاراً منهم لهذه الطريقة . ولقد أمكن القول أن حركة النقد في القرن الرابع وما بعده كانت تعبيراً عن الصراع بين المذهبين .

ومن شعراء توليد المعاني والتنقيب عنها الذين أعجب بهم ابن سعيد الشاعر ابن الرومي الذي قال عنه : « يقولون أنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده »[1] وكذلك سمي شاعر البديع عبد الله بن المعتز « إمام المشبهين في الدولة العباسية »[2] .

ومما يجدر ذكره أن ابن سعيد في مختاراته لم يلتفت إلى أي نتاج شعري ، مهما علا قدره وعظمت مكانته ـ ما لم يكن خاضعاً لمفهومه الذي ذكرناه ، فهو بلا شك قد اطلع على شعر البحتري والمتنبي مثلا . يدل على ذلك إيراده لنماذج من شعرهما . ولكن ما أورده من شعر لهما يشير بوضوح

---

(1) المصدر السابق 37 .
(2) المرقصات 39 .

إلى أنه لم يقدر النتاج الذي كان أساس نجاحهما وشهرتهما بل قدر ما خضع لمفهومه وذوق عصره .

فشاعر كالبحتري مثلاً عرف بشعره المطبوع ، المتأثر بالأسلوب والجو البدويين ، البريء من زخارف البيان والبديع . . . ولكن كيف قدر ابن سعيد هذا الشعر ؟ . . . لقد اختار من ديوان البحتري كله بيتاً واحداً فقط اعتبره في مستوى المرقص .

وهذا البيت هو :

شرف تتابع كابراً عن كابر
كالرمح أنبوباً على أنبوب[1]

وهو بيت كان يمكن للبحتري ألاّ يقوله مطلقاً . . دون أن يغير ذلك من مكانته شيئاً فهو لا يمثل طابعه ولا طريقته . . . ولكن ـ مع ذلك ـ « أرقص » ابن سعيد ـ والنقد معه ـ في القرن السابع .

وفيما يختص بشعر المتنبي فإن الناس ظلوا يعجبون على العموم في شعره .

أ ـ بهذا النفس الملحمي ذي الأسلوب الجزل المتدفق .

ب ـ وبتلك النظرات التأملية الحية ، النابعة من تجربة صادقة ، المسكوبة في أسلوب قوي متين .

ولكن ابن سعيد ـ وفاء منه لذوقه ولمقاييسه ومقاييس عصره النقدية ـ لا يعجب بأي من ذلك . . ولا تلفت نظره في نتاج المتنبي الغزير إلاّ « المرقصات » الستة التالية[2] :

1 ـ فإن يك سيار بن مكرم انقضى
فإنك ماء الورد إن أذهب الورد

---

(1) المصدر السابق 36 .   (2) المصدر السابق 40 .

2 ـ فـاصبح شعـري منهمـا في مكـانـه
وفي عنق الحسنـاء يستحسـن العـقـد
3 ـ والـهـجـر أقـتـل لـي مـمـا أراقبـه
أنـا الغـريق فمـا خـوفي من البلل
4 ـ ومـا ثـنـاك كـلام النـاس عـن كـرم
ومن يسـد طـريق العـارض الـهـطل
5 ـ فـإن تـفـق الأنـام وأنـت مـنـهـمُ
فـإن الـمسـك بـعض دم الـغـزال
6 ـ وعـدت إلـى حـلب ظـافـراً
كـعـود الـحـلى إلـى الـعـاطـل

ويبدو أن ابن سعيد يضع شعر الحكمة والتأمل ـ الخالي من صـور البيان من تشبيه واستعـارة ـ في درجة المقبـول مهما كـان رائعاً في مبنـاه ومعناه . فهو يقدم بيت طرفة « ستبدي لك الأيام » وبيت ابن شرف[1] :

لا تسـأل النـاس والأيـام عن خبـري
هـمـا يبـثـانـك الأخبـار تـفـصيـلاً

يقدمهما كنموذجين على شعر طبقة المقبول . ثم هو يصف زهيراً بأنه شاعر « أكثر ما اشتهر به الحكم والأمثال مما يدخل في طبقة المقبول »[2] .

ب ـ ويجمل بنا ونحن نتحـدث عن مقياس ابن سعيـد النقدي أن نتساءل عن كيفية تصوره لمقياسه ؟ قلنا أن المقياس هو الإتيـان بالتشبيـه البعيـد الدقيق . . فمـا هي مزايـا هـذا التشبيـه هـل هـو الصورة الحيـة المتحركة ؟ أم هو النقش الملون الجامد ، هل هو تشبيه الأشياء بما هـو أجمل منها أو أقوى في ناحية معينة أو أشهر ؟

يبدو أنه في أغلب ما يختاره من شعـر « مرقص » لا يهتـم بحـيويـة التشبيه وجماله بقدر ما يهتم ببعده وطرافته وجدته . فها هوذا يورد التشابيه

---

(1) المرقصات 5 .
(2) المصدر السابق 16 .

الآتية في « مرقصاته » :

لابن المعتز :

ولاح ضـــوء هـــلال يكـــاد يفضحنـــا
مثـل القـلامـة قـد قـدت من الـظفـر

وقوله :

وانـــظر إلـيـــه كـزورق مـن فـضـة
قـــد أثقلتــه حمـــولــة من عـنبــر[1]

ولذي الرمـة الذي وصفه بأنه « فارس ذلك العصر في معاني الغوص لتولعه بالتشبيه والتمثيل وحسن التخيل وهو رئيس المشبهين الإسلاميين»[2] قوله :

كـأن أنـوف الـطيـر في عـــرصـاتهـــا
خـــراطـيـم أقــلام تــخط وتـعـــجـم

وللراعي قوله في رجل أسود :

والنجـم في كـبـــد السـمـــاء كـأنـــه
أعمى تحيـــر مـــا لـــديـــه قـــائـــد[3]

ومن البين أن كل هذه التشبيهات رآها ابن سعيد « مرقصة » إما أن تكون غريبة أو ملونة مزخرفة أو دقيقة . . أو لمجرد أن أحداً لم يتنبه لها من قبل ولكنها ـ على أي حال ـ لا تمثل حيوية وحركة ولا تعكس جمالاً ولا تفي بالغرض التي أوردت من أجله إيفاء تاماً بل أن بعضهـا أورد لمجرد التشبيه لا لتوضيح أي معنى كبيت ابن المعتز الثاني مثلاً .

ج ـ في شعـر الغزل بـالذات يـلاحظ أن ابن سعيـد لا يتشـدد في

---

(1) المصدر السابق 39 .
(2) المصدر السابق 22 .
(3) المصدر السابق 29 .

استخدام قياسه المعتاد . . ويقبل القصيدة الغزلية المشبوبة العاطفة المعبرة عن تشوق المحب الشديد على أنها من الشعر الجيد . . إلا أنها لا ترقى في نظره إلى درجة المرقص . . . بل يضعها في الدرجة الثانية من الجودة ألا وهي طبقة المطرب . من ذلك شعر المجنون من مثل :

أعـد الليـالـي ليـلة بعـد ليـلة
وقـد عشت دهـراً لا أعـد اللياليـا

وقوله :

ألا أيهـا الـركب اليمـاني عـرجـوا
علينـا فقـد أمسى هـوانـا يمـانيـا

وقوله :

فـلا حب حتى يلصق الجلد بالحشى
وتصمت حتى لا تجيب المنـاديـا[1]

وقول الهذلي :

هجـرتك حتى قيـل لا يعرف الهـوى
وزرتـك حتى قيـل ليس لـه صبـر[2]

وهذه الأشعار الغزلية الرقيقة تشبع ذوقه الأندلسي من حيث موضوعها الغزلي ومن حيث أسلوبها الرقيق السهل .

د ـ يرى ابن سعيد أن « السرقة الأدبية » جائزة إذا « لم يقع الحافر على الحافر » وإذا استطاع الشاعر أن يأخذ المعنى السابق ويطوره أو « يلفق » بين معنيين متقاربين فيخرج منهما بمعنى شبه جديد .

---

(1) المرقصات 24 .

(2) المصدر السابق 28 .

فقد ذكر في « المرقصات »[1] أنه أخذ معنى علقمه المرقص في قوله :

أوردتهـا وصـدور العيس مسنفـة
والصبح بالكوكب الدرى منحـور

فأعاد صياغته وزاده إيضاحاً :

كـم زرتـه ورواق الليـل منسـدل
مسهـم راق إعجابـاً بـأنجمـه
وأبت والصبـح منحـور بكـوكبـه
وسـائـل الشفق المحمـر من دمـه

وأورد في « الغصون » البيتين لشميم الحلى في ترجمته :

ألا هـاتهـا حيث الجـداول أصبحت
تـصـول على أرجـائـهـا بـصـلال
لـدي نـرجس يسبي العيـون بمثلهـا
كـأقـراط تـبـر كـللت بـهـلال

ثم عقب عليهما قائلاً : « فهو وإن لم يأت بما يظهر عليه غوص الفكر فإنه ما قصر في سبك اللفظ وتقريب المعنى وزيادة التلفيق . وأشهر ما تقدمه في تشبيه النرجس بالأقراط قول ابن عبد ربه القرطبي صاحب العقد :

على يـاسمين كـاللجين ونـرجس
كـأقـراط تبـر في قضيب زبـرجـد

نظر إليه وإلى قول أبي الطيب السلامي :

أنـظر إلـى غصـن لـوتـه الـصبـا
وقـد غـدا مـن زهـره فـي حـلى
كـأنـه جـيـد عـلى قـامـة
مـن عـقـده بـالـدر قـد كـللا

---

(1) المصدر السابق 17 .

ولفق منهما ما استحق به اسم شاعر »[1] .

هـ ـ ويعتبر ابن سعيد أن وضوح اللفظ ورقته وتلاءمه مع المعنى الشعري من مزايا الشعر الجيد . فهو يقدم لبيت طرفه :

يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

قائلاً بأنه شعر : « مرقص كدره استغلاق لغته »[2] .

ويورد هذه الأبيات الغزلية لأستاذه الشلوبيني :

ومما شجى قلبي وفض مدامعي
هوى قد قلبي إذ كلفت بقائم
تعشقته جهدي فكان لشقوتي
وطول عنائي قاسياً غير راحم
وكنت أظن الميم أصلاً فلم تكن
وكنت كميم ألحقت في الزراقم

ثم يقول : « الزراقم : الحيات . والمراد أنه قاس . فانظر إلى هذا التكلف في الغزل والتعسف الذي يكدر كل قول وعمل »[3] .

4 ـ مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد :

من خلال الملاحظات التالية ربما كان بإمكاننا الخروج بصورة شبه متكاملة عن مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد .

أ ـ قال ابن سعيد في مقدمة « المرقصات » : « وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وما تحتها »[4] .

---

(1) الغصون 6 ـ 7 .
(2) المرقصات 16 .
(3) القدح 153 .
(4) المرقصات 5 .

ب ـ انتقد رسالة ابن العميد بسبب إهماله « التقيد بالسجع » ووصفها بأنها من طبقة المقبول[1] .

ج ـ أكثر من إيراد نماذج لأصحاب مذهب السجع والبديع من أمثال الهمداني والحريري والقاضي الفاضل وابن الأثير . وكل ما أورده لهم من نماذج حافل بمحسنات البديع وصور البيان ، متقيد بالسجع إلى أبعد الحدود[2] .

د ـ لم يورد أية نماذج في « المرقصات » منذ نثر ابن المقفع والجاحظ . والمعروف أنهما يمثلان مذهبين في النثر يختلفان عن مذهب القاضي الفاضل ومن نحا منحاه ، والذي أورده لعبد الحميد الكاتب عبارة نثرية قصيرة مسجعة لا تمثل أسلوبه الأصيل[3] .

من هذه الملاحظات يتبين لنا ما يلي : .

1 ـ إن مقياس الإجادة في النثر الفني هي في ذلك الأسلوب المتقيد بالسجع ، الحافل بالمحسنات البديعية ، المليء بصور البيان من تشابيه واستعارات .

2 ـ إن القدماء لم يبدعوا في نثرهم كالمحدثين لأنهم أهملوا التقيد بشروط النثر الجيد .

***

هذه مجموعة من الآراء التي أمكن استخراجها من مقدمة « عنوان المرقصات والمطربات » ومن النظر في النصوص الشعرية التي اختارها للكتاب ولكتاب « الرايات » ولكتاب « المقتطف من أزاهر الطرف » ومن أحكامه المنتشرة هنا وهناك في « القدح » و « الغصون » وإذا جاز لنا أن نجمل ما تقدم أمكن تركيز آراء ابن سعيد النقدية فيما يلي :

---

(1) المصدر السابق 7 .

(2) المصدر السابق 9 ـ 10 .

(3) المصدر السابق 6 .

1 ـ أنه لا فضل لقديم على جديد ولا قطر على قطر . وأن مجال الإجادة مفتوح أمام كل صاحب موهبة .

2 ـ إن لكل عصر ذوقه وأساليب بيانه التي تختلف عن العصور السابقة .

3 ـ مقياس الجودة الشعرية هو الإتيان بصور بيانية تكون بعيدة ، مستجدة ، دقيقة في تفصيلياتها ، مفاجئة ومدهشة . . تدل على « غوص الفكر » ، وأن يكون ذلك في أسلوب سهل رقيق يجليها ويوضحها .

4 ـ يمكن للشعر أن يحقق مقداراً من الجودة وإن خلا من صور البيان ـ شريطة أن يكون رقيق الأسلوب ، غزلي الموضوع ، مشبوب العاطفة .

5 ـ النثر المختار هو ما تقيد بالسجع وحفل بالبديع وصور البيان .

6 ـ يجوز للأديب أن يقتبس معاني سابقية شريطة أن يطورها ويجليها أو يلفق فيما بينها ببراعة ليأتي بنتاج شبه جديد .

***

من كل ذلك يتبين لنا أن ابن سعيد لا يخرج في آرائه النقدية عن الجو النقدي السائد في ذلك العصر . وأنه يتبنى آراء عرفت بانتشارها في كتب البلاغة والنقد التي كانت تظهر في ذلك الحين .

وكتاب ابن الأثير « المثل السائر » وكتاب الرندي « الوافي » اللذان تمت الإشارة إليهما شاهدان على ذلك ، وإذا كانت آراء ابن سعيد في النقد لا تمثل أصالة ولا طرافة في ذاتها فإن خطورتها في أنها تحكمت في اختياره للنصوص وهو المصنف الذي قضى عمره في البحث عن هذه النصوص وتبويبها وتهذيبها . . . وهذا يعني أنه وأمثاله من المصنفين الذي خضعوا لنفس المقياس في الإختيار قد أثروا بصورة قوية في ذوق هذا القرن والقرون التي تلت عبر مختاراتهم ومصنفاتهم التي اعتبرت خزائن للبيان ونماذج للبلاغة والأدب الرائع .

الفصل السادس

اثاره الشعرية
غربة مغربية في صنعة مشرقية محدثة

1 ـ تمهيد
- مصادر شعره
- آراء سابقة متفرقة في شعره

2 ـ نقد شعره
- المظاهر الرئيسية
- الناحية الفنية
- تأثيرات متعددة في شعره

1 ـ تمهيد

مصادر شعره

لابن سعيد ديوان شعر رتبه على حروف المعجم ، إلّا أن هذا الديوان لم يصل إلينا . ولكن المقري ، الذي أخبر عنه[1] ، حفظ لنا قدراً لا بأس به منه . وسيكون التعويل في دراسة شعر ابن سعيد على ما أورده المقري في « النفح » ، بالإضافة إلى ما أورده ابن سعيد من مختارات قليلة لنفسه في « المغرب » و« القدح » و« الرايات » و« الغصون » و« المقتطف » ، وما ذكره له العمري من نماذج متفرقة في « مسالك الأبصار »[2] .

آراء سابقة متفرقة في شعره

نلتقي بابن سعيد ، أول ما نلتقي ، في مجال الشعر وهو شاب في حوالي العشرين من عمره يصحب والده في تجواله بين مدن الأندلس ويجاريه في النظم . فمن ذلك الأبيات التي نظمها عند مرورهما في بريّة بين وادي المنصور ولورقة عندما طلب منه والده أن يجيز ويتم هذا البيت :

ومجهلة معروفة بتوحش
يصير بها قلب الشجاع جبانا

(1) النفح 3/69 .
(2) مسالك الأبصار 8 ، ورقة 382 ـ 388 (نسخة مصورة) .

فقال :

تـرى الآل فيهـا خـافقا متعـطشـا
يمـد إلى نفـح الهـجيـر لـسـانـا
لبسـت بهـا شـمس الـظهيـرة حـلة
مـذهبـة حيـث الهـجيـر كـسـانـا

الخ

فقال له أبوه : هذا طراز يعجز عنه أبوك ! »[1] .

وإذا تجاوزنا هذا التشجيع الأبوي الذي لا يمكن حمله على محمل النقد الجدي ، وجدنا ابن الخطيب يشير إلى تعاطيه المبكر للنظم قائلاً : « وتعاطى الشعر في حسد من الشبيبة يعجب فيه من مثله . فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى أشبيلية وفي صحبته سهل بن مالك[2] . فجعل سهل بن مالك يباحثه عن نظمه إلى أن أنشده في صفة نهر :

كـأنـمـا النـهـر صـفـحـة كـتبـت
اسـطرهـا ، والـنـسـيم ينـشئـهـا
لـمـا أبـانـت عـن حـسـن منـظرهـا
مـالت عليهـا الغـصـون تقـرؤهـا

فطرب وأثنى عليه »[3] .

ولا يعلم لماذا طرب سهل وما كان ثناؤه . ولربما أعجبته هذه الصورة البعيدة التي اعتنى باصطيادها هذا الفتى الناشىء .

ويكاد يكون في حكم المتعذر العثور على أحكام نقدية واضحة لأحد معاصريه أو لمن جاء بعده في القديم . فجميع الأخبار المروية بهذا الشأن

---

(1) القدح 4 .

(2) عالم ، أديب ، رئيس . نفي في ثورة ابن هود من بلده غرناطة الى مرسية ثم عاد إليها . توفي سنة 640 (انظر القدح ص 60 ـ 65) .

(3) النفح 3/38 .

تشير إلى إعجاب القوم بشعره نظراً لتناسبه مع مقتضى الحال والمقام لا لسبب فني داخلي . فأدباء القاهرة ـ ومن بينهم أبو الحسين الجزار وابن أبي الإصبع ـ يتهافتون ببيته هذا ويرومون إجازته : (وقد قاله لأن الجزار كان يدوس النرجس برجله)

يــا واطــىء النــرجس مــا تــستـحي
أن تــطأ الأعــيــن بــالأرجــل ؟ !

حتى إذا عجزوا أبوا إلّا أن يجيزه بنفسه ، فيقول :

قــابــل جــفــونــا بــجــفــون ولا
تــبـتــذل الأرفــع بــالأســفــل[1]

وفي مجلس آخر على النيل محفوف بالورد والنرجس ارتجل هذين البيتين :

مــن فضّــل الــنــرجس فهــو الــذي
يــرضى بــحــكــم الــورد إذ يــرأس
أمــا تــرى الــورد غــدا قــاعــداً
وقــام فــي خــدمــتــه الــنــرجس ؟

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفاً في الخدمة على عادة المشارقة ـ فطرب الحاضرون[2] وعندما دخل على الملك الناصر في حلب أنشده قصيدة مطلعها :

جــد لي بمــا ألقى الخيــال من الكــرى
لا بــد لــلضــيــف الــمــلــم مــن الــقــرى

« فقال كمال الدين (ابن العديم) : هذا رجل عارف ورّى بمقصوده من أول كلمة »[3] .

---

(1) النفح 3/39 .
(2) المصدر السابق 3/39 .
(3) النفح 3/39 .

إلّا أن هذه الأخبار التي تصور الإستحسان الذي كان يقابل به شعره لا يمكن ـ كما ذكرت ـ اعتبارها أحكاماً نقدية معتمدة . وأقصى ما يكون العثور عليه في هذا المجال بعض إشارات إلى ابتكاره في الصورة ، كما ورد عن لسان كمال الدين ابن العديم عندما وجه ابن سعيد الأبيات التالية إلى الملك الناصر صاحب حلب :

يا أيها الملك الذي تفع الزمان به وضر
أهديت لي التشريف لـ كن دونه . زاد السفر
فكأنما أهديت لي فصل الربيع بلا مطر

فحلف كمال الدين على ابتداع هذا المعنى »[1] .

والملاحظ أن المصنفين القدامى كانوا يفتتحون ذكره بأوصاف كـ « الأخباري » أو « الرحالة » أو « المصنف » دون أن يلقبوه بالشاعر . والأرجح أنه لم يكن معدوداً بين الشعراء المتميزين بشهرتهم الشعرية بالرغم من كثرة منظوماته[2] ، وبالرغم من شيوعها في مصنفاته وفي ديوانه الذي كان متداولاً حتى أيام المقري (القرن الحادي عشر الهجري) على الأقل ، فقد طغت شهرته مصنفاً ورحالة على صفته أديباً يتعاطى نظم الشعر . إلّا أن الظروف التي أبعدته عن وطنه في حياته وغطت صفته الشعرية ، قيضت لذكره أن يعود إلى إسبانيا في القرن التاسع عشر بصفته شاعراً يحن إلى وطنه ولا يرضى عنه بديلاً ، وذلك عندما قام خوان فاليرا بترجمة إحدى قصائد غربته في « شعر إسباني جميل » ، فـ « طار اسم ابن سعيد » بسبب تلك الترجمة[3] أما القصيدة فمطلعها :

هذه مصر ، فأين المغرب ؟
مذ نأى عني دموعي تسكب

---

(1) القدح 8 .

(2) فقد جمع المختار من مدحه في الناصر وحده فبلغ خمسة آلاف بيت (القدح 7) .

(3) تاريخ الفكر الأندلسي 136 .

وهي طويلة ، وسترد الإشارة إليها فيما بعد .

وتتفاوت آراء الباحثين المحدثين في شعر ابن سعيد : فالمستشرق الإسباني بالنثيا يصفه بأنه « آخر من ظهر من أعلام الشعر خلال هذا العصر (عصر الموحدين) ولكن ما يورده، بالنثيا بعد هذه العبارة لا يستدل منه أنه يقصد بالشعر هنا النتاج الشعري الذاتي ، بقدر ما يعني الإهتمام بالشعر رواية ونقداً وتصنيفاً ، إذ يعقب على عبارته تلك بقوله : « ونتناول الآن جانبه كعلم من كبار مصنفي مجموعات النظم والنثر » ثم لا يورد في حديثه عنه أي حكم نقدي[1] .

ولعل أوضح حكم إجمالي على شعر ابن سعيد هو ما ذكره الدكتور شوقي ضيف في مقدمته لكتاب « المغرب » ، إذ قال : « وهو شعر متوسط ، قلما يرتفع إلى أفق فني عال فأجنحته لم تكن من القوة بحيث تجعله يحلّق في آفاق الفن والشعر العليا »[2] ومن الخير أن نأخذ حذرنا من هذا الحكم الذي يورده الباحث على هيئة انطباع ذاتي دون أن يقدم له بأي نوع من أنواع البحث المدعوم بالشواهد والأدلة . وشبيه بهذا الحكم ما أورده المرحوم الدكتور زكي حسن في مقدمته للقسم الخاص بمصر من كتاب « المغرب » معقباً على حكم الدكتور شوقي ضيف : « والحق أن له بعض الصور الشعرية الجميلة ، ولكن معظم شعره عادي »[3] .

يتضح مما سبق أن شعر ابن سعيد لم يحظ بدراسة مستوفيه متأنية ، فقد انشغل الباحثون بتحقيق كتبه وبالمصنف وبالرحالة فيه دون أن يعتنوا به شاعراً .

ولذا فمن حق ابن سعيد علينا في هذا البحث أن نولي شعره عناية تتعدى النظرة العجلى .

---

(1) تاريخ الفكر الأندلسي 135 ـ 136 .

(2) المغرب 1 / 9 .

(3) المغرب (قسم مصر) م 23 .

2 ـ نقد شعره

المظاهر الرئيسية

من دراستنا لنقد ابن سعيد ، اتضح لنا كيف أنه ـ انسجاماً مع الذوق النقدي السائد في عصره ـ كان ينظر إلى مقدرة الإتيان بصورة بعيدة مبتكرة دقيقة مدهشة باعتبارها مقياساً للبراعة الشعرية وللمثل الشعري الأعلى ، وكيف أن ذوقه بصورة عامة كان يساير مدرسة المحدثين التي تفضل كد القريحة ورقة الأسلوب على عمل البديهة والتدفق والجزالة ، وعلى الأخص ذلك الإتجاه داخل نطاق مدرسة المحدثين الذي جرّد مذهب أبي تمام من عمقه الفكري وتعقيده اللفظي وبالغ في ميله إلى الأفكار والصور البعيدة ، الدقيقة ، المنحوتة ، المزخرفة وإلى الأسلوب الرقيق المصقول[1] .

ولنا أن نتوقع تأثر ابن سعيد بذلك كله في شعره ، ومحاولته الإحتذاء حذو الشعر « المرقص » الذي كان يجسد تلك المزايا التي فتنت النقاد والناس في ذلك العصر .

وبصورة عامة ، يتجاذب شعر ابن سعيد في مجمله طرفان متكاملان مترابطان : الشكوى من الغربة والحنين إلى الوطن أو إلى الماضي . ويتجسد هذا التجاذب ـ على المستوى الفني ـ بين ميل ملحوظ إلى تصيّد الفكرة الغريبة والصورة الناتجة عن الكد الذهني وبين احتفال بالصياغة اللفظية وعناية بصقل الأسلوب .

والملاحظ أن الإحساس بالغربة عند ابن سعيد إحساس مبكر جداً ، يمكن تلمسه في شعره وهو لما يغادر الأندلس نهائياً ، بعد . فمن ذلك قصيدة قالها بقرمونة ، وهي مدينة تقع إلى الشرق قليلاً من أشبيلية ، يتشوق فيها إلى غرناطة[2] . والقصيدة وإن كانت غزلية وصفية في مجملها ، إلاّ أنها تختتم بالتحسر على ماض ناعم أطاح به التغرب

---

(1) انظر ص من هذا البحث .

(2) النفح 3/ 51 .

فيـا ليت مـا ولى معـاد نعيمـه
وأي نـعيـم عنـد مـن يتـغـرب ؟ !

وفي غرناطة[1] ذاتها نصادفه يبكي زماناً مضى بعد أن يصف ما كان فيه من أنس ونعيم :

أي عـيش سـمـح الـدهـر بـه
كـل نـعـمـي ذهـبـت لـمـّا ذهـب

وكلما ابتعد ابن سعيد عن ملاعب صباه في منطقة أشبيلية باتجاه الشرق أو الجنوب ـ وهو في طريقه إلى أفريقية (تونس) ـ اتضح في شعره الحنين إلى موطنه وماضيه ، وازداد عنده حس الإغتراب . ففي مدينة مالقة (على ساحل الأندلس الجنوبي) ، وهي من آخر المدن التي مر بها قبل رحيله ، نراه يتشوق إلى الجزيرة الخضراء الأشبيلية قائلاً[2] :

يـا نسيمـاً من نحـو تلك النـواحي
كـيـف بـالله نـور تـلك الـبـطاح
آه مـمـا لـقـيـت بـعـدك مـن
هـم وشـوق وغـربـة وانـتـزاح
أيـن قـوم ألـفـتـهـم فـيـك لـمـا
قـرّب الـدهـر آذنـوا بـالـرواح
تـركـونـي أسـيـر وجـد وشـوق
مـا لقلبـي من الـجـوى من سـراح

وفي مرسية (بأقصى الشرق الأندلسي) ، وهي أيضاً من المدن الأخيرة التي مر بها قبل وصوله إلى تونس ببضعه أشهر ، نلتقي به في هذه الأبيات[3] الحزينة الجميلة ينوح ويتمنى راحة الموت ويستبشر بالرياح

---

(1) النفح 3/57 .
(2) المصدر السابق : 3/73 ـ 74 .
(3) النفح 3/72 .

ليسألها عن حمص (أشبيلية) . . ويطلب من الحمام جناحاً ليطير إليها :

أقلقه وجده فباحا وزاد تبريحه فناحا
ورام يثني الدموع لما جرت ، فزادت له جماحا
يا من جفا فارفقن عليه مستعبدا لا يرى السّراحا
يكابد الموت كل حين لو أنه مات لاستراحا
ينزو إذا ما الرياح هبّت كأنه يعشق الرياحا
يسألها عن ربوع حمص لمّا نما عزفها وفاحا
كم قد بكى للحمام كيما يعيره نحوها جناحا

وهكذا نرى أن هذا الشعور بالإغتراب غدا واضحاً في شعره قبيل رحيله الأخير عن الأندلس ويلاحظ أن هذا الشعور يغدو تارة محوراً شعرياً رئيسياً كما في الأبيات الأخيرة ، ويظهر تارة أخرى كصدى ختامي لوصف جلسات الأنس وما يتعلق بها من ذكريات كما في الأمثلة السابقة ، وأحياناً يستخدم ابن سعيد موضوعه كحيلة فنية ـ كما هي العادة عند كثير من الشعراء ـ ينفذ بها إلى وصف ما يريد من رياض وأنهار[1] .

وأياً كان الأمر فإن ورود مثل هذه الإشارات ـ على اختلاف حظوظها من القوة والوضوح ـ في أشعاره المبكرة وقبل بدء تغربه الحقيقي ، يدل على أن فكرة التغرب كانت ماثلة في ذهنه ، ممازجة لشعوره .

وربما أمكن تفسير هذه الظاهرة بالإلتفات إلى الحقائق والإعتبارات التالية :

1 ـ الشعور العام عند الأندلسيين باقتراب شبح « التغرب » مع زحف الإسبان . ويلاحظ أن هزيمة الموحدين في معركة العقاب (609 هـ) ـ وهي الهزيمة التي تعتبر بداية النهاية في حياة الأندلس العربية ـ قد جاءت قبل مولد ابن سعيد (610 هـ) بسنة واحدة ، وعليه فإن ابن سعيد قد رضع هذا الجو منذ مولده وتشبعت نفسيته به .

---

(1) المصدر السابق : 3/51 ـ 54 .

ب ـ كون أسرته قد « تغربت » من موطنها غرناطة إلى أشبيلية بحكم صلة والده بالذات بأمراء الموحدين ـ والمتأمل لتاريخ الأندلسيين يلاحظ أن هذا الإنتقال عندهم من مدينة إلى أخرى كان يعد نوعاً من التغرب الذي تتأثر به النفس وتتألم له .

جـ ـ بداية تجواله مع أبيه في بر الأندلس ، وبين بر الأندلس وبر العدوة (المغرب) منذ سن مبكرة . فقد صاحب أباه في رحلته إلى مراكش وهو ما زال في الرابعة عشرة من عمره ، وظل ينتقل معه منذ ذلك الوقت بين المدن الأندلسية ، حتى غادرا الأندلس نهائياً سنة 636 هـ[1] .

وهذا يفسر لنا ـ بالإضافة إلى إحساسه المبكر بالغربة ـ مدى تعلقه بسنوات « الإستقرار » القليلة في أشبيلية حيث كان يتلقى العلم ويعيش حياة المدينة المزدهرة الضاحكة . فمنذ البدء كان ترحاله هو القاعدة واستقراره هو الإستثناء .

ومع إقامته في تونس بين سنة 636 وسنة 639 ، تبدأ أيام غربته الحقيقية ويأخذ شعوره المرير بالإغتراب في الإشتداد والوضوح . وبالرغم من أن ابن سعيد ووالده استطاعا التقرب من السلطان الحفصي أبي زكريا ورجاله ، وحصلا على وظائف حسنة لديهم ، فإن الجو العام لم يكن يوحي بالإطمئنان بسبب تقلب الأحوال وكثرة الوشايات وشدة التنافس .

وفي هذه الفترة ، نجد أن الشعور بالإغتراب تتسع دوائره وتتعدد أشكاله وانعكاساته ، ويصبح العنوان الرئيسي الذي يشمل جميع مصاعب ابن سعيد الشخصية والمعاشية والإجتماعية . فهو إن فقد بعض وظائفه رد ذلك إلى التغرب ، وهو إن ساءت علاقته برؤسائه وأصحابه لام على ذلك التغرب ، وهو إن أحس عموماً بجور الزمان وسوء الحظ فسّر ذلك بأنه غريب وحيد . وبعبارة أخرى فإن التغرب أصبح بالنسبة له في هذه الفترة مشكلة كيانية . فهذه أبيات من قصيدة يعاتب فيها الوزير التونسي ابن جامع

---

(1) انظر ص من هذا البحث .

لأنه لامه على قلة ثقته فيه[1] :

هـل الهجـر إلاّ أن يـطول التجنب ؟
ويبعـد من قـد كـان منـه التقـرّب

. . . .

ولـو أنـني أدري لـنفـسي زلـة
جـعلت لـكم عـذراً ولـم أك أعتـب

ولـكـنكـم لـمـا مللتـم هجـرتـمُ
وذنّبتمُ في الـحب مـن ليس يـذنـب

إلى أن يستهلك ما لديه من عتاب ولوم ، فيرجو الإلتفات والعنـاية بحرمة الغربة التي يساويها بالموت ، وكأنه يقول أرحم ميتاً في شخص هذا الغريب :

فـهـلا رعيـتـم أنـه فـي ذراكـم
غريب . . . وليس الموت إلاّ التغرب !

ويصل حزنه وكربه بعد أبيات قليلة ، ثم يعود إلى استدرار العطف بأس الغربة[2] :

سلوا الكـأس عني إذ تـدار ، فـإنني
لأتـركـهـا هـمـا ودمـعي أشـرب

ولا أسمـع الألحـان حين تـهـزني
ولـو كان نـوحـاً كنت أصغي وأطـرب

فـديتكـم كم ذا أهـون بـأرضـكم
أهـذا جـزاء لـلذي يـتـغـرب ؟

وفي قصيدة أخرى[3] يشير إلى ذلك النموذج الشائع من الأصحاب المنافقين ، مؤكداً أن الإغتراب من جديد أفضل من مصاحبتهم :

---

(1) النفح 3/45 ـ 46 .
(2) السابق 3/46 .
(3) السابق : 3/43 ـ 44 .

صحاب هم الداء الدفين ، فليتني
ولم أدن منهم - للذئاب صحوب
كلامهم شهد ، ولكن فعلهم
كسمٍّ له بين الضلوع دبيب
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع
بقلبي لهم شيئاً عليه أثيب
إذا اغترب الإنسان عمن يسوءه
فما هو في الإبعاد عنه غريب

وذنبه الوحيد إزاء هؤلاء الأصحاب الوشاة هو أنه نجيب متأدب بين قوم جهلة[1] :

ولا تستمع قول الوشاة ، فإنما
عدوهم بين الأنام نجيب
فيا ليت أني لم أكن متأدباً
ولم يك لي أصل هناك رسوب
وكنت كبعض الجاهلين محبباً
فها أنا للهم الملم حبيب

وقد جعل منه علمه وأدبه جملاً أجرب يحاذره الجميع فإذا به غريب حتى بين أصحابه[2] :

فغدوت ما بين الصحابة أجربا
كل يحاذر مني الإعداء

غير أنه يجد في اعتزازه بنفسه عوضاً عن كل ذلك :

ولقد أرى أن النجوم تقل لي
حجباً ، وأصغر أن أحل سماء

(1) النفح 3/44 .
(2) السابق : 3/31 .

فليهجروا هجر الفطيم لدره
ويساعدوا الزمن الخئون جفاء
فلقد شكوت لهم إحالة ودهم
إن لم أكن أرضى بهم خدماء

ولكن الإعتزاز بالنفس في غربة قاشية لا يجدي وحده . . . وليس بإمكانه أن يعين على استمرار المقاومة ، فكان لا بد من طغيان الشعور الصارخ بانحسار كل الظلال الرفيقة :

تقلص عني كل ظل .. ولم أجد
ـ كما كنت ألفي ـ من أود وأصحب
أذو طمع في العيش يبقى وحوله
مدى الدهر أفعى لا تزال وعقرب؟![1]

.. ثم رحل ابن سعيد إلى مصر . وهنا يصل حس الإغتراب المرير عنده إلى ذروته ويبلغ حد التأزم والألم الذي لا يطاق . ففي هذه الفترة يتمازج المخزون من هذا الشعور مع جو التحفظ ، القريب من الجفاء ، الذي يقابل به المغاربة عامة في القطر المصري ، مع مظاهر الإختلاف في العادات والثقافة بين بلاد المغرب ومصر ، مع الأثر الذي خلفته وفاة أبيه بعد عام من وصولهما إليها ، مع تعذر تأديته لفريضة الحج التي كان يأمل أن يؤديها مذ كان بالأندلس .. أقول تمازجت كل هذه العوامل لتوصل شعور الإغتراب عند ابن سعيد إلى ذروة تأزمه .

وينقل ابن سعيد إلينا صورته وهو يسير لأول مرة في طرقات مصر[2] ، فإذا بكل شيء غريب حوله حتى وجوه الناس التي أخذ يتمعن فيها فلا يجدها مألوفة بالنسبة له ، وإذا بغرابة الأشياء والناس ترتد إليه وتغلّفه حتى يمتلكه الشعور أنه واحد من الذين ضاعوا في التيه .. ثم عادوا فلم يجدوا لهم أشباهاً .. وإن الغربة لترسم حتى في الألحاظ فتلفها بوحشة :

---

(1) النفح 3/47 .
(2) المصدر السابق 3/29 .

أصبحت أعترض الوجوه ، ولا أرى
ما بينها وجهاً لمن أدريه
عودي على بدئي ضلالاً بينهم
حتى كأني من بقايا التيه
ويح الغريب ! توحشت الحاظه
في عالم ليسوا له بشبيه

وكان أقسى ما يمكن أن يحدث له ، وهو سليل الأرستقراطية الأندلسية وحفيد الأمراء ، أن ينظر إليه الناس باعتباره أحد أولئك الحجاج والرحالة المغاربة المغمورين ، وأن يتعجبوا من خطة المغربي الغريب . . متجاهلين نباهته وطيب محتده[1] :

ها أنا فيها فريد مهمل
وكلامي ولساني معرب
وأرى الألحاظ تنبو عندما
أكتب الطرس أفيه عقرب ؟
وإذا أحسب في الديوان لم
يدر كتابهم ما أحسب
وأنادى مغربياً ، ليتني
لم أكن للمغرب يوماً أنسب
نسب يشرك فيه خامل
ونبيه ، أين منه المهرب ؟ !
أتراني ليس لي جد له
شهرة ؟ أو ليس يدرى لي أب ؟

وهنا يدرك قيمة موطنه الذي تركه :

فارقته النفس جهلاً ، إنما
يعرف الشيء إذا ما يذهب

(1) المصدر السابق 3/50 .

أين حمص ؟ أين أيامي بها
بعدها لم ألق شيئاً يعجب

ويكرر المعنى ذاته ثانية :

إن عاد لي وطني اعترفت بحقه
إن التغرب ضاع عمري فيه

. . وتراوده فكرة العودة من مصر إلى المغرب بعد أن أدرك أن ما تبعه لم يكن سوى برق خادع :

سوف أثني راجعاً ، لا غرني
بعدما جرّبت برق خلّب

ومع تعذر حجه[1] في تلك الفترة يتبين مدى ضياع آماله ومقاصده في خضم هذا التغرب الشاق :

قرب المزار ، ولا زمان يسعد
كم ذا أقرّب ما أراه يبعد
وا رحمة لمتيم ذي غربة
ومع التغرب فاته ما يقصد
يا سائرين ليثرب ـ بلغتموا ـ
قد عاقني عنها الزمان الأنكد
أعلمتو إن طرت دون محلها
سبقاً ؟ وها أنا إذ تداني مقعد !

وتتأطر صورة الغربة الأليمة هذه برسم كاريكاتوري ساخر يحرص ابن سعيد على نقله إلينا حتى تكتمل الصورة بالإطار . فقد اضطر إلى ركوب الحمار في طريقه بين القاهرة والفسطاط جرياً على عادة علية القوم هناك[2] . . فكانت النتيجة أن . .

---

(1) النفح 3/ 78 .　　(2) المصدر السابق 3/ 103 .

لـقـيـت بـمـصـر أشـد الـبـوار
ركـوب الـحـمـار وكـحـل الـغـبـار
وخـلفي مـكـار يـفـوق الـريـا
حِ لا يعـرف الـرفق مهمـا استـطار
أنـاديـه مـهـلاً فـلا يـرعـوي
إلى أن سجـدت سجـود العـثـار !

. . ولكن ابن سعيد يستعيد ثقته بنفسه ، ويظهرُ عزماً على استرجاع مكانته ويحاول تعليل ما أصابه من إهمال وضعة قائلاً إن عزة الضرغام في عرينه ، وإنه لا يلام السيف إذا وقع في يد الجبان (كما لا يلام الغريب لانخفاض مكانته في البلد البعيد) :

فـإن كنت في أرض التغـرب غـاربـا
فسـوف تـراني طـالعـاً فـوق غـارب
فصمصـام عمـرو حين فـارق كفـه
رمـوه ـ ولا ذنب ـ بعجز المضـارب
ومـا عـزة الضـرغـام إلا عـرينـه
ومن مكـة سـادت لؤى بن غـالب[1]

وهكذا يعود إليه ـ بعد الشكوى المريرة ـ اعتداده بنفسه ويتحدث عن طلوع جديد بعد ضعة الغربة وقسوتها .

ولـربمـا قصـد ابن سعيـد بـالأبيـات الأخيـرة العـودة إلى عـرينـة (المغرب) ، إلاّ أن الذي حدث فعلاً هو أن هذا الطلوع الجديد الذي تمناه تمثل في سفره إلى حلب واتصاله بسلطانها الناصر الأيوبي .

وبرحيله إلى الديار الشامية ، يمكن القول أن شعره أيضاً انتقل إلى مرحلة جديدة . ففي هذه الفترة لا نرى بين ما روي له من شعر أثراً للشكوى من الغربة وواقع الحال . بل على العكس من ذلك نراه يتفاعل إيجابياً مع

(1) النفح 3/ 34 .

بيئته الجديدة ، وينتقل هذا التفاعل إلى شعره الـذي بدأ يعكس إعجاباً وحباً لتلك البيئة .

ويمكن تفسير هذه النقلة الجديدة تاريخياً بالقبول الحسن الذي حظي به ابن سعيد من جهة الأمراء والأدباء على حد سواء . ثم إن البيئة الشامية عموماً قريبة الشبه بالبيئة الأندلسية من عدة أوجه ، وإعجاب الأنـدلسيين بـ « الوطن الأم » ظاهرة معروفة بارزة .

وقد بلغ من احتفاء الحلبيين به إلى حد أن « رئيس الأصحاب » ابن العديم حرص على تهيئة جو « شاعري » له عند وصوله معه إلى حلب . إذ أنزله في دار ببستان وماء جار وقال له : « أنت أندلسي وقد عرفت أن ديارهم لا تخلو من هذا »[1] .

فكان من الطبيعي أن يشعر ابن سعيد أنه في وطنه ، وأن ينعكس ذلك الشعور في حالته النفسية وبالتالي في شعـره مخفياً بـذلك ظـلال الغربـة الحزينة التي امتدت خلال إقامته في تونس ومصر .

حقاً إن ابن سعيد قال شعراً في مظاهر الطبيعة المصرية . وأعجب بجمال النيل ورياضه ، إلاّ أن ما لدينا من شعره المصري في هذا الموضوع كله من النوع الوصفي الذي يقصد به الإتيان بالصورة الشعـرية العجيبـة لذاتها ، ولا يوجد فيه أثر من تفاعل داخلي كالشوق والأسى للمفارقة أو التذكر المصحوب بشعور الحنين والحب ـ بعكس مـا نشاهـده في شعره الشامي على الخصوص .

فهو مثلاً يصف إحاطة النيل بالفسطاط وما ينتج عن ذلك من منظر جميل[2] :

نـزلنـا من الفسـطاط أرفـع منـزل
بحيث امتـداد النيـل قـد دار كـالعقـد

---

(1) المقتطف ، ورقة : 71 .

(2) المغرب (قسم مصر) 8 .

وقــد جمعت فيـه المــراكب سحـرة
كسـرب قـطا أضحى يـرف على ورد
وقـد كان مثـل الـزهـر من قبـل مـده
فـأصبـح لمـا زاده المـد كـالـورد

ونتابع بقية الأبيات فلا نرى أثراً للشعور ، فالغرض فني بلاغي مراده تسجيل تلك الصور والمحسنات البديعة .

وبالرغم من أن ابن سعيد لم يذق أحلى من ماء النيل على حد قوله[1] ، فإن ذلك لم ينسه نهر أشبيلية :

يـا نيـل مصـر ، أين حمص ونهـرهـا
حـيث الـمنـاظـر أنـجـم تـلتـاح ؟
فـي كــل شط لـلنـواظـر مـسـرح
تـدعـو إلـيـه مـنـازح وبـطاح
وإذا سبحت فلست أسبـح خـائـفـاً
مـا فـيـه تيـار ولا تـمـسـاح[2]

أما عندما واجه نهر العاصي في حماة ـ على اختلاف ما بين العاصي والنيل من حيث الإمتداد والجلال وتعدد المناظر ـ فإنه يقف موقفاً آخر : فإذا به ينسى نهر أشبيلية ، وإذا به ينسجم ويتناغم مع النهر الحموي فيفوق نواعيره رقصا و « عصيانه » عصيانا ، ويصبح جزءاً لا يتجزأ من المشهد « العاصي » ، الشادي ، الراقص :

حمى الله من شـطي حمـاة منـاظـرا
وقفت عليهـا السمع والفكـر والطرفـا
يلومـون أن أعصي التصـون والنهى
بهـا وأطيـع الكـأس واللهـو والقصفـا

---

(1) المصدر السابق 8 .
(2) النفح 3/72 .

إذا كان فيها النهـر عاص ، فكيف لا
أحـاكيه عصيـانـا ، وأشـربهـا صـرفـا
وأشـدو لـدى تلك النـواعيـر شـدوهـا
وأغـلبهـا رقـصـاً ، وأشـبـهـهـا عـزفـا[1]

وإذا كان الشعور الشديد بالإغتراب قد حجب عنه ـ في شعره على الأقل ـ جمال أرض الكنانة وخصبها وروح مجتمعها الودود ، حتى قال :

كـم ذا تـقـيـم بـمـصـر مـعـذبـاً بـذويـهـا
وكـيـف تـرجـو نـداهـم والسحـب تبـخـل فيـهـا ؟!

فإن شعوره بالإلفة والقبول في الديار الشامية ، هو الذي جعله يعتبر حلب « مقام » غرامه و« قبلة » أشواقه ، ويحن إليها هذا الحنين القوي :

حادي العيس ! كم تنيخ المطايا !
سق ، فروحي من بعدهم في سياق
حـلب إنهـا مـقـر غـرامي . . .
ومـرامـي ، وقـبـلة الأشـواق
كم بهـا مـرتـع لـطرف وقـلب
فيـه يسقى المنى بكـأس دهـاق[2]

والشعور ذاته هو الذي ولد هذه الأبيات الجميلة في دمشق الشام ، تلك الجنة التي يمكن أن يجد فيها « الغريب » وطنه :

أمـا دمـشـق فـجـنـة يـبني بهـا الـوطن الـغـريـب
انـظر بـعـيـنـك هـل تـرى إلاّ مـحـبـاً أو حـبـيـب
أرض خـلـت مـمـن يـنـغص أو يـراقـب أو يـعـيـب[3]

أو هذه الأبيات الرقيقة الموحية :

---

(1) المصدر السابق 3/92 ـ 93 .
(2) المصدر السابق 3/92 .
(3) الغصون 143 ـ 144 .

أمـــا دمشق فمـا في الأرض مشبههـــا
جنـات عـدن بهـا مـا يشتهي البشـــر
بهـــا النعيم غـــدا للنـــاس مكتمـــلاً
مـــطولاً وهـــو في الآفـــاق مختصـــر
وقـــد تـجلت مـن اللذات أوجـهـهـــا
لـكـنـهـــا بـظلال الـدوح تـسـتـتـر
وكـــل واد بـــه مـــوسـى يـفـجــره
وكـل روض على حـافـاتـه الخضـــر

ولا تسعفنا المصادر بعد هذا بالمزيد من المادة الشعرية حول هذا الموضوع . وفي شعره العراقي الذي وصل إلينا وصف وغزل وخمريات دون أية إشارات لناحية الإغتراب . ومما لا شك فيه أن ديوان ابن سعيد الكامل هو الذي يروي « القصة » كلهـا بتفصيل ودقـة . والأرجح أن أبـا الحسن بعد تجارب الإغتراب الطويلة ، المتعددة الألوان ، اعتاد هذا النوع من الحياة ووطن النفس على قبوله ، فلم تعد الأجـواء الجديـدة الغريبـة تفاجئه كما حدث له لأول مرة عندما سار في طرقات مصر . والإنسان ينفعل مع التجربة الأولى ، فمتى تعددت التجارب غدت مظهراً عادياً ، وليس من شأن التكرار الإعتيادي إثارة مشاعر أو توليد فكر .

ولعله من الخير الإشارة هنا ، إلى أن إحساس ابن سعيد بالإغتراب ، لم يتبلور في « موقف » معين أو « نظرة فكرية » محددة تلون بطابعها نتاجه الشعري أو تعكس نفسها وتمتد بظلالها إلى ألوان شعره الأخرى . بل ظل ذلك الإحساس نوعاً من الشكوى الصاخبة المباشرة التي تحاول استدرار العطف والتي تتأثر بالظروف الآنية سلباً أو إيجاباً . كما أنها رغم صخبها وإلحاحها لم تعكس عاطفة قوية أو شعوراً حاراً يتناسب ـ على المستوى الفني الشعوري ـ مع قسوة الغربة التي ساواها ابن سعيد بالموت .

وبناء على ذلك ، واستناداً إلى ما وصلنا من شعره ، يمكن القول أن حس الإغتراب عند ابن سعيد ، رغم وضوحه واستمراره مدة من الزمن ، لم

يتحول إلى مستوى التيار السيكولوجي المستمر في مجرى الذات . وربما كان ذلك عائداً إلى عدة عوامل في طليعتها تكوين ابن سعيد النفسي الذي تمت الإشارة إليه في الفصل الخاص بشخصيته ، والذي يتصف بالبعد عن الحدة الإنفعالية الداخلية ، الضرورية لكل عمل شعري يتميز بالزخم الشعوري . كما أن ذهنية ابن سعيد ليست من النوع التأملي المستغرق الذي يستطيع اتخاذ موقف فكري محدد من قضايا الحياة . بل إن ذهنيته تلك ، التي يمكن وصفها بأنها « تصنيفية » ، زخرفية ، تفصيلية ، هادئة ، قد أفسدت عليه ـ فيما أرى ـ كثيراً من المحاولات الشعرية التي كان يمكن أن تنال حظاً وافراً من النجاح في ظل الظروف الفريدة التي مر بها ابن سعيد من فقدان لوطن ، وابتعاد عن أهل ، واغتراب طويل الأمد ، ومواجهة لظروف صعبة ، ومعاناة لتجارب جديدة متنوعة ، واحتكاك بأوساط ثقافية مختلفة . . . .

إلى جانب محور الغربة ، نلحظ في شعر ابن سعيد محوراً آخر يرتبط به في بعض الأحيان شكلاً وموضوعاً ، ويستقل عنه في أحيان أخرى استقلالاً تاماً . هذا المحور هو موضوع « وصف » مظاهر الطبيعة الأندلسية كما تتمثل في المشاهد والمنتزهات التي قضى فيها ابن سعيد جانباً من أيام شبابه ، بالإضافة إلى مناظر الأنهار والرياض على وجه العموم .

والواقع أن هذا الوصف ليس مجرد رسم لمشاهد الطبيعة بشكل أو بآخر بقدر ما هو حديث عما يدور في « مجالس اللهو » . . ففي هذا النوع من الشعر نرى ابن سعيد يصف لنا المشهد الطبيعي العام ثم يتحدث عما دار فيه من « مغازلة » لمحبوب ، ومن « شراب » ، ومن سماع « طرب » .

وقد يغلب أحياناً على القصيدة الطابع الغزلي أو الطابع الخمري المجوني ، أو الطابع الوصفي ، إلّا أنها تظل بصورة عامة جامعة لكل هذه الجوانب .

وبناء على ذلك ، وتسهيلاً لخطة البحث ، ربما جاز لي أن أدرج شعره في هذا الموضوع تحت عنوان الحديث عن « مجالس اللهو » ، على

أن يفهم من ذلك تلك الجوانب الشعرية مجتمعة .

ربط ابن سعيد في كثير من قصائده بين حديثه عن الغربة وبين وصفه لمجالس لهوه في الأندلس ؛ بحيث يأتي ذلك الوصف تجسيداً لتألق حياة السعادة الماضية التي يقارنها الشاعر بحياة الغربة الراهنة ، وكأنه أراد أن يقارن بين لوني الماضي المتألق ، والحاضر القاتم ، ليوضح ـ عن طريق المقارنة بين الأضداد ـ مدى قتامة حاضره وتألق ماضيه في الوقت ذاته .

وفي مثل هذه القصائد يفتتح ابن سعيد حديثه بالتشكي من الغربة وينهيه بالموضوع ذاته . تاركاً لذكريات الأندلس مجال الظهور في الوسط وكأنها حلم يقظة معلق بين حدّي الواقع المرير ، وواقع الغربة . ومن أفضل الأمثلة على ذلك قصيدته الشهيرة التي قالها في مصر والتي تبدأ بالإشارة إلى الغربة ثم تنتقل إلى التحدث عن مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى (المدن التي عاش فيها ابن سعيد) في إطار وصفي يغلب فيه طابع التألق وإظهار البراعة على شعور التذكر المشوب بالألم الذي يظهر خافتاً بين مشهد ومشهد :

أين حمص ؟ أين أيامي بها ؟
بعدها لم ألق شيئاً يعجب
ثمّ عيش لي بها من لذة
حيث للنهر خرير مطرب
وحمام الأيك تشدو حولنا
والمثاني في ذراها تصخب

ثم ينتقل في وصفه من مكان إلى آخر

ولكم بالمرج لي من لذة
بعدها ما العيش عندي يعذب
. . . .
ولكم في « شنتبوس » من منى
قد قضيناه ولا من يعتب

. . . .

بـل على « الخضـراء » لا أنفـك من
زفـرة فـي كـل حـيـن تـلهـب
حيـث لـلبـحـر زئـيـر حـولـهـا
تـبـصـر الأغـصـان مـنـه تـرهـب

. . . .

وإلـى « مـالـقـة » يـهـفـو هـوى
قـلب صب بـالـنـوى لا يـقـلب
أيـن أبـراج بـهـا قـد طـالـمـا
حـث كـأسي فـي ذراهـا كـوكـب
حـفت الأشـجـار عشـقـاً حـولنـا
تـارة تـنـأى وطـوراً تـقـرب

الخ

وتنتهي هذه المشاهد والذكريات البعيدة بعودة إلى الواقع المر :

هـذه حـالـي ، وأمـا حـالـتـي
فـي ذرى مصـر فـفكـر مـتـعـب[1]

وفي قصائد أخرى استخدم ابن سعيد شعره الوصفي هذا استخداماً فنياً بأن جعله افتتاحيات للأمداح على عادة الأندلسيين . فمنذ عصر سابق لعصر ابن سعيد « أصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة أو « العامل الكيميائي المساعد » في القصيدة الأندلسية ، فهو فاتحة القصيدة أو أساس يبنى عليه موضوع الخمر ، أو موضوع الحب »[2] . ومن ذلك قصيدة يمدح فيها أمير تونس أبا زكريا الحفصي :

الأفـق طـلق والـنـسـيـم رخـاء
والـروض وشّـت بـرده الأنـداء

---

(1) النفح 3/50 .

(2) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص 203 .

والنهر قد مالت عليه غصونه
فكأنما هو مقلة وطفاء
وبدا نثار الجلنار بصفحة
فكأنما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازاً فوقه
فكأنما هي حلة زرقاء
فأدر كؤوسك كي يتم لك المنى
واسمع إلى ما قالت الورقاء
تدعوك : حي على الصبوح فلا تنم
فعلى المنام لدى الصباح عفاء[1]

ويلاحظ أنه يجمع في افتتاحياته هذه بين الوصف الطبيعي والجو الخمري كما في الأبيات السابقة ، وقد يغلب عليها أحياناً الجانب الغزلي مع الإحتفاظ « بخلفية » طبيعية ، كما في هذه الأبيات التي افتتح بها قصيدة مدح في ابن عمه ابي عبد الله بن الحسين بن سعيد :

آه مما تكن فيك الجوانح !
ودموعي على نواك سوافح
يا أتم الأنام حسناً أما تحسن
حتى يتم إطراء مادح
يا زمان الوصال ، عوداً ، فإني
طوحت بي لما غدرت الطوائح
أين عيش « العروس » إذ يبطح
السكر حبيبي ما بين تلك الأباطح
والأماني تترى ، ولا أحد ينصح إذ
لا يصغى إلى قول ناصح

(1) النفح 3/30 .

وزمان السرور سمح مطيع
ورسول الحبيب غاد ورائح
ولكم ليلة أتاني بلا طيب
ولكن يزري بأذكى الروائح
هو ظبي ، فليس يحتاج طيباً
قد كفاه عرف من المسك فائح
مثل عليا محمد ، لم تكن كسباً ،
ومالا يكون في الطبع فاضح

أما القسم الأعظم من شعره في هذا الموضوع فهو المقتطعات القصيرة أو المتوسطة الطول التي تدور حول جلسة لهو أو وصف مشهد طبيعي معين أو صورة خاصة كمنظر فرس أو تفاحة أو قارب الخ . وهذه المقتطعات تأتي مستقلة غير مرتبطة بموضوعها وهي على الأغلب قائمة على إبراز صورة بيانية أو براعة بديعية ، إذ في هذه المقتطعات يظهر بوضوح ميل ابن سعيد إلى الإتيان بالفكرة الغريبة والصورة المزخرفة البعيدة في أسلوب مثقل بالبديع ، بل إن هذه المقتطعات لتدل على أن البيان والبديع كانا الهدف والغاية وأن موضوعاتها ما هي إلا وسيلة اختيرت نظراً لتناسبها وقابليتها الشديدة للغرض البياني البديعي . أما إذا تجاوزت بعض هذه المقتطعات التمسك الشديد بهذا الغرض ، فإنها تأتي خلقاً « لموقف غزلي » أو إحياءً « لجو خمري نواسي » .

فمن قطعه الوصفية « الزخرفية » قوله في وصف حصان أصفر أغر أكحل :

وأجرد تبرى أثرت به الثرى
وللفجر في خصر الظلام وشاح
له لون ذي عشق وحسن معشق
لذلك فيه ذلة ومراح

عجبت بـه وهـو الأصيـل ، بعـرفـه
ظـلام ، وبين النـاظـرين صباح[1]

فهذه أبيات ثلاثة أقل ما توصف بأنها « معرض ألوان » : فهذا الفرس « أصفر » بلون الذهب ينطلق بين « بياض » الفجر و« سواد » الليل ، وهو بين « صفرة » و« بياض » يجمع بين اصفرار العاشق وحسن المعشوق ، وهـو بألـوانه المتعـددة من صفرة وبيـاض وسـواد يجمـع الليـل والفجـر والأصيل . والأبيات - في وصفها للفرس - تمر سراعاً بصورة للفجر كوشاح يلف خصر الظلام . وهي على قلتها تزدحم بحشـد بديعي يتمثـل في : جنـاس غيـر تـام بين « أثـرت » و« ثـرى » ، وطبـاق بين « ذي عشق » و« معشق » وبين « ظلام » و« صباح » ، وتورية في لفظة « الأصيل » بين معنى « أصالة » الحصان وبين لونه الأصفر الذي يشبه الأصيل .

ومن الأبيات التي أعجب بها ابن سعيد نفسه وذكرها باعتبارها نموذجاً لشعره الجيد ، قوله[2] :

كـأنـمـا النـهـر صـفـحـة كـتبـت
أسـطرهـا ، والـنـسـيـم مـنـشئـهـا
لـمـا أبـانت عـن حسـن منـظرهـا
مـالت عليهـا الغـصـون تقـرؤهـا

وهـذه صورة تفصيليـة دقيقة لا يمكن للبـديهة ، ولا حتى للتـأمـل المنفعـل بجمال المنـظر أن يتنبه لهـا . . وإجهاد الفكـر وحده يمكن أن « يصطاد » تلك العلاقة بين ذلك التشبيه ومنظر النهر ويولد فيها دقائقها : فصورة الأغصان المائلة على صفحة النهر الرجراجة التي يحركها النسيم تشبه صورة القارىء المنكب على صفحة يقرؤها !

ليس ذلك فقط بل إن كل جزء في الصورة المشبهة يطابق مثيله في

---

(1) المغرب 2/173 .
(2) المغرب 2/173 ، الرايات 66 .

الصورة المشبه بها . النهر هو الصفحة . . . والتموج هو السطور . . والنسيم هو الكاتب والأغصان ـ المعجبة بحسن المنظر ـ هي القارىء أو القراء !

والمتأمل لصور ابن سعيد يرى أن ميزتها الكبرى الغرابة والدقة وكثرة التفاصيل ، أما عيبها الأكبر فهو أنها تحوّل حيوية الحركة إلى جمود مزخرف ساكن . فعند وصفه للفرس نراه يبرز الألوان دون أن يتنبه ـ حتى من وجهة نظره المهتمة بناحية اللون في الصورة ـ إلى أن تلك الألوان يمكن أن تتداخل وتتمازج في تراقص لوني مدهش عندما ينطلق الفرس في عدوه السريع . بل إننا لا نرى من مظاهر الحركة في ذلك الوصف إلا صورة الغبار الذي أثاره انطلاقه : « أثرت به الثرى » أما ما عدا ذلك فألوان متلاحقة ساكنة . وفي المثال الأخير نرى كيف تحولت حيوية منظر الأغصان المتمايلة إلى جمود إنسان يقرأ كتاباً وكيف تجمد النهر المتدفق المتموج إلى صفحة خطت عليها سطور جامدة !

وهو يعطي أحياناً صوراً أكثر اتساعاً للمنظر الطبيعي عن طريق إضافة صورة جزئية إلى أخرى بقصد رسم المشهد كله ولكن هذه الرسوم قلما تعكس وحدة متكاملة وأقصى ما تصل إليه إعطاء صورة لنقش مزخرف قد يكون من الممكن تلمس بعض انسجام بين ألوانه وأشكاله . من هذا القبيل قوله[1] :

الروض برد بالندى مطروز
والنهر سيف بالصبا مهزوز
كتبت به خوف النواظر أسطر
فعليه من خط النسيم حروز
ورمت عليه الشمس فضل ردائها
فعلا مذاب لجينها إبريز

(1) المغرب 2/176 .

والغصن إن ركـد النسيم كـأنـه
ألـف بـهـمـزة طـيـره مـهـمـوز
وكـأنمـا الأزهـار فيـه قـلائـد
وكـأنـمـا الأوراق فيـه خـروز

وكأننا أمام زخرف على جدار قصر عربي تختلط فيه النقوش بالخطوط الكتابية بين برد مطروز وحروز كتبت ضد العين الحاسدة وألف مهموز تحيط به قلائد وخروز . إلّا أن هذا التفنن لا يخفي الجمود والسكون المسيطرين على المشهـد ، وإن المرء ليندهش كيف يحول الكـد الذهني والتكلف الغصن وطيره إلى ألف وهمزة !

وفي بعض الصور الجزئية[1] يتمكن ابن سعيد من بث مسحة حياة في المشهد ومن خلق شيء من التفاعل بين جوانبه ، كقوله واصفاً الجزيرة الخضراء :

حيث لـلبـحـر زئـيـر حـولـهـا
تبصـر الأغـصـان منـه تـرهـب

وكقوله في القصيدة ذاتها وقد رفع درجة التفاعل إلى مشاركـة بين الطبيعة والناس :

حفّت الأشجـار عشقـاً حـولنـا
تـارة تـنـأى ، وطـوراً تـقـرب
جـاءت الـريـح بهـا ، ثم انثنت
أتـراهـا حـذرت مـن يـرقـب ؟

وفي أحيـان نادرة يـرتفع وصفـه للمنـظر إلى درجـة « التشخيص » والمشاركة الوجدانية كقوله في دولاب يسقي حديقة وكان ذلك أثناء فتـرة اغترابه الأول في تونس[2] :

---

(1) النفح 2/50 .

(2) المصدر السابق 3/56

وذات حنين ، لا تـزال مـطيفـة
تئن وتبكي بـالـدمـوع السـواكب
كـأن أليفاً بـان عنهـا ، فـأصبحت
بمـربعـه كـالصب بعـد الحبـائب
شـربت على تحنـانهـا ذهبيـة
ذخيرة كسرىٰ في العصور الذواهب
فهاجت لي الكأس إدكـار مغاضب
فحـاكيتها وجـداً بـذاك المغـاضب

ويقرب من جو المشاركة هذا أبياته في وصف العاصي بحماة ، و
تمت الإشارة إليها[3] :

يلومـون أن أعصي التصون والنهى
بها ، وأطيع الكأس واللهو والقصفا
إذا كان فيها النهر عاص ، فكيف لا
أحـاكيه عصيـاناً وأشـربهـا صـرفـا
وأشدو لدى تلك النـواعير شـدوها
وأغلبهـا رقصـاً ، وأشبههـا عـزفـا

ومن اللمح الشعرية عند ابن سعيد استغلاله لإيحاء الجو القصص
الديني في إضفاء مسحة موحية على المنظر الطبيعي ، إلاّ أن هذه الإشارا
نادرة عنده ولا تشكل ظاهرة في شعره . ومن أجمل إشاراته في هذا المج
تصويره لينابيع دمشق وكأنه تتفجر من ضربات موسى ، ولرياضها وكأن
تخضّر من لمسات الخضر :

أمـا دمـشق فـمـا في الأرض مـشـبـهـهـا
جنـات عدن بهـا ما يشتهي البش
. . . .

---

(1) انظر ص ؟.

وكــل واد بــه مــوسى يفـجــره
وكـل روض على حافـاته الخضـر

ونرى لذكر الأزهار ، الظاهرة البارزة في شعر الطبيعة الأندلسي[1] ، بعض آثار في شعره أيضاً . فمن ذلك وصفـه للزهر بـاعتباره « تـذكاراً » للماضي الجميل[2] :

يــا حبـذا نسمــة هبت لنـاشقهــا
غبّ الكرى سحراً من روضة الحبق
حسبتها عندمـا هبت وقد نعشت ،
بـبلّة مـن نـداهــا ، روح منتشق
قـرنفل الهنـد قد وافى التجـار بـه
محـافـظين على نشـر لــه عبق
فعنّـدمـا فضّـه الـداوي ذكـرني
بـطيبـه طيب عيش مـر لـي أنق
بتـونس أنّس الـرحمن سـاعتهـا
وسُقّيت أبـداً بـالعـارض الغـدق

وقوله في « تفضيل » الورد على النرجس[3] :

من فضـل النـرجس فهـو الـذي
يــرضى بحكمٍ الــورد إذ يــرأس
أمــا تـرى الــورد غـدا قـاعـداً
وقـام في خـدمتـه النـرجس ؟!

أما في أبياته الغزلية التي ترد عادة ضمن وصفه لمجالس اللهو ، فإنه يصطنع مواقف متناقضة ولا يلتزم بموقف واحد له طابع في الغزل محدد

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) 194 .
(2) رحلة التجاني ، 252 .
(3) النفح 3/39 .

معين . فهو تارة عذري وتارة متماجن صريح إلى أبعد الحدود ، وهو تارة يتمنى طيف الحبيب في الكرى ولا يراه وتارة أخرى يـأتيه الحبيب ليبيت عنده الليل بأكمله . والملاحظ انعدام وجود شخصية غزلية معينة في غزله وهو لا يذكر أسماء أحبته ، ولا تشير المصادر ـ من ناحية أخرى ـ إلى تعلقه بمحبوب ، ولابن سعيد غزل غلماني إلاّ أنه لا ينزع إلى درجة الفحش .

فمن غزله الذي يشير إلى حرمانه وهجر محبوبه له قوله[1] :

طلب الـوصل منـك عين المحـال
فـإلـى كـم أغـر بـالآمـال
مـا أبـالـي إذا وعـدت بـوعـد
وخـدعت المنى بـطول المـطال
يـا بخيـلاً بـوصله كيف بـالغت
فمـا جـدت لي بـوصـل الخيـال
لم تجـد بالكـرى وجدت بـروحي
إن هــذا لـغـايـة في الـضـلال

ويبالغ في هذا الإتجاه حتى يتلمس العذر لهاجره[2] :

وبلّغـه عمـا أوجب الهجـر بيننـا
وإن لم يجد عذراً ، فعندي له عذر

ولكن هاجره يأتي على حين غفلة بعد هجر وصد دون أن يبدي سبباً لوصله أو لصده[3] :

يـا حـبـذا زورة تـأتـت
مـنـهـا عـلى غـفـلة الـلواح

---

(1) مسالك الأبصار 3/185 .
(2) المصدر السابق 185 .
(3) النفح 3/77 .

فلم أصدق بها سروراً
وظلت نشوان دون راح
أما منعت السلام دهراً
ولا رسول سوى الرياح
قالت : ألا فانسى ما تقضي
فمن يدع ما مضى استراح
. . . .
كأنما بت بين روض
والغصن والورد والإقاح

وبعد أن كان بخيلاً بوصل الخيال ، لا يبخل عليه هنا بشيء[1] :

ولا فيه من بخل ، ولا بي قناعة
كلانا بلذات التواصل معجب

بل هو مطواع رهن إشارته[2] :

بالله مل معتنقاً لاثما
فمال كالغصن ثنته الصبا
وقال : ما ترغب ؟ قلت اتئد
أدركت إذ كلمتني المرغبا
فكان ما كان ، فوالله ما
ذكرته دهري أو أغلبا

ويبدو محبوبه أحيانا وفياً مخلصاً يستسهل الصعب في سبيله[3] :

فقالوا ألا قد خان عهدك، قلت لم
يخن من إذا قربته يتقرّب

(1) المصدر السابق 3/52 .
(2) النفح 3/53 ـ 54 .
(3) المصدر السابق 3/51 .

وكـم دونــه من صــارم ومـثـقـف
فيـا من رأى بـدراً بهـذين يحجب
على أنـه يستسهل الصعب عنـدما
يـزور ، فلا يجـدي حمى وتـرقب

ويبدو أحياناً أخرى هاجراً متجنباً غادراً[1] :

هل الهجر إلا أن يطول التجنب ؟
ويبعـد من قد كـان منه التقـرب ؟
وتقــطع رســل بيننــا ورســائــل
ويمنــع لقيــانــا نــوى وتحجـب
إلى الله أشكـو عـذركم ومــلالكم
وقلبــاً لــه ذاك التعــذب يعــذب

ويلاحظ أن أغلب مقطعات غزله التي تعبر عن هجر وصد ، كالأبيات الأخيرة ، تعود إلى فترة اشتداد إحساسه بالغربة في تونس أو في مصر .

أما الجانب الخمري في جلسات لهـوه فلا يعـدو أن يكون تـرديداً لأجواء أبي نواس وأوصافه وتشابيهه ، إلا أنه ترديد وصدى خافت لا تسري فيه حيوية الصوت الأصلي : فهذه بعض الأوصاف والتأثيرات المعهودة عند أبي نواس :

شــربنــا عليـهــا قهــوة ذهـبيــة
غدت تشرب الألبـاب أيان تشـرب
إذا مــا شـربنــاهـا لنيــل مســرة
تـبـسّــم عــن در لــهــا فـتـقــطب
أتت دونها الأحقاب ، حتى تخالها
سـرابـاً بـآفـاق الـزجـاجــة يلعب

---

(1) المصدر السابق 3/ 45 .

كواكب أمست بين شرب، ولم تخل
بأن النجوم الزهر تدنو وتقرب
ظللنا عليها عاكفين وليلنا
نهار إلى أن صاح بالأيك مطرب
صرعنا، فأمس يحسب السكر قد قضى
علينا، وذاك السكر أشهى وأعجب

وعصبته في الشرب هي العصبة النواسية التي ترى الفساد صلاحاً وتكره التستر وتستثقل من يكره المزاح[2] :

لا يعرفون تستراً ... السكر عندهم مباح
متهتكون لدى المنى ... وفسادهم فيها صلاح
لا ينكرون سوى ثقيل ... لا يميل به مزاح
أفنى الذي قد جمّعو ... ه الكأس والحدق الملاح

وقد حاول ابن سعيد ، أثناء إقامته في العراق ، أن يستعيد الأجواء الخمرية النواسية في مواضعها الحقيقية . فعندما كان في بغداد اجتمع بالنجم بن شجير البغدادي ورآه « مكثراً من ذكر قطربل مع ما في النفس عنها من ذكر أبي نواس لها . فاقتضى الحال المسير إليها ، وهي كروم وبساتين على الغربي من دجلة ، ثم اقتضى الإجتماع » أن قام بنظم هذه الأبيات[3] التي تسير على نمط الحكاية الخمرية النواسية :

قم نديمي لحانة الخمّار
نتف ما قد أصابنا من خمار
قم لقطربل فإن بسمعي
لفظها غير محوج للقمار

---

(1) النفح 3/52 .
(2) المصدر السابق 3/71
(3) المقتطف ، ورقة 54 .

وهدانا شذى من الدير دارت
كأسه قبل حث كأس العقار
ثم جئنا إلى عجائز قس لابس
سبحة مع الزنّار
نسج العنكبوت ستراً عليها
كم به هتكت من الأستار
قلت ما هذه؟ فقال : شموس
ستروها بطلعة من وقار
ثم وافى بساطع مستطيل
يترك الليل في رداء النهار
لم نطق أن نزيد شيئاً
على الذوق، وبتنا صرعىً على الأزهار

ويمكن في هذا المجال متابعة ابن سعيد في ترديده لأصداء أبي نواس حتى في مبالغاته الشهيرة التي أخذها بدوره ممن سبقه من شعراء الخمرة أو التي زاد عليها حتى أوصلها إلى درجة التطرف الشديد . فها هو ابن سعيد يتحدث عن سكر يجعل الناس عبيداً في نظره ويربط بين وجوده وبين الخمرة :

يجري الزمان طوعي بكل ما أريد
الخمر ملكتني ... فالخلق لي عبيد
فها أنا إذا ما ... فقدتها فقيد
يا من يلوم بغياً العذل لا يفيد
إذا عدمت كأسي فليس لي وجود[1]

وقد تناول شعر ابن سعيد ، بالإضافة إلى ما ذكر ، موضوعات متعددة منها ما يدخل ضمن المدح أو الرثاء أو العتاب ، ومنها ما يمكن أن ينسب إلى شعر الرسائل الإخوانية ، وله قصيدة طويلة في مدح الحضرة النبوية

---

(1) النفح 3/82 .

قالها بعد أن تعذر حجه عند وصوله إلى الإسكندرية وأهميتها فيما تكشفه من شعور بالغربة تمت الإشارة إليه ، أما فيما عدا ذلك فإنها لا تتجاوز مسحة المدح والتفخيم بما تورده من ذكر للفضائل والمعجزات .

الناحية الفنية

من الحديث عن المظاهر الرئيسية في شعر ابن سعيد ومن الملاحظات الجانبية ، التي صحبت ذلك الحديث ، عن فنه ربما برزت بعض خصائصه الفنية الظاهرة . وسينصب الإهتمام هنا على هذه الناحية .

تكثر المصادر ـ ومن بينها مصنفات ابن سعيد نفسه ـ من ذكر المواقف الشعرية « الإرتجالية » له عند مدحه للأمراء أو عند اشتراكه مع أصحابه في وصف جلسات اللهو والمناظر الطبيعية . ولو حملنا تلك الأخبار على محمل الجد دونما تمعن طويل في تلك الأشعار « المرتجلة » ، لاعتقدنا أن البديهة والإرتجال والإنفعال العفوي يغلب على شعر ابن سعيد . ولكن التأمل حتى في تلك الأشعار التي قيلت « إرتجالاً » يثبت عدم صحة ذلك الإعتقاد ، بل ويثبت العكس تماماً .

وقد تكون تلك الأخبار صحيحة ، وليس من داع للشك في صحتها ، ولكن يجمل بنا أن نتنبه إلى أن لابنْ سعيد ، بحكم مهنته التصنيفية ، وبحكم اهتمامه بحفظ الشعر ونظمه منذ الصغر ، « تمرساً » طويلاً بالأساليب والصور الشعرية ، بل أنه يمكن القول أن ذاكرته قد خزنت أنماطاً معينة من التعابير والتشابيه والأفكار لتستخدمها « عند الحاجة » . . وإن مهمة ابن سعيد في تلك المواقف الشعرية الإرتجالية التي تتطلب عمل البديهة تنحصر في ملاءمته بين ذلك المخزون الشعري وبين الموقف المعين . فمن شعره المرتجل قوله مخاطباً أحد أصحابه ، وقد تمت الإشارة إلى ذلك من قبل :

يا واطىء النرجس ما تستحي ... أن تطأ الأعين بالأرجل ؟
قابل جفوناً بجفون ولا ... تبتذل الأرفع بالأسفل

إن تشبيه النرجس بالعيون تشبيه قديم معروف ، ثم إن المقابلة الذهنية بين أرفع وأرفع ، وأسفل وأسفل لا تحتاج إلى « بديهة » من ابن سعيد المصنف ، الذي تخضع تآليفه لنظام دقيق ، وحتى عبارة « جفوناً بجفون » توازي لفظاً الحكم الفقهي : « العين بالعين والسن بالسن » !

ويذكر ابن سعيد أن مقطوعته القطربلية ، التي ورد ذكرها ، قد قيلت ارتجالاً ، ولكن اتضح لنا كيف أن تلك الأبيات مجرد تكرار لمعان شائعة في شعر أبي نواس ، كانت مخزونة في ذاكرته منذ زمن بعيد ، أي منذ بداية عهده بالتقييد والنقل .

ويلاحظ في شعر ابن سعيد تكرار متواتر للمعاني الشائعة في الشعر العربي بحكم كثرة محفوظه ، وهذا التكرار إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذاكرة ، لا البديهة هي التي تسعف ابن سعيد في شعره الإرتجالي . وقد تنبه إلى هذا التكرار المحقق الذي حقق شعره في النفح (في طبعته المصرية الأخيرة) حين قال : « وأرى أن ابن سعيد يأخذ المعاني المسبوق بها فلا يحسن التعبير عنها تعبيراً حسناً يرضي بلغاء الأدب ونقاد الشعر ، وأكثر معانيه في قصائده كذلك »[1] .

وعلى العموم فإن كد القريحة عند ابن سعيد لا يتجاوز محصوله من الصورة أو الفكرة الغريبة، المبالغ فيها، الكثيرة التفاصيل، المستحيلة أحياناً . وصوره ـ كما ذكر من قبل ـ تتصف بالجمود والسكون في معظمها .

وقد أغرم ابن سعيد بما يسمى في البلاغة بحسن التعليل ، وله في ذلك أفكار كثيرة تبلغ حد المبالغة البعيدة والإحالة . من ذلك قوله يعلل وجود الريش في السهام[2] :

---

(1) انظر طبعة النفح التي راجعتها وزارة المعارف بمصر وصدرت باسم « دار مطبوعات المأمون » ، ح 8 ، ص 56 في هامش الصفحة . وهذه الطبعة هي غير الطبعة المعتمدة في هذا البحث ـ انظر قائمة المصادر والمراجع .

(2) المصدر السابق 3/37 .

قد كستها الطيور لما رأتها كافلات لها برزق عميم

وقوله يعلل أيضاً هجوم ثور على صاحب له[1] :

ثار ثور السماء في الأرض لما
أن رأى منك نيراً قمريا

وقوله مفسراً لم لا يهب ممدوحوه الكواكب والصباح ، في مدح مزدوج[2] :

لو لم يخافوا تيه سار نحوهم
وهبوا الكواكب والصباح المسفرا

وربما عادت هذه القدرة على حسن التعليل في الشعر إلى اللباقة الإجتماعية التي عرفت عن ابن سعيد ، فإن من مقومات اللباقة امتلاك البراعة والقدرة على إبداء الأعذار والأسباب .

ويبدو أن ابن سعيد يلجأ إلى كد القريحة والعمل الذهني المركز عندما ينظم في حالة هدوء وبعد عن أي نوع من أنواع الإنفعال ـ وقد نظم أغلب أشعاره وهو في هذه الحالة ـ أما عندما يكون تحت تأثير انفعال معين فإنه يلجأ إلى الأسلوب التقريري المباشر وتختفي الصور بشكل ملحوظ ، وحتى أسلوبه يفقد صقله ويقرب من الخشونة أو بعض الركاكة . وهذا يدل على أن الصورة الشعرية عنده ليست مرتبطة بالتجربة الشعورية بقدر ارتباطها بالبراعة الذهنية وكد القريحة . ويتضح هذا التمييز بجلاء عندما نقارن بين أشعاره في الإغتراب وبين أشعاره في المديح وفي الوصف . ففي الأولى نلمس أثراً للعاطفة ونفتقد الصور الدقيقة والأسلوب الصقيل وفي الثانية نرى العكس تماماً : عاطفة تكاد تكون منعدمة أو هي منعدمة بالفعل ، وعمل شعري حافل بالصور : مغلّف بأسلوب صقيل .

وأسلوب ابن سعيد يفتقر إلى التدفق والجزالة ، وهو إن حاول

---

(1) القدح 2 .
(2) المغرب 2/175

اصطناعهما وقع في تكلف واضح لا يلبث أن يكون ممجوجاً بعد بيتين أو ثلاثة . ولتعويض ذلك يلجأ إلى التأنق والصقل وهي طريقة تتناسب مع مذهبه في إيراد الصورة والفكرة . وعلى هذا الأساس جاء أسلوبه على الأغلب مثقلاً بالبديع والمحسنات اللفظية بشكل واضح ، وقد اتضح لنا ذلك من أمثلة سابقة . وهو ما يكاد يهمل التأنق والصقل الشديد حتى يقع في شيء من الركاكة تجعل من نظمه عبارات تصنيفية تربط بينها « إنما » و « حيث » و « لكن » الخ من الأدوات السائدة في النثر والتي يؤثر تكرارها على سلامة الأسلوب الشعري . فمن ذلك قوله في هذا البيت :

ولقد شكوت لهم إحالة ودهم
إن لم أكن أرضى بهم خدماء

وقوله :

والأماني تترى ، ولا أحد ينصح ،
إذ لا يصغى إلى قول ناصح

وقوله :

ولكن أبى ألّا يحن لغيركم
وألّا يرى عنكم مدى الدهر مذهب

تأثيرات متعددة في شعره

بعد أن تعرفنا إلى شعر ابن سعيد عن كثب ، يجمل بنا أن ننظر في التأثيرات التي سحبت ظلالها على شعره ، ولربما كان من الأفضل التحدث عن هذه التأثيرات منذ البدء إلّا أن عدم وجود خيط فكري شعوري يربط المادة الشعرية التي بين أيدينا جعل من الصعب تقديم الحديث عن تلك التأثيرات وتحديد مواقفها بدقة من نتاج ابن سعيد الشعري .

ولربما جاز لنا أن نوجز أهم التأثيرات فيما يلي :

1 ـ **بيئة أشبيلية والأندلس** : امتازت أشبيلية بنظافة شوارعها ، وأناقة مبانيها ، وترف أهلها وظرفهم وكان طبيعياً أن يتأثر ابن سعيد بمظاهر الأناقة

والرقة والترف وهو الذي أمضى سني شبابه في الحاضرة الأشبيلية ، كما أن الطبيعة الأندلسية الجميلة كان لها أثرها في تعميق اهتمامه بالمنظر الطبيعي من حيث اتخاذه محوراً شعرياً أو من حيث استخدامه في الصور البيانية .

2 ـ **تأثير ثقافته العامة** : عكس شعره كثيراً من مظاهر ثقافته الأدبية والتاريخية والجغرافية الفلكيـة . وقد بـرزت بعض تلك المظاهـر بصورة مباشرة في نتاجه الشعري . من ذلك قوله في رثـاء المعظم بن الصـالح الأيوبي وقد مات قتلاً على يد الترك بالسيف والنار والتراب[1] :

ليت المعـظم لم يسـر من حصنـه
يـومـاً ، ولا وافـي إلـى أمـلاكـه
إن الـطبـائـع إذ رأتـه مـكـمّـلاً
حسـدتـه فـاجتمعت على إهـلاكـه

وقوله في المعنى ذاته واصفاً الخمرة[2] :

قـد جـمعـت فيـهـا العنـاصـر إذ
غـدت مـاء ونـاراً في إنـاء هـواء

وقوله ، وقد ورد البيتان من قبل :

ثـار ثـور السمـاء في الأرض لمـا
أن رأى مـنـك نـيـراً قـمـريـا
جعـل النـطح بين روقيـه بـأسـا
فـتـلقـيـتـه بـخـمس الـثـريـا

وقوله في مدح ابن عمه[3] :

«سموأل» هذا العصر، «حاتم» جـوده
« مـهـلبـه » إن مـارسـتـه حـروب

(1) القدح 8 .
(2) المقتطف ، الورقة 54 .
(3) النفح 3/41 ـ 42 .

إذا رقم القرطاس قلت « ابن مقلة »
وإن نظم الأشعار قلت « حبيب »
فتى سيّر الأمداح شرقاً ومغرباً
« أبو دلف » من دونه و « خصيب »
وما أحرز « الصولي » آدابه التي
إذا ما تلاها لم يجبه أديب

وربما كانت هذه الظواهر ، على تعددها ، ظواهر سطحية ، ولكن الذي لا شك فيه ، وكما ذكر من قبل ، أن ثقافة ابن سعيد قد تغلغلت في فنه الشعري فتأثرت بها أفكاره وصوره في طريقة تركيبها ونحتها كما أن لغته الشعرية عكست مراراً مسحة النثر المستخدم في التأليف والتصنيف .

3 ـ **تأثيرات شعرية سابقة ومعاصرة** : تمت الإشارة إلى تكرار ابن سعيد للكثير من معاني الشعر العربي المشهورة ، ورأينا كيف احتفظ بالأثر الخمري وبالصدى النواسي خافتاً في أشعاره الخمرية .

بجانب ذلك يمكن تلمس بعض أثر لأبي تمام ، الشاعر الذي أورد له ابن سعيد في « عنوان المرقصات والمطربات » شعراً يزيد على ما أورده لأي شاعر آخر . وليس مستغرباً أن يتأثر ابن سعيد بأبي تمام . وهو الذي ـ على الصعيد النقدي ـ ينتمي إلى التيار الذي يعتبر أبا تمام إماماً في الشعر .

ويتجلى هذا التأثير أكثر ما يتجلى في الإفتتاحيات وفي إكثاره من استخدام العبارة الإنشائية المعهودة عند أبي تمام من مثل : قدك اتئب ، كذا فليجل الخطب ! . . الخ . شبيه بذلك قوله في افتتاح قصيدة مدح :

بالعدل قمت ، وبالسماح فلن ، وجد
لا فارقتك كفاية وعطاء

وافتتاح ـ في المدح ـ آخر ، وقد سار فيه على الأسلوب ذاته وطرزه بجناس لفظي بين الكرى والقرى :

جـد لي بما ألقى الخيـال من الكرى
لا بــد للضيـف المـلم من الـقــرى

وهذه المحاولة في جميع فضائل المشاهير في شخص الممدوح :

سمـوأل هـذا العصـر ، حـاتم جـوده
مــهـلبــه إن مــارســتــه حــروب

على غرار بيت أبي تمام في المعتصم :

إقـدام عمـرو ، في سمــاحـة حــاتم
في حلم أحنف ، فـي ذكــاء أيــاس

والواقع أن هذه الأساليب والمعاني اصطنعها أو كررها شعراء عديدون بين أبي تمام وابن سعيد ، وقد لا يكون التأثير مباشراً من أبي تمام نفسه ، كما أنه ليس من اليسير إثبات وجود تقليد مباشر عند شاعر لاحق بشاعـر سابق عبر بضعة أبيات ، إلّا أن الراجح ـ كما تبين ـ أن ابن سعيد ، على العموم ، يتحرك ضمن تيار المحدثين نقداً وشعراً .

وثمة أثر مغاير لأثر أبي تمام يمكن تلمسه في شعره : هذا الأثر يتمثل في نوع من الصدى الخافت (أيضاً) للمتنبي . وقد يكون من المستغرب اجتماع الأثرين ـ علي ما بينهما من تباين ـ في نتاج شعري واحد . إلّا أنه إذا ثبت وجودهما معاً فإن ذلك دليل آخر على انعدام « الخاصية الموحدة » في شعر ابن سعيد .

هـذه القصيدة عتـاب تمت الإشارة إلى بعض أبيـاتها قبـل قليل ، يوجهها ابن سعيد إلى ابن عمه وزير الحفصيين في تونس ، وفيها تظهـر اقتباسات مباشرة لمعان مشهورة في شعر المتنبي . . ويتعدى الأمر مجرد الإقتباس إلى محاولـة اصطنـاع العجب الشديـد بالنفس ، وتكلف الجـو المعهود بين المتنبي وسيف الدولة :

ولقـد كسبت بكم عـلا ، لكنها
صارت بأقـوال الـوشـاة هبـاء
ولقـد أرى أن النجـوم تقـل لي
حجبـاً وأصغـر إن أحـل سمـاء
فليهجـروا هجـر الفطيم لـدره
ويسـاعدوا الـزمن الخئـون جفـاء
فلقـد شكـوت لهم إحـالـة ودهـم
إن لـم أكـن أرضـى بـهـم خـدمـاء
إيـه فـذكـرهـم أقـل ، وإنـمـا
أومـي إلـيـك فـتـفـهـم الإيـمـاء
لـو لم يكن قيـد لمـا فتكت ظبـا
أنـت الـذي صيـرتـهـم أعـداء
إن لم يكن عـطف فمنوا بـالنـوى
إن الـكـريـم إذا أهـيـن تـنـاءى

ونلاحظ في البيت الثاني والرابع مبالغة في العجب بالنفس غير معهودة عند ابن سعيد . كما أن الشطر : « أنت الذي صيرتهم أعداء » معنى من معاني المتنبي المشهورة ، وعبارة « أومي إليك فتفهم الإيماء » من مخاطباته المعتادة لسيف الدولة .

ومحاولة أخرى على غرار السابقة يحاول فيها أن يصطنع أسلوباً جزلاً يقرب من افتتاحيات المتنبي في جوها المتدفق ، المعاتب ، ذي الطابع البدوي :

أمـا واجـب ألا يـحـول وجـيـب
وقـد بـعـدت دار وبـان حـبـيـب ؟
ولـيس ألـيـف غـيـر ذكـر وحـسـرة
ودمـع عـلى مـن لا يـرق صـبـيـب

وخفق فؤاد إن هفا البرق خافقاً
وشرق كما شاء الهوى ونحيب
وفائي إذا ما غبت عنكم مجدد
وغيري ذو غدر أوانَ يغيب
ولو لم يكن مني الوفاء سجية
لكنت لغير ابن الحسين أنيب

وهكذا يحسن التخلص ليأتي إلى ذكر ممدوحه ، ثم ليعاتبه على وتر المتنبي المشهور « فيك الخصام وأنت الخصم والحكم .

أشكوك ، أم أشكو إليك ؟ فما عدت
عداتي حتى حان منك وثوب

ومن الطريف أن نلاحظ أن ابن سعيد في هذه القصيدة سرعان ما يفقد هذا النفس المصطنع ، فتتلاشى آثار الجزالة ويخفت العجب بالنفس والإحساس بالصداقة الحميمة ، لينتهي بهذين البيتين حيث النظم قريب من الركاكة والحديث ضعيف متهالك :

سأشكر ما ولى ، وأخبر للذي
توالى ، على أن العزاء سليب
فدم في سرور ما بقيت ، فإنني
- وحقك - مذ دب الوشاة كئيب !

مما يدل على أن مطلع القصيدة فيه الكثير من الجهد والتكلف ومحاولة اللحاق بنموذج شاهق . وشبيه بذلك هذه المبالغة في الرثاء[1] :

بكت لك حتى الهاطلات السواكب
وشقت جيوباً فيك حتى السحائب

(1) النفح 3/47 ـ 48

فكيف بمن دافعت عنــه ، ومـن بــه
أحاطت ، وقد بوعدت عنه المصائب

وهي محاولة كسابقها تنتهي بنوع من النظم المتهالك :

ولـكـن قـضــاء الله ، مـن ذا يـرده
فصبراً ! فقد يرضى الزمان المغاضب
وإنـي لأدري أن في الـصبـر راحـة
إذا لـم تـكـن فيــه علـي مثـالـب

ويسير ابن سعيد ـ خلف من سار وراء المتنبي ـ في تساؤل العارف المشهور :

أريقـك أم مـاء الغمـامـة أم خمـر ؟

فيفصّل ابن سعيد ويفرغ[1] :

أوجــه صـبـح أم الـصـبـاح ؟
ولـحـظهـا أم ظـبـا الـصـفـاح ؟
وثـغـرهـا أم نـظـيـم در ؟
وريـقـهـا أم سـلاف راح ؟
وقـدهـا أم قـوام غـصـن ؟
وعـرفـهـا أم شـذا الـبـطـاح ؟

إلى جانب هذا التأثر بالشعراء السابقين ، يمكننا أن نتوقع وأن نتلمس تأثراً ببعض الجوانب من شعر ابن سهل . فابن سهل ـ كما رأينا ـ صديق مقرب لابن سعيد ، وربما كان أكبر شاعر صحبه وعاشره وعاصره ، ولهما مقطعات مشتركة في وصف بعض جلسات اللهو والسمر في منتزهات أشبيلية ولقد شارك ابن سعيد صاحبه ـ على صعيد الشعر ـ أموراً عدة .

---

(1) المصدر السابق 3 / 77 .

شاركه الميل الواضح الى شعر الطبيعة وإلى الغـزل الغلماني ، وشـاركه الإحتفال بالصورة البيانية وشاركه الميل إلى الأسلوب الرقيق في موضوعي الطبيعة والغزل خاصة ، إلا أنه لم يشاركه بالطبع مزاياه التي جعلت منه شاعراً مجيداً وأخصها حدة الإنفعال وسلامة الأسلوب وحتى في الصور التي شاركه فيها لم يكن بالمجيد إجادته . فلقد كان ابن سهل يأتي بالصـورة البيانية إكمالاً لرسم جو القصيدة بينما يأتي بهـا ابن سعيد مـطولة مفصلة ولذاتها لا لغرض آخر . وكان ابن سهل فذاً في أسلوبه السهل الرقيق بينما وجدنا ابن سعيد يقع في براثن النثرية إلاّ نادراً .

فعلى صعيد الصور البيانية نرى ابن سهل يمر سراعاً بصورة كهذه في وصف نهر[1] :

وجـرت بصفحتـه الصَّبـا فحسبتهـا
كف تنـمق فـي الصـحيفـة أسـطرا

فإذا بها عند ابن سعيد مفصلة ، فزاد عليها :

كـأنـمـا النـهـر صـفـحـة كـتـبـت
أسـطرهـا ، والـنسـيـم منـشئـهـا
لـمـا أبـانت عـن حسـن منـظرهـا
مـالت عليهـا الغـصـون تقـرؤهـا

ويأتي ابن سهل بصورة مسرعة للطيور على الأغصان :

والـطيـر قـد قـامت عليـه خـطيبـة
لـم تـتـخـذ إلاّ الأراكـة منـبـرا

فإذا بالصورة عند ابن سعيد منظر متعدد الجوانب ، مفصل[2] :

أومـا نـظرت إلى الحمـامـة تنشـد
والـغصـن مـن طـرب بـهـا يتـأود

---

(1) القدح 75 .

(2) النفح 3/82 .

ونـشـاره تـلقـاه جـائـزة لـهـا
لـمـا يـزل بيـد الـنسيـم يـبـدد
ألقى عليهـا الـطل بـرداً سـابغـاً
فـثـنـاؤه طـول الـزمـان يـردد

وبعـد فما كـان ابن سعيد في تـركيبه النفسي رجـل « تطرف » ولا « تأزم » بل كان رجل « اعتدال وتوسط » وإذا استطاع بسعة اطلاعه الشعري أن يصوغ شعراً ، فإنه لم يكن يمتلك من أسباب الزخم الشعوري المتدفق ولا من مزايا العقل المفكر النافذ ما يمكّنه من إنتاج شعر يحمـل صفات الشعر الجيد . وهكذا نرى كيف تبدأ قصائده بنفس خافت لشـاعر يتتبـع خطاه لتنتهي بجهد مرهق في صياغة نظم تنعكس فيه آثار الثقـافة وميـل واضح نحو التفنن في البيان والبديع ، وتبدو عليه بعض رقة في الأسلوب لا تلبث أن تضيع في تراكيب نثرية .

***

غير أن أهمية ابن سعيد ، في نهاية المطاف ، ستبقى في اصـراره العنيد المتواصل على العمل الثقافي رغم الانهيارات السياسية الكبرى في عصره ورغم كونه أحد ضحاياها .

لقد أصر الرجل على مواصلة رسالته الثقافية رغم ضخامة اللاجدوى، ووجـد في انتمـائـه الأعمق الى « دار الاسـلام » وحضـارتـه ـ مشـرقـاً ومغرباً ـ ما يعوضـه عن ضياع داره ومـوطنه . وكـانت رحلاتـه المشرقيـة المتتابعة رمـزاً لذلـك التفاعـل العميق والوحـدة المتصلة في دار الاسلام والعروبة .

ثبت بالمصادر والمراجع

1 ـ **ابن الأبار ، محمد بن عبد الله** : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق الفرد بل وابن أبي شنب ، المطبعة الشرقية ، الجزائر ، 1919م .

2 ـ **ابن الأبار ، محمد بن عبد الله** : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، اختيار وتقييد أبي اسحاق إبراهيم البلفيقي ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1957 .

3 ـ **ابن أبي زرع الفاسي** : الأنيس المطرب روض القرطاس ، أوبسالة ، 1843 .

4 ـ **ابن الأثير ، ضياء الدين** : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، الجزء الثاني ، المطبعة البهية ، مصر .

5 ـ **ابن تغري بردى ، أبو المحاسن** : المنهل الصافي ، الجزء الثاني ، مخطوطة دار الكتب تحت رقم ـ 1113 تاريخ .

6 ـ **ابن الخطيب ، لسان الدين** : الإحاطة في أخبار غرناطة ، نسخة مصورة عن مخطوطة الأسكوريال .

7 ـ **ابن خلدون عبد الرحمن** : كتاب العبر ، الجزء السادس ، طبع بولاق .

8 ـ **ابن رافع ، السلامي** : تاريخ علماء بغداد ، المسمى منتخب المختار ، طبع بغداد ، 1938 .

9 ـ **ابن الزبير** : صلة الصلة ، تحقيق أ. بروفنسال ، الرباط ، 1937 .

10 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان خينيس ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ، 1958 .
11 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق غرسيه غومس ، مدريد ، 1942 .
12 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : عنوان المرقصات والمطربات ، بولاق ، 1286هـ ، وكذلك القسم المغربي من الكتاب ، تحقيق محداد عبد القادر ، الجزائر ، 1949 .
13 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، دار المعارف بمصر ، 1945 .
14 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : القدح المعلى في التاريخ المحلى ، اختصره أبو عبد الله محمد بن خليل ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ، 1959 .
15 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : المشرق في حلى المشرق ، نسخة مصورة عن مخطوطة بالمكتبة التيمورية تحت رقم 2532 ـ تاريخ .
16 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الخاص بالأندلس وعنوانه الأصلي « وشى الطرس في حلى جزيرة الأندلس » يقع في جزئين ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، 1953 .
17 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر وعنوانه الأصلي « الإغتباط في حلى مدينة الفسطاط » تحقيق الدكاترة : زكي حسن ، شوقي ضيف ، سيدة كاشف ، القاهرة 1953 .
18 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : المقتطف من أزاهر الطرف ، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة سوهاج تحت رقم 303 أدب .
19 ـ ابن سعيد ، **علي بن موسى** : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقم 1166 تاريخ .
20 ـ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، الجزء الثاني ، طبعة بولاق ، 1283هـ .

21 ـ ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسي ميرانده ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ، 1963 .

22 ـ ابن فرحون ، برهان الدين : الديباج المذهب في أعيان المذهب ، مطبعة المعاهد ، مصر 1351 هـ .

23 ـ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، نسخة مصورة عن مخطوطة طوبقيو سراي (رقم ـ 2797) ، الجزء الثالث والجزء الثامن .

24 ـ أبو البقاء الرندي : الوافي في نظم القوافي ، نسخة مصورة عن مخطوطة « ك » .

25 ـ أشباخ ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، الجزء الثاني ، منشورات « بيت المغرب » بالقاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1359 هـ ـ 1940 م .

26 ـ بالنثيا ، آنجل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، من مختارات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1955 .

27 ـ التجاني ، عبد الله : رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسين عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، نشريات كتابة الدولة للمعارف ، تونس 1958 .

28 ـ جب ، هاملتون : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة الدكاترة : إحسان عباس ، محمد نجم ، محمود زايد ، دار العلم للملايين بالإشتراك مع مؤسسة فرنكلين ، بيروت 1964 .

29 ـ جبور ، جبرائيل : ابن عبد ربه وعقده ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1933 .

30 ـ حتي ، فيليب : تاريخ العرب (مطول) ، بالإشتراك مع الدكتور جبرائيل جبور والدكتور أدورد جرجي ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت 1965 .

31 ـ حسن ، زكي محمد : الرحالة المسلمون في القرون الوسطى ، دار المعارف بمصر 1945 .
32 ـ حسن ، زكي محمد : فنون الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1948 .
33 ـ زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثالث ، مطبعة الهلال ، مصر 1931 .
34 ـ السيوطي ، جلال الدين : بغية الوعاة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، 1326 هـ .
35 ـ السيوطي ، جلال الدين : حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، القاهرة ، 1321 هـ .
36 ـ عباس ، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت 1960 .
37 ـ عباس ، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت ، 1962 .
38 ـ الغبريني ، أحمد : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية الجزائر ، 1328 هـ ـ 1910 .
39 ـ القلقشندي ، أحمد : صبح الأعشى ، الجزء الثالث والجزء الرابع والجزء الخامس دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1914 .
40 ـ القلقشندي ، أحمد : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ، نشر دار الكتب ، القاهرة .
41 ـ القلقشندي ، أحمد : نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب تحقيق علي الخاقاني ، منشورات دار البيان ، بغداد ، 1958 .
42 ـ كراتشكوفسكي ، أبي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي القسم الأول ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، من مختارات الإدارة الثقافية في

جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1961 .

43 ـ **مجهول** : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق د. س. علوش ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية رباط الفتح 1936 .

44 ـ **المقري ، أحمد** : أزهار الرياض ، الجزء الثالث ، طبعة مصر .

45 ـ **المقري ، أحمد** : نفح الطيب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد الأجزاء : الأول والثالث والرابع والخامس ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة 1949 .

46 ـ **المنوني ، محمد** : العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين ، منشورات معهد مولاي الحسن ، المطبعة المهدية ، تطوان (المغرب) 1950 .

47 ـ **الناصري ، أحمد** : الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الجزء الثاني ، دار الكتاب الدار البيضاء ، 1954 .

48 ـ **ياقوت الحموي** : معجم الأدباء ، الجزء السادس عشر ، مطبوعات دار المأمون بمراجعة وزارة المعارف ، مصر .

49 ـ **ياقوت الحموي** : معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت 1955 .

مراجع عامة

50 ـ **الموسوعة الإسلامية** : مادة « إبن سعيد المغربي » .
مادة : « جغرافيا » .

مراجع أجنبية عامة

51 ـ **Brockelmann, C.: Greschichte der Arabishen Litteratur**, supplement band III, Laiden, 1942.

52 ـ **Kammerer, A.: La Mer Rouge, L'Abyssinie, et L'Arabie depuis L'Antiquité,** vol.I, Le Caire; 1935.

فهرس محتويات الكتاب

تمهيد

بين يدي البحث : شاهد عصره 13

مقدمة :

البيئة السياسية والثقافية المتفاعلة بين المغرب والمشرق 21

الفصل الأول :

سيرة ابن سعيد : **نشأة أندلسية ورحلات مشرقية** 79

الفصل الثاني :

شخصيته وثقافته العامة : **نزعة مغربية بفضول مشرقي**.. 107

الفصل الثالث :

علمه ومصنفاته ومنهجه : موسوعية الشاهد الثقافي

بين مغرب ومشرق 145

الفصل الرابع :

الرحالة الجغرافي : تصوّرات مغربيةً لجغرافية المشرق 201

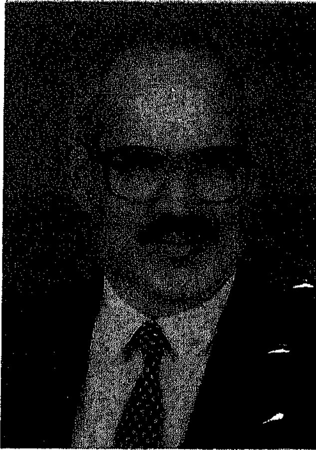
الفصل الخامس :

آراؤه النقدية : **نزعة متحررة من قديم المشرق**..... 223

الفصل السادس :

آثاره الشعرية : **غربة مغربية في صنعة مشرقية محدثة** 251

ثبت مصادر البحث ومراجعه 299



المؤلف

د. محمد جابر الأنصاري

* ولد في البحرين عام 1939 .
* دكتوراه في الفكر العربي الإسلامي الحديث من الجامعة الأمريكية ببيروت 1979 .
* حضر دورة دراسية على مستوى الدراسات العليا بجامعة كيمبردج 1970 ـ 1971 .
* يحمل شهادة اللغة والحضارة الفرنسية من السوربون ـ فرنسا ـ عام 1982 .
* رئيس الإعلام وعضو مجلس الدولة بالبحرين 1969 ـ 1971 .
* شارك في مجلس تأسيس معهد العالم العربي بباريس 1981 / 1982
* من مؤسسي أسرة الأدباء والكتاب بالبحرين وأول رئيس لها 1969 .
* مارس التعليم في المعهد العالي للمعلمين بالبحرين والجامعة الأمريكية ببيروت ، وفي جامعة الخليج العربي حالياً .
* حصل كتابه « تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي » على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام 1981 .
* حائز على جائزة الدولة التقديرية في البحرين .
* يكتب في الصحف والمجلات والدوريات العربية .
* عضو المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون بدولة البحرين .

مؤلفاته

1 ـ العالم والعرب سنة 2000
2 ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي
3 ـ هل كانوا عمالقة ؟
4 ـ الحساسية المغربية والثقافة المشرقية
5 ـ لمحات من الخليج العربي
6 ـ تجديد النهضة : باكتشاف الذات ونقدها

* * *

A MASTER OF INTERCULTURAL HISTORY IN ISLAM

Ibn Sa'id Al-Maghribi his works and cultural voyages

Ibn Sa'id Al-Maghribi (1213-1285 A.D.) is one of the great masters of Arabic cultural compilation (TASNIF) in the Middle Ages.

A historian, geographer, critic and poet, he also represented that "wholestic" and encyclopedic type of Intellectuals in the history of Islamic Civilisation

Beiny the last descendant of one of the leading aristocratic and cultured Arab families of Muslim Spain, Ibn Sa'id left his native country (Al-Andalus) during the critical period of the Spanish Reconquest in 1236, to start a long and rich series of cultural voyages to North Africa, and latter, to the great centres of the Arab East in Egypt, Syria, Iraq and Hijaz where he also visited the holy Shrines for **Hajj**.

During these literary and geographic voyages -in the tradition of the great Arab and Moslim travellers- Ibn Sa'id met a great number of cultural and political personalities, and also visited several places of historical interest.

He compiled all this first-hand knowledge in his famous two encyclopedic books: "Al-Mughrib" and "Al-Mushriq" which both still represent an important source for historicag and cultural research in the fields of Islamic Civilisation in the present book, DR. Mohammad Jabir AL-ANSARI, the Professor of Arabic and Islamic studies in the Universities of Bahrain and the Arabian Gulf, has contributed and produced the first comprehensive study in Arabic of this cultural historian: hisage, works, and impact in the light of the intercultural movements of men and ideas within the integratel unity of Islamic Civilisation.

A MASTER OF INTERCULTURAL HISTORY IN ISLAM

Ibn Sa'id Al - Maghribi

his works and cultural voyages

By

DR. MOH'D. JABIR ALANSARI

Professor of Islamic Studies, Bahrain



DAR AL GHARB AL ISLAMI



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم	:	1992 - 9 - 2000 - 218
التنضيد	:	سامو برس — بيروت
الطباعة	:	دار صادر — بيروت

A MASTER OF INTERCULTURAL HISTORY IN ISLAM

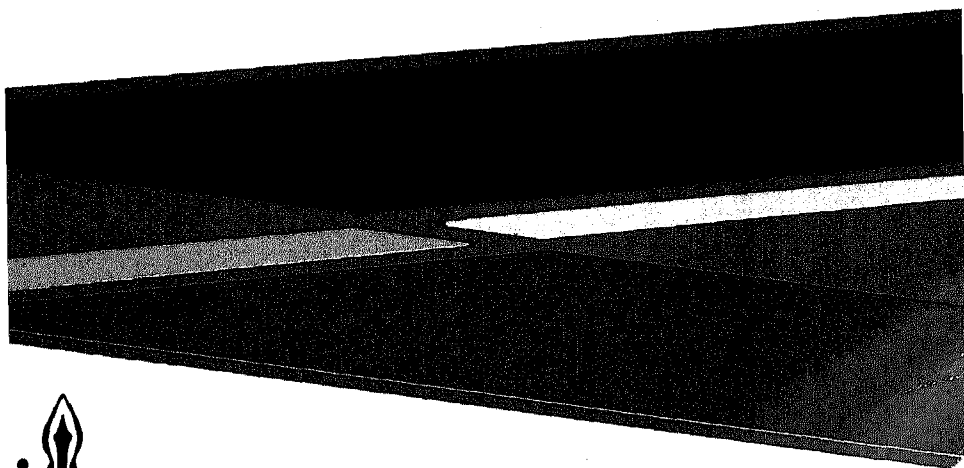
Ibn Sa'id Al - Maghribi

his works and cultural voyages

By

DR. MOH'D. JABIR ALANSARI

Professor of Islamic Studies, Bahrain





DAR AL GHARB AL ISLAMI